رواية

رباعية بحرى

محمد جبريل

ياقوت العرش

رباعية بحرى

ياقوت العرش

محمد جبريل

" دعنى أخبرك : إن صياد السمك يقاسى أكثر من غيره من أصحاب الحرف الأخرى . إنه يتعرض لخطر التماسيح ، وللغرق .. وعندما يلقى بطراحته فى الماء ، فإن رزقه يصبح معلقاً بيد القدر .. هل ثمة حرفة أخرى أقسى من ذلك ؟ "

" من مخطوط مصرى قديم "

رؤيـــــا

" فالتفت قاضى القضاة للفقير ، وقال : ياسيدى لوجه الله . وسار يستعطف بخاطر الفقير ، ويتذلل له ، ويلين له الكلام ، والشيخ شمس الدين يبكى ، ويتملق بين يديه . فقال : تتوب إلى الله تعالى . فقال : نعم ، ولا أعود لمثلها . فقال له الفقير : إن كان لابد ، فسافر إلى ناحية الإسكندرية ، واجتمع بسيدى ياقوت العرش ، فإنك إن شاء الله تعالى تلقى الفرج على يديه "

" فاستيقظ الشيخ شمس الدين بن اللبان ، فقام مسرعاً لباب الخلوة ، فوجد سيدى ياقوت العرش واقفاً ببابها يهدد ، ويهمهم ، وله زئير كالأسد ، فقال : يا محمد ، أبشر ، فقد قضيت حاجتك ، فإنى سقت عليه جميع الأولياء ، فلم يقبل ، فسقت عليه سيد الأولين (ص) وقد رأيت ذلك بعينك ، فسافر الآن من وقتك ومن ساعتك إلى طندتا ، وطف حول

صندوق سيدى أحمد البدوى ، وأقم عنده ثلاثة أيام ، فإن حاجتك قد قضيت إن شاء الله تعالى "

كتب محمد فريد وجدى فى " دائرة معارف القرن العشرين " :

" مما يجب أن يسجّل فى باب الرؤى التى وقعت كفلق الصبح ، ما رأته إحدى السيدات ممن لهن ببيتنا صلة ..

رأت تلك السيدة فى إحدى السنين ، كأن الأستاذ ياقوت العرش المدفون بقرب أبى العباس المرسى بالإسكندرية ، قابلها ، فحاولت الاستتار منه .. فقامت خلف باب ، فخاطبها بما معناه : إن الله سيعوضها عن صبرها خيراً ، وسيعلى قدرها بين الناس..

ثم قال لها :

ــ عدى الشهر ، فإذا مضى سبعة عشر ، أو سبعة وعشرون يوماً (شك من رائية المنام) ألحق زوجك بوظيفة فى الحكومة .

وأعاد إليها قوله :

ــ عدّى الشهر ..

ثم انصرف ..

فلما استيقظت ، أخبرت طائفة من الناس بما رأت . وكان من تلك الطائفة أهل بيتنا . ثم عدوا أيام الشهر ، فما وافى اليوم السابع عشر ، حتى ألحق زوجها بإحدى الوظائف..

ولا ننسى أن نقول ــ عقب هذا ــ أن زوج هذه السيدة لم يكن موجوداً بوظيفة في يوم معين ، بل كان أشبه باليائس من التوظف . وكان من بيده توظيفه ، مسافراً في مشتاه بالقاهرة ..

ولا ننسى أيضاً أن نقول بأن تلك السيدة رأت الأستاذ ياقوت العرش بهيئة حبشي نحيف الجسم ، وأعطت كثيراً من أوصافه ، فرؤيت مطابقة لما ورد عن سماته في كتب السير..

(المجلد الرابع – ص ٩٦١)

تصحيح خطأ :

ذكرنا فى مادة < زاى > عند الكلام على الرؤيا ص ٩٦١ أن سيدة رأت الأستاذ ياقوت العرش فى النوم يكلمها بكلام ، جاء فيه هذه العبارة < عدى الشهر ، فإذا مضى سبعة عشر ، أو سبعة وعشرون يومـــاً ، ألحق زوجك بوظيفة فى الحكومة > ..

بعد أن كتبنا ما كتبناه ، أتفق أن حضرت السيدة صاحبة المنام ، فاستعدناها إياه ، فأعادته كما كتبناه ، إلا أنّها قالت إن الأستاذ ياقوت العرش لم يصرح لها بتوظف زوجها فى الحكومة ، بل قال لها – بعد أن بشرها بالخير والرزق – عدّى من الشهر ٧١ يوماً أو ٧٢ ، ولم يزد !

(المصدر السابق – المجلد الرابع– ص٩٩٧)

رأت أنسية ــ فيما يشبه الحلم ــ سيدى ياقوت العرش ..

لم تفاجئها رؤيته . استقر القلب فى موضعه ، منذ التقى بها سيدى المرسى . فلجأها المكان . مسحته بعينيها . تأكدت

أنه هو البيت المهجور : الظلمة الشفيفة ، والصالة الواسعة ، والكنبة الوحيدة الملتصقة بالجدار ، والكراسى القديمة ، والإطارات المستعملة ، وعرق الخشب الضخم يصل ما بين المنتصف وأعلى النافذة المطلة على الشارع الخلفى ..

طقطق باب الحجرة ، فهبت مذعورة . غابت ــ لشدته ــ تفصيلات المكان . دخل من الباب المغلق ، رجل فى حوالى الأربعين . أيقنت أنه هو الإمام ياقوت العرش : قامته النحيلة ، وسمرته الحلوة ، وعينيه الواسعتين ، المكحولتين ، والسكينة الغالبة على حاله ، والسبحة الهائلة الحجم تجرى على حباتها أصابعه ..

لماذا اختار زيارتها حيث تقيم ؟.. وهل يعرف أنها منعت تردد الرجال عليها ؟..

همس محمود عباس الخوالقة فى أذنها ، وهى تميل من شارع الحجارى إلى ميدان المساجد :

ــ سأزورك فى العاشرة .. الليلة ..

نقر على الباب فى الموعد وهو يتلفت . طال ترقبه ، فعلت ضرباته . ظل السكون سادراً . غلبه الارتباك حين

علا النور فى نافذة بالبيت المواجه . ترقبها فى زحام شارع الميدان :

ــ أين كنت ؟

لوت بوزها :

ــ لم أعد أذهب إلى البيت ..

وهو يلاحقها :

ــ أين تقيمين إذن ؟

نفضت طرف الملاءة بعصبية :

ــ ليس شأنك !

ــ أنسية !..

فى صوت يرعشه الغضب :

ــ كلمة زائدة وأفرج عليك الخلق !

لم تكن أنسية التى عرفها . الخاتم الذى عثر عليه فى محطة دمنهور ، وسكت عن تنقله بين أصابع الآخرين ، يلتقطه كلما ناوشته الرغبة ..

أذهله رفضها ..

كان قد أمضى يومه فى زيارة أخواله بحى أبو الريش . البيت يطل على وابور النور ، وعلى المحالج ، وتفضى

نهاية الطريق أمامه إلى السكة الزراعية . يهمل نداءات حوذية الحناطير . يفضل السير ماشياً ، إلى شارع الصاغة ، حتى ميدان المحطة ..

لاحظ حيرتها وهى تقف على رصيف المحطة ..

خمن أنها قدمت بقطار دسوق . انتحى رصيفاً جانبياً ، واتجه ركابه إلى الباب الخارجى ..

تأكدت الحيرة فى تنقل خطواتها بين الواقفين على رصيف القطار القادم من القاهرة ، والواقفين على رصيف القطار القادم من الإسكندرية . تلقف سؤالها عن المدينة التى يسافر إليها القطار ..

قال باندفاعته العفوية :

ــ أى قطار تريدين ؟

مالت ــ بالمفاجأة ــ إلى الوراء . غالبت الارتباك ، ومضت ناحية الباب الخارجى ..

لحقها صوته :

ــ إذا خرجت ، فلن يسمحوا لك بالعودة ..

أبطأت خطواتها ، فأيقن من حيرتها . أخلى وجهه لابتسامة ود :

ـــ أى قطار تريدين ؟

عجزت عن مغالبة دموعها ، فبكت . انخرطت فى بكاء حاد ، متواصل . طرف خيط قادها منه إلى بحرى . صحبها إلى إسطبل التميمى ..

أهمل سؤال أمه فى الصباح عن رائحة العليق الملتصقة بجسمه . عاد إلى أنسية قبل الغروب . ترك له شاهين عبد الفتاح ، العلاف بالموازينى ، شقته المطلة على أبو العباس . ثم صحبها إلى أصدقاء عزاب ، عرفت التردد عليهم ـــ فيما بعد ـــ وحدها . وعرفت شوارع بحرى وحواريه وأزقته . لم يسألها عن البيت المهجور : كيف عرفته ، ولا من صحبها إليه أول مرة ، فجعلته بيتاً لها . ينتظرها فى ناصية سليم البشرى ، أو فى الساحة الواسعة قبالة دكان الحاج محمد صبرة ، أو فى مدخل السيالة . يحاذيها ، ويهمس بالموعد . يجدها فى انتظاره . لا تسأل ، ولا تناقش ، ولا تعترض .. فماذا جرى ؟!

لم يزرها منذ تلك الليلة ..

لزمت البيت ، لا تغادره إلا لقضاء حاجة . خصص لها سيد مصروفاً تنفق منه . جرت النقود فى يده من صدقات

المحسنين ، فترك الفرن . أقام كشكاً فى مطلع الدحديرة الخلفية لأبو العباس ، ناحية الموازينى . يبيع أدوات المراكب والصيادين : الحبال والأخشاب والفلين وقطع الحديد وبراميل الزفت والبوص والغزل ..

روى لها عن الأيام التالية لمغادرة السلطان ضريحه ..

أزال عن وجه الحياة فى بحرى التصرفات الخاطئة . أشرقت مكاشفته ، وتلألأت ، واستطاعت التصرف فى هيولى العوالم المظلمة . انداحت ، فبددتها أضواء حضرة الجلال والعزة . طلب الإمام نقله إلى ديوان وزارة الأوقاف . نسى فى صلاة الجمعة ، فأعاد قراءة الفاتحة ، وأخطأ فى آيات من سورة البقرة ، فعلت أصوات المصلين بالآيات الصحيحة . تغيرت طبيعة الجلسة فى درس المغرب . شهد نصف الدائرة ــ حول الإمام الجديد ــ مريدين لم يترددوا على الجامع من قبل . اختفى عبد الرحمن الصاوى . أخبر الأقربين أنه اعتزم قضاء بقية أيامه مع أبنائه فى القاهرة . هواؤها الجاف يساعد على شفائه من الربو . اكتفى الحاج قنديل بجلسته فى الحلقة منذ الصباح إلى العصر . يتردد ــ دقائق ــ على قهوة الزردونى ، أو مطعم النبلاء . ثم

ينصرف إلى بيته فى السيالة ، لا يغادره إلى اليوم التالى . تصور أبناؤه ـــ فى البداية ـــ أنه مريض . ألحّوا عليه فى الخروج والنزهة وشم الهواء ، والتردد على مجلس محمد صبرة ودرس المغرب . اصطدم الإلحاح برفض صامت ، وإقبال على الصلاة ، ربما فى غير المواقيت الخمسة . تباطأ إلحاحهم وذوى ، فألفوا بقاءه فى البيت ، لا يغادره إلاّ لضرورة عمل ، أو لصلاة الجمعة . لم يعد يحرص على أدائها فى أبو العباس . يضع التلفيعة على كتفيه ، ويعبر الطريق إلى مسجد سيدى نصر الدين ، المقابل . يؤدى الصلاة ، ويعود . يكتفى بالرد على السلام والتحية . حتى دعوات التميمى بأن يجالسه أمام الإسطبل ، يرد عليها بتمتمات مجاملة ، مدغمة . وضع حمادة بك همه فى الاستعداد للانتخابات . زاد من معارفه ـــ بعيداً ـــ عن السيالة ، ليعينوه فى حملته . تزايدت أعداد الوافدين إلى الجامع . ضاقت بهم ساحته ، فاقتعدوا المدرجات ، والساحة المقابلة ، واستندوا إلى الجدران والنخيل وأعمدة النور ، يلتمسون البرء والنصفة والمدد ..

اختنقت الكلمات فى حلقها :

ـــ سيدى .. أنا لم ..

قاطعها فى لهجة مشفقة :

ـــ أعرف ..

وأحاطها بعينيه :

ـــ متى تذهبين إلى بيتك ؟..

استطرد موضحاً :

ـــ بيتك أنت وسيد ..

خالطت الحيرة صوتها :

ـــ كل منا فى حاله حتى نجد غرفة تؤوينا ..

قال الإمام :

ـــ ما يدفعه سيد فى قهوة كشك يكفى إيجار شقة ..

أحنت رأسها :

ـــ أصحاب البيوت يرفضون ..

رنا إليها بنظرة متأملة :

ـــ أعرف ..

ثم ومضت عيناه بالتذكر :

ـــ اذهبى فى الغد إلى التاجر كمال مصباح . سأزوره الليلة ، وأوصيه بك ..

أخذ عليها القسم بألاّ تروى ما دار بينهما إلا لسيد . قال:

ـــ أخاف أن يطالبك الناس بتأكيد ما تقولين . عندى من الضعف والمشغوليات ما يبعدنى عن السير فى طريق الوهم..

وقال وهو يذوب فى الفراغ المحيط :

ـــ قال سيدنا رسول الله : لست بملك !.. والشكوى لغير الله طريق السائرين وراء راية إبليس !..

***

الدكان فى شارع الميدان . يبيع المانيفاتورة : أقمشة الكريشيت والبفتة والدمور والشيلان والكشمير والبوبلين والبراقع والملس والكريشة الحرير ..

هتف الرجل كأنه ينتظرها :

ـــ هل أنت ؟ ..

فى حوالى الخمسين . له حاجبان كثيفان ، يعطيان إحساساً بالقسوة ، وإن ناقضتهما الشفتان والملامح الرقيقة لبقية الوجه . يرتدى " بنش " تكشف فتحة صدره عن جلباب من الصوف ، ويلف حول عنقه كوفية بنية بشراشيب ،

ويضع على رأسه طربوشاً أماله ناحية اليسار ، وأمسك بيده مسبحة من الكهرمان ..

روى لها عن استقباله سيدى ياقوت العرش فى نومه ، عقب زيارة العرش لها ..

قال :

ــ هل تعرفين شارع البلقطرية ؟..

وهى تضم أطراف ملاءتها :

ــ نعم ..

وهو يمد يده فى درج المكتب :

ــ لى بيت هناك .. تخلو شقة بطابقه الأرضى .. هى لك ولزوجك ..

أخرج من الدرج جنيهات ، دفعها إليها ..

تراجعت :

ــ تكفى الشقة ..

قال :

ــ الشقة خالية ، وتحتاج إلى تأثيث ..

أضاف يستحثها على القبول :

ــ هذا أمر سيدى ياقوت العرش !

***

قال سيد :

- ألا يوجد غير هذه الشقة ؟

وهى تعير بأصابعها :

ـ إنها غرفتين وصالة ..

أخاف :

ـ أخاف الشارع ولا أرفض الشقة !

همست متسائلة :

ـ المخدرات ؟!

وأشاحت بيدها مهونة :

ـ مادمنا فى حالنا ، فلا شأن لنا بما يتاجر فيه أهل الشارع ..

وهو يتلاعب بقطعة حبل فى يده :

ـ هل نسيت أن فؤاد أبو شنب يسكن البلقطرية ؟!..

أفق الغيـــوم

قال قاسم الغريانى وهو ينفخ :

ــ حررررر !

ثم وهو يجفف بالمنديل المحلاوى حبات العرق النابتة فى جبهته ووجنتيه ورقبته ومعصميه :

ــ عرفت الآن فقط .. لماذا اختار الله النار وسيلة للتعذيب فى الآخرة !..

أسفلت الطريق ينفث صهداً ، والرياح الساخنة تكنس الشوارع ، تثير دوامات الهواء ، صغيرة ، سريعة ، متلاحقة ، ترتفع إلى أعلى فى عمود متماوج . تكسو البنايات ومدى الرؤية بغلالة رمادية ، تلسع الوجوه بكرابيج ملتهبة ، وتقتحم الأفواه بالتراب ، والرطوبة المشبعة بالملح ثقيلة وخانقة . حتى الظلال استكانت ، لا تتحرك ، على الأرض والجدران ..

قال محيى قيطان :

ــ أين كنت ؟

وهو يحرك المنديل أمام وجهه التماساً للهواء :

ــ فى قسم الجمرك ..

يحلقت عيناه :

ــ لماذا ؟

هل افتضح أمره ؟..

إخفاء دخوله القسم سيدينه بالكذب . رآه حمودة هلول والعسكرى يصحبه إلى داخل القسم ، ويداه مكبلتان . استوقفه مخبر ، وهو يضع على كتفه فخذة لحم . زاد شكه حين جرى لرؤيته ..

قال قاسم الغريانى بصوت متراخ :

ــ خطفت فخذة لحم من عربة جيب إنجليزية ..

وهو ينخسه فى بطنه بمودة :

ــ ماذا فعلوا معك ؟

فى نبرة مستهينة :

ــ ثالث يوم ، أفرج عنى ضابط المباحث ..

نقر على الترابيزة بإصبعه :

ــ تستاهل !

عض الغريانى بأسنانه طرف شاربه :

ـ إنهم يسرقون البلد .. فماذا لو سرقنا طعامهم ؟

قال محيى قبطان :

ـ وماذا تسرق بعد خروج الإنجليز ؟

ـ أسبوع ويتركون الإسكندرية ..

هتف حمودة هلول :

ـ المعلم ناجي أبو لين وصل ..

قامة طويلة ، أقرب إلى الامتلاء ، وإن بدا جسمه غير متناسق . يعالج شعره المجعد بدهانات يعدها له محمد صبرة ، يأتى بها صابر الشبلنجى من سوق الدقاقين . أنفه الضخم لا يتسق مع نحافة وجهه. عيناه تشبهان عينى سمكة ميتة ، فلا بريق ، واللون باهت . وثمة سواد أسفل العينين ، وانتفاخ فى الحاجبين . وكست الشعيرات البيضاء فوديه . يرتدى جلابية من الكتان الأبيض المزهر ، ويحرص على عوجة الطربوش ، وأن يكون الزر بالجنب ، ويدس قدميه فى مداس مغربى ..

قال المعلم التميمى :

ـ اسمى ناجى التميمى ..

قال حمودة هلول :

ـ أبو لبن هو لقب كل العربجية ..

قال التميمى :

ـ العربجى أبوك !

لمح الحاج أحمد الزردونى حركة يد التميمى من جيبه إلى الترابيزة . صاح :

ـ إلاّ هذا ..

أردف فى صياحه :

ـ لا تشرب الزفت فى قهوتى ..

قال التميمى فى بلادته الهادئة :

ـ ماذا جرى لك يا زردونى ؟

قال الزردونى :

ـ مستحيل أن تشرب الخمر تحت أعين الأولياء ..

قال التميمى :

ـ هذه قهوة وليست مسجداً ..

أشار الزردونى بامتداد ذراعه إلى الطريق :

ـ تفضل يا معلم تميمى !..

قال التميمى فى نبرة ملاينة :

ـ أنا أتعاطى الحشيش أو الأفيون .. لكننى لا أتعاطى المحرمات ..

استعاد الزردونى الكلمة :

ـ المحرمات ؟!

قال التميمى :

ـ القرآن حرم الخمر .. وأنا لا أتعاطاها ..

ثم وهو يومئ إلى الزجاجة :

ـ هذه راوند .. أشربها لصدرى ..

ولجأ الى يديه معبراً :

ـ أنا أؤدى فرائض الشرع ، فلا أزيد عليها .. ولا أحرم نفسى من اللذات المباحة ..

قال الجد السخاوى :

ـ من يفتش فى مخك .. لن يجد إلاّ المسخرة !

تلفت التميمى حوله فى تعاظم :

ـ عانت نساء كوم بكير من هجرة أهل المدينة فى أعوام الحرب .. أنا أحاول تعويضهن !..

لم يعرف عنه أنه يؤدى الفرائض ، فهو لا يتردد على المساجد ، ولا يشارك فى حلقات الذكر أمام أبو العباس

والبوصيرى ، ولا يزاحم فى الموالد ، ولا انتوى أداء الحج . يقينه ــ طالما أعلنه ــ أن كل شئ مكتوب فى القدر . ما هو مكتوب فى القدر لابد أن يحدث ، فلا ملامة إذن فيما يصدر عن الإنسان ، والأمور تستوى فى الطاعة والمعصية ، مادام الله يستغنى عن أعمالنا ، ولا يتأثـــر بها ..

عرف عنه صداقته لتجار الصنف فى البلقطرية . وقال صابر الشبلنجى أنه يشاهده كل صباح ، يضع على لسانه فصاً أسود ..

كثر تردده على كوم بكير ..

كون صداقات وعلاقات . ألف الوجوه ، والأجساد ، والبارات ، والغرز ، والفوانيس المتدلية على الأبواب ، والستائر المنفرجة ، والمسدلة ، والكراسى المرصوصة أمام الجدران ، والملابس الشفافة ، والدعوات الصريحة ، والهامسة ، والنظرات المحدقة ، والمتأملة ، والمشجعة ، والتأود ، والغنج ، والضحكات ، وأى خدمة ، وتفضل ، ومساء النجف ، والبحارة الأجانب ، والصعايدة ، والبلطجية ، والفتوات ، والقوادين ، وزجاجات الخمر الفارغة تتعثر بها قدمه ، والألوان الفاقعة ..

أخذ بإصبعه من علبة الدخان ، ولف سيجارة بورق البفرة ، ثم لصقها بلعابه . وضعها بين شفتيه ، وأشعل طرفها بالكبريت ..

غمز بعينه لمحيى قبطان :

ــ لم تأت عصر أمس ..

قال محيى قبطان وهو يدعك ذرات التراب داخل عينه:

ــ رحت قهوة النجعاوى لشرب فنجان قهوة تركى ..

قال التميمى :

ــ الغريانى أكد أنه رآك فى كوم بكير ..

برقت عيناه بالغضب :

ــ شاهدنى وأنا أتمشى مع أمه !

قال الغريانى :

ــ لم أدع أنه ذهب إلى كوم بكير .. سيمنعه البوليس لصغر سنه !

قال محيى قبطان :

ــ أنا أكبر منك بثلاث سنوات ..

قال الغريانى :

ــ الرجولة ليست بالسن !..

وأطلق ضحكة من أنفه :

ــ لازلت بكراً يا محيى !..

قال محيى قبطان :

ــ تركت لك الصياغة !..

قطب الغريانى جبينه :

ــ على الطلاق ..

قاطعه الجد السخاوى :

ــ من عود لسانه بالطلاق حرّمت عليه زوجته ..

وهو يهز كتفيه :

ــ أنا أعزب ..

قال الجد السخاوى :

ــ لا تحلف بالطلاق وأنت أعزب ، حتى لا تطلق منك حوريات الجنة !

اتجه الغريانى إلى محيى قبطان بنظرة متسائلة :

ــ ما الذى أتى بك إلى بحرى ؟.. كل أقاربك يسكنون كفر عشرى ..

قدم محيى قبطان إلى الإسكندرية منذ عشرين عاماً . ظل حريصاً على لهجته الصعيدية ، لم يبدلها . يعيبون عليه

تحول الألف إلى جيم . يعيب عليهم الخنوثة المغلفة بزعيق . إذا تكلم ارتعش صوته من الانفعال . اشتغل ببيع البضائع المسروقة من الجمرك : ملابس وأطعمة ولعب . يقف بها على ناصية التقاء ميدان المنشية بشارع الميدان . ثم اختار موضعاً على الرصيف ، أول الطريق إلى التحديرة الخلفية لجامع أبو العباس . يبيع كتب الدعاء وقضاء الحاجات وأوراد الصوفية وقصائد الابتهالات وشرح آيات القرآن . دخل فى صداقة مع قاسم الغريانى . تحايل على عباس الخوالقة ، فأذن له بركوب البحر . له عود ممتلئ فاره ، وعينان مدورتان ، حادتا النظر . ولم يكن يطيل ذقنه أو يحلقها ، فتبدو متناثرة الشعر ، يختلط فيها السواد بالبياض . ومرسوم فى أعلى صدغه رسم عصفور أخضر . عرف عنه إجادة صيد السمك بيده . يدفع أصابعه ــ مفتوحة ــ فى الماء . يعيدها مضمومة . يقذف السمكة فى الغلق . وكان يؤدى ــ متطوعاً ــ دور المبلّغ فى جامع أبو العباس ..

قال حسن بيومى :

ــ كل اللى بيجى من الصعيد مليح ..

ثم وهو يحرك الهواء الساخن بيده :

ـــ إلاّ الريح !..

قال محمد كسبة :

ـــ هل تتصور أن مجرد مشاركتك فى سحب الجرافة جعل منك صياداً ؟!

مسح حسن بيومى جبهته بظهر يده :

ـــ ماذا تعرف عنى لأتعلمه ؟

قال محمد كسبة :

ـــ عد إلى طفولتك ، وابدأ من البداية !

حين دله صابر الشبلنجى على صيد الجرافة ، لم يكن فى باله البحر ولا الصيد . همه التقاط رزق تغيب ملامحه . وزع وقته بين البلانس وقهوة كشك . حتى حمام الأنفوشى لم يعد يتردد عليه . يكتفى بالاستحمام فى مياه البحر ، وغسل ثيابه فيها . ينتظرها حتى تجف ، ثم يعاود ارتدائها . وربما قضى الليل داخل أحد القوارب المتناثرة على الرمال ، داخل ورش المراكب ..

قال الجد السخاوى :

ـــ نحن لا نربى أولادنا .. إنهم تربية نساء ..

أردف لنظرة اللوم فى عينى محيى قبطان :

ـ نغيب في البحر بالأيام والأسابيع .. فإذا عدنا ، ندخل بيوتنا آخر الليل .. متى نرى الأولاد ؟!

قال محيى قبطان :

ـ حتى لو ربى النساء أولادنا .. فإن نساءنا رجال !

قال حمودة هلول :

ـ أصارحكم أنى أحب المرأة الرجل ..

بحلقت عينا الغرياني فى دهشة :

ـ كيف تكون امرأة ورجلاً ؟..

ـ لا أحب الناعمة الخاضعة .. أحب التى تشبه الرجل في تصرفاتها وكلامها ..

لون الغرياني صوته :

ـ الجد السخاوى يحب الرجل المرأة !..

فوت حمودة هلول الملاحظة :

ـ قاسم يرقص دائماً في مركب الجد السخاوى ..

كتم عبد الوهاب مرزوق ضحكته :

ـ عقابك من الله أن يذهب بلسانك مثل السمك !..

قال الجد السخاوى :

ـ أنا الذى علمته ركوب البحر .. فماذا تقول فى قلة الأصل ؟!..

أطلق الغريانى ضحكة معابثة :

ـ تعلمتها منك يا جدى !

قال محمد كسبة :

ـ الجد السخاوى والغريانى يختلفان فى كل شئ .. ويتفقان فى حب البحر ..

قال حمودة هلول :

ـ إنهما الزناتى وأبو زيد .. كل منهما عظيم فى ذاته ، لكنهما أصبحا عدوين !..

علا صوت الغريانى :

ـ أنا أرفض تصرفات الجد السخاوى ، لكنه مثل أبى!.

قال محيى قيطان :

ـ أشعر بأكلان فى أنفى ..

قال حمودة هلول:

ـ معناه أن شخصاً يلعنك .. أو أنك ستتشاجر مع أحد..

قال محيى وهو يدفع مجهولاً بيديه :

ــ كفى الله الشر .. أنا فى حالى ..

قال حمودة هلول :

ــ الناس ليسوا فى حالهم !

ثم علا صوت حمودة وهو يتطلع إلى القادم :

ــ سأضيف إلى اسمك صفة البطل الصغير ..

التقت الأعين على مصطفى عباس الخوالقة ..

كان يخطو إلى الرابعة عشرة وإن بدا ــ لطول قامته ، وشاربه المنسدل على شفتيه ــ أكبر من عمره . دفعه أبوه إلى الحلقة منذ طفولته . تعلم المهنة . عرف أنواع السمك ، وخالط الصيادين ، وركب البحر ، وفاصل ، وساوم ، وباع ، واشترى ، وجلس على القهاوى ، وشارك فى الأذكار . كان عباس الخوالقة يعد ولديه ليرثا مهنته ، فلم ينشغل برسوب مصطفى المتكرر فى البوصيرى الأولية ..

اختار الكرسى المجاور للباب ، تحيط بوجهه ضمادة من الشاش ، وثمة تورم بدل ملامحه ..

انشغل الرجال ــ فى الأيام الأخيرة ــ بما جرى لمصطفى . ضربه العساكر فى مظاهرة بشارع إسماعيل صبرى . تدفق المتظاهرون من الشوارع الجانبية ، أفندية

وطلبة وعمال وبجلاليب . قدموا من ناحية البحر ومن شارع التتويج ، ومن الموازينى والحجارى . ملأوا الميدان الفسيح بالزحام والقبضات والهتافات . تناثر فوق الرءوس شبان يصرخون بهتافات ، والمتظاهرون يرددون وراءهم : تسقط معاهدة ٣٦.. الاستقلال التام أوالموت الزؤام .. أين أمك يا فاروق ؟ ..

أغلقت الدكاكين أبوابها ، وحمل خادم سيدى على تمراز القلل الموضوعة على الجدار إلى الداخل ..

لمح المتظاهرون كومات الزلط فى " المجيرة " . تدافعوا إليها . ملأوا جيوبهم وسيالاتهم وأكفهم . تطايرت قطع الحجارة فى الجو . تراجع العساكر إلى الوراء . لاذوا بمداخل البيوت والدكاكين ، وشارع حسن باشا عاصم ..

قدم عساكر من ناحية البحر ، يمسكون العصى السوداء ، والدروع الحديدية ، وتغطت رءوسهم بخوذات من الحديد . وقفوا فى نهاية الشارع ، وفى مفارق الطرق ..

التمعت خوذات الجنود فى أشعة الشمس ، وعلا دبيب أحذيتهم الثقيلة ، والصيحة الواحدة ، المتكررة ، الرتيبة ..

امتلأت المساحة الفاصلة بين المتظاهرين والعساكر ، بالحجارة والكراسات والدروع والهراوات والسيور الجلدية ويقع الدم . لم يعد إلا أصوات الضربات فى الأجسام ، والتأوهات ، والصراخ ، ووقع أحذية البيادة ..

جرى المتظاهرون فى غير اتجاه ..

صرخ مصطفى لرؤية شاب نط من ضربة عصا فى ساقه . ظل يواصل التنطيط والصياح ، ثم لحقه العسكرى بضربة أخرى فى جنبه ، فأطلق آهة طويلة ، ممتدة ، وسقط ساكناً ..

جذب عسكرى بنتاً من لمة شعرها المعقوص . ثنى رأسها إلى الوراء . طوحه بآلية سريعة ، متلاحقة . تقلصت ملامح الفتاة . جرها العسكرى على الأرض . تمزقت الجونلة فى احتكاكها بالأسفلت الساخن ، وانفرجت الساقان فى تخاذل ..

حاولت البنت أن تنهض ، لكن الجندى عاجلها بضربة من حذائه فى صدرها . أطلقت صرخة كالحشرجة ، وغابت عن الوعى ..

ألقى ضابط قنبلة بآخر ما عنده . جرت وراءها خيطاً من الدخان الأبيض . تلقفها شاب يرتدى قميصاً وبنطلوناً ، أول المظاهرة . أعادها ناحية الضابط وخيط الدخان وراءها . تحولت ــ من بعيد ــ غمامة بيضاء ، أخفت الجنود القادمين ..

اختلطت الصيحات والهتافات بضربات الهراوات ولسعات القوايش وطرطشات الدم والأجساد المتهاوية ..

تراجع المتظاهرون بظهورهم ، وهم يواصلون إلقاء الحجارة ، وطوابير العساكر تتقدم . تتسع المساحة بينهم وبين الذين امتصتهم الشوارع الجانبية ، وتضيق بينهم وبين من تباطأوا فى الانسحاب ، يواصلون الهتافات وإلقاء الحجارة . حاول أن ينفذ بينهم . اصطدم بأجسام وصراخ وزعيق وهتافات ، كأنهم التصقوا بالأرض . وقفوا فى نقطة الصفر ..

فوجئ بالسحنة المربدة فوقه تماماً . لا يدرى إن كان قد ظل واقفاً أم تعثر .. لكن الشرر الغريب ، فى العينين الناريتين ، لحقه ارتفاع العصا وهبوطها ..

هل أتت الضربة على رأسه ، أو على كتفه ، أو فى وجهه ؟..

لا يذكر إلا الألم ، و الدوار ، وأن جسمه تخاذل ، يريد القعود أو النوم . تماوجت المرئيات ، تراقصت ، تداخلت بالألم القاسى . انتزع من داخله آهة طويلة ..

صحا على أبيه وأخيه والرجال فى مستشفى رأس التين . توسط حمادة بك ، فأعفى ــ لصغر سنه ــ من التحقيق ، ونقل إلى البيت ..

حدج الجد السخاوى حمودة هلول بنظرة متصعبة وهو يسند كرسيه إلى جدار القهوة :

ــ البطل الصغير أكل علقة !

قال قاسم الغرياني :

ــ هل كان يعارك البوليس ؟!

قال الجد السخاوى :

ــ عباس الخوالقة ضرب السكران ، فقطع رجله عن بحرى ..

مال مصطفى على حمودة هلول :

ــ من السكران ؟

ـــ فتوة قديم ..

قال محيى قبطان :

ـــ يكفى أن مصطفى تظاهر ضد الحكومة !

همس محمد كسبة فى أذن الجد السخاوى :

ـــ الولد مصطفى تغير صوته وسحنته ..

قال الجد السخاوى :

ـــ حتى الأسماك يتغير لونها عند البلوغ .. الفارق أن الأسماك تعود إلى لونها بعد أن تضع الأنثى بيضها ، ويتولى الذكر التلقيح والإخصاب !..

قدم على الراكشى من ناحية شارع فهمى الناضورى ..

هش على ولد بعصاه . خطفها منه الولد ، وجرى . جرى الراكشى وراءه بآخر ما عنده . اصطدم فى جريه بعربة يد ، فسقط من طوله .

التخـــريج

أغلقت أم محمود باب السطح من الداخل . محمود يناولها ما تحتاجه . ترد على أسئلته بضربات ــ على الترابيزة ــ ذات إيقاع . تفسد الرقية إذا تكلمت . تنبهت فى انشغالها ، على صفارة باخرة من الميناء الغربية . مسحت بنظرة شاردة ، امتدادات الأفق فى حدوة الحصان من المياه التى شكلها البحر ، فى الميناء الشرقية والميناء الغربية وشاطئ الأنفوشى ..

كانت أشعة الأصيل تعلو الجدران . الدقائق التى تسبق الغروب ، ونسائم خفيفة تهب من ناحية البحر ، وأغنية لأم كلثوم تتناهى من نافذة قريبة :

غلبت اصالح فى روحى عشان ما ترضى عليه

استيقظت مهجة ــ ذات صباح ــ على نداء أمها . فركت عينيها ، وتثاءبت ، وفردت نفسها ــ للحظات ــ ثم سقطت من طولها ..

تلا صرخة الأم ، وقوف الأب والأخوين فوق رأسها ..

نصحتها الكودية نظلة ــ لكى يعود اللحم إلى جسمها ، وتقف على قدميها ــ أن تسفّ خنافس مهروسة ، وتضوع البيت بالبخور . البخور غذاء الأرواح الساكنة داخل الشقوق وبين الأثاث . نصح الحاج محمد صبرة بأعشاب . صحبها عباس الخوالقة إلى الطبيب الأرمنى ، فوق قهوة المهدى اللبان . سألها إن كانت تشكو شيئاً . أطرقت ، وهزت رأسها . فحص الضغط والنبض وضربات القلب وحدقتى العينين . وحدق فى الفم المفتوح ..

قال وهو يرفع النظارة الطبية إلى جبهته :

ــ صحتها جيدة !..

دعا إمام أبو العباس الجديد ، فى جلسة المغرب ، وأمّن الرجال . ختمت الأم على رأسها القرآن أربع مرات ، طافت على أضرحة أولياء الحى . توسلت ، وطلبت المدد ، ووعدت بالنذور . ظلت البنت فى النازل . أسلمت نفسها لشرود ، ولا بادرة شفاء بأعشاب أو أدوية ..

لم تكن أعدت نفسها للزواج من هشام كشك . ولم تكن أعدت نفسها للزواج أصلاً . تذهب إلى المدرسة ، وتعود ، وتساعد أمها فى البيت ، وتذاكر ، وتنام ، وتزور خالتها فى

رأس التين ، وأعمامها فى بيت العائلة بشارع الجمرك القديم ..

خمن الخوالقة ــ لما وافقت على الزواج ــ أنها تعرف الشاب ..

ــ هل تأذنين للبنت بالخروج وحدها ؟

قالت أم محمود :

ــ أبداً .. حتى المدرسة ، يوصلها أخوها ويعود بها ..

وهو يرمقها بنظرة متشككة :

- فكيف تعرفت إلى ابن المعلم كشك ؟

خبطت على صدرها :

ــ من قال إنها تعرفه ؟!

ــ لم تناقش قرارى بتزويجها من هشام ..

بحلقت عيناها :

ــ وهل عوّدتك البنت على مناقشة أوامرك ؟!

وافقت مهجة على الزواج ، لمعرفتها أن مصيرها إليه . كانت فى الخامسة عشرة ، لكن طولها ، وامتلاء جسمها الموروثين عن أم طويلة وأب ممتلئ ، أضافا إلى عمرها . علمتها أمها مسئولية البيت ، فهى تجيد الطبخ والخياطة

والتنظيف ، وتعرف كيف تشترى لوازم بيتها . عندما عرفت اسم العريس ، تذكرته : الجيرة ، وصداقة الطفولة ، والتسلى بمشاهدة صيد الجرافة ، والطراحة ، فى الميناء الشرقية ، وحضور موالد الأولياء ، وأسواق العيد . زمان ، ثم لزمت البيت . تذهب إلى المدرسة ، وتعود برفقة شقيقها مصطفى . إذا أرادت التغيير ، فيزيارة أقاربها ، تصحبها أمها ، أو مصطفى ..

بعد أن قرأت الأسرتان الفاتحة ، وألبسها هشام الدبلة ، أجلستهما الأم على الكنبة أمامها . تمتمت بأدعية ، ثم علا صوتها :

ــ باب يا باب .. يا جامع الأحباب .. إن طلع شفقه .. وإن دخل نفقه .. نجم هشام ومهجه تجمعهم فى السما .

أشارت لهما ، فانصرفا ..

أحست مهجة أنها أصبحت له ، وأنه أصبح لها . تصحو على صورته ، وتنام عليها . تسرح ، تتأمل ، تبتسم لتذكر كلماته وتصرفاته . حتى التفصيلات الصغيرة ، والتعبيرات العفوية . حتى الومضات السريعة تلتقطها ، تستعيدها من الذاكرة فى أوقات الخلو إلى النفس ، تنتبه إذا

جاءت سيرته ، تدافع عندما تبدى أمها ملاحظة عنه ، تنتظر قدومه فى المواسم ، تحدق فى مرآة غرفتها ، تحاول رؤية نفسها بعينيه . ربما امتد بها الخيال ، فتصورت نفسها فى شقة ــ مغلقة ــ معه ، لا تنتقل من بيت أبيها إلى شقة إنسان سواه . هو الصورة الوحيدة للزوج . يوجه كلامها إلى أبيها أو أمها أو أخويها . تعد ما قاله موجهاً إليها ، تقلبه ، تستكنه معانيه . تجرى حواراً معه . تبتسم ــ بينها وبين نفسها ــ وتحزن ، وتغضب ، وتضحك . تقرأ حبه فى نظراته المتأملة ، لا تلبث أن تتجه إلى بعيد ، وارتعاشة شفتيه وهو يتكلم ، وارتجافة يده عندما يتناول فنجان الشاى ، وغلبة ارتباكه حين تخلو الحجرة ــ مصادفة ــ إلاّ منهما ..

فرد ذراعيه بامتدادهما :

ــ أمامنا لوكاندة بحالها لا مجرد شقة ..

تظاهرت بالتصديق :

ــ هل نسكن فى لوكاندة أبيك ؟

استدرك فى نبرة جادة :

ــ وعدنى بالدور الثانى فوق اللوكاندة .. بابه على الشارع الجانبى ..

عندما قال لها : أحبك ، لم تكن تفهم معنى الكلمة تماماً . ثم بدأت الحمرة تصبغ أذنيها حين تأتى السيرة أمامها . حتى الأغنيات فى الراديو ، أعادت تأملها فى ضوء المعنى الذى لابد أنه يقصده . جاشت عواطفه ــ لحظة ــ فحاول تقبيلها . صدّته بأصابع مترفقة ، وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى ..

هل رضع الولد والبنت من ثدى واحد ، أو أن ما حدث وشاية كاذبة ؟..

أسلم عباس الخوالقة نفسه للغضب ، لما همس عبد الوهاب مرزوق فى أذنه بأن أخوّة مهجة وهشام فى الرضاعة ، شائعة سربتها أسرة الشاب . رفضت أن يتزوج ابنها ابنة صياد ، حتى لو كان شيخاً للصيادين ..

ــ لو أن الولد أراد العمل صبياً عندى .. ما قبلت !

قالت أم محمود مهونة :

ــ كلام الناس كثير ..

وهو يهز رأسه بعصبية :

ــ لا دخان بلا نار !..

قالت فى استكانة :

ـ ربما رضع الولد والبنت من ثدى واحد بالفعل ..

كانت أم محمود تتوقّع أن يطلب يد ابنتها لابنه ، شيخ صيادين . ربما الحاج قنديل . سمعت عن أبنائه الذين وُظِّفوا فى مناصب مهمة . توقعت ـ للعشرة بين زوجها والحاج قنديل ـ أن يعلن الحاج ما يناوش بالها ، لكنه لم يحاول المصارحة أو التلميح ، وإلاّ أخبرها زوجها ، أو طلب رأيها ، أو تردد فى الموافقة على هشام كشك ..

لم يعد عباس الخوالقة يذهب إلى الحلقة . تقصى ، وسأل ، وناقش ، وأسلم أذنه للأفواه الهامسة ..

زار الإمام فى ديوان وزارة الأوقاف . أسرّ إليه بما اعتزمته أم محمود . أخلى الإمام وجهه للغضب ..

قال الخوالقة :

ـ ومن شر حاسد إذا حسد ..

قال الإمام :

ـ ما حدث لا صلة له بالحسد ..

فى لهجة متوسلة :

ـ البنت مريضة جداً ..

دون أن يترك هدوءه :

ـ هذا شأن آخر ..

فى لهجته المتوسلة :

ـ الحسد حق .. جاء ذكره فى القرآن ..

ورنا إليه بنظرة مستغيثة :

ـ العين تفلق الحجر !..

ذهب انفعال الإمام ، فنزل بحرى ، وصلى الظهر فى جامع سيدى ياقوت العرش ..

ـ حدثتنى عن واقعة ..

ثم وهو يمسح ذقنه بأصابع متوترة :

ـ ما دليلك على صحتها ؟

قال جابر برغوث :

ـ يا مولانا .. تلك حكاية من عمر الولد والبنت ..

قال الإمام :

ـ لكنهما يتأثران الآن منها..

وهتف فى الرجل بلهجة زاعقة :

ـ من أين أتيت بحكايتك الملعونة ؟ ..

لم يتصور أنه يرفع صوته فى جابر برغوث . هو خادم ياقوت العرش . لم يحصل على شهادة ، لكنه قرأ ،

وتعلم ، وجلس إلى علماء ، فصار لآرائه وجاهة . يلجأ إليه زوار العرش ومريدوه ، يطلبون النصح والمشورة ، والمساعدة على قضاء الحاجات . وقيل انه أفاد الكثيرين من علوم السحر ..

قال جابر برغوث وهو يغالب ارتباكه :

ـــ صدقنى يا مولانا .. أرضعت زوجتى الولد والبنت فى سنة ولادتهما ..

ورفع يديه كمن يتقى خطراً مجهولاً :

ـــ والمرسى هذا ما حدث !

حدج الإمام عباس الخوالقة بنظرة مستريبة :

ـــ هل تزمع إتمام زواج البنت من أخيها ؟!

قال الخوالقة :

ـــ ذلك موضوع انتهى .. البنت تموت ..

قال الإمام فى نفاد صبر :

ـــ قلت رأيى .. ولن أزيد ..

ذاع أن الإمام جعل ما حدث ، من بين الأسباب التى حددها ـــ فى ذهنه ـــ لطلب النقل إلى ديوان وزارة الأوقاف

..

حذر الطبيب الأرمني من أن البنت قد تغادر صمتها الحزين ، فتحاول أن تؤذى نفسها : تشعل النار فى جسمها ، تقفز من البلكونة أو السطح ، تشرب مبيداً حشرياً أو سماً ، تقطع شرياناً ، ترمى نفسها فى المالح ..

تحاملت مهجة على نفسها ..

صعدت إلى السطح ، صامتة لا تتكلم ، ولا تلتفت وراءها . تحمل طبقاً من السكر الأحمر المذاب فى الماء .

قلبت ما فى الطبق على أرضية السطح ، لا تبسمل ، ولا تهمس بأى كلام . تركت الطبق ، ونزلت ، صامتة لا تتكلم ، ولا تلتفت وراءها . توقعت الأم أن الأسياد يشربون الماء ، فيرضون عن البنت ، ويرفعون عنها أذاهم ..

أصرت ، فبدّل عباس الخوالقة بلاط البسطة ، أمام باب الشقة . ربما السبب عملاً يرقد تحت بلاطات البسطة . نصحت الكودية نظلة بزار . ما تعانيه مهجة ليس مرضاً تعالجه الأدوية أو الأعشاب . هذه أفعال الأسياد ، فلن يبتعدوا إلاّ بزار ..

ثار عباس الخوالقة على الفكرة : الكودية والدفوف والشياطين والبخور والصرخات المجنونة والأرواح الشريرة ..

تحايلت أم محمود على رفض الإمام . استعادت رقية الكودية حتى حفظتها . أوصت المرأة ــ بدلاً من الزار ــ بالتخريج ، رقية تخرج العين الحاسدة من جسم الفتاة . صارحت أم محمود أكبر أبنائها بما انتوت . أغلقت عليها ، وعلى مهجة ، باب السطح . حذرت محمود ، فلا يفجؤهم قدوم الأب ..

بدأت بإحراق ما التقطه يدا محمود من النفايات المتكومة أمام البيتين الملاصقين ، والبيوت المواجهة . اشترى من سوق الدقاقين ، قطع الشبة وقصاصات الورق والملح والفكوك والبخور ..

أغمضت عينيها تتذكر بقية الخطوات ..

رفعت كتفي مهجة من صدرها . دلكت جبهتها بالشبة والفاسوخ سبع مرات . قصت الأوراق على هيئة عروسة . وخزتها بإبرة في العينين والرأس والجسد ، طرداً لأعين الحساد . تلفتت ــ في حيرة ــ إلى باب السطح المغلق ،

ومنشر الغسيل الخالى ، وصارى البلانس البعيد ، فى غيابه داخل الأفق ..

غالبت التردد . ثم نطقت الكلمات ببطء ، فلا تنسى ما حفظته من الكودية . تذكر الأسماء فى المواضع التى حددتها . تضع همها فى تسلسل الكلمات والأسماء ، حتى لا تفسد الرقية ..

الأولة بسملة

والثانية بسملة

والثالثة بسملة

والرابعة بسملة

والخامسة بسملة

والسادسة بسملة

والسابعة لا حول ولا قوة إلاّ بالله

رقيتك واسترقيتك

من عينى وعين أمك وأبوك

وعين الناس اللى حسدوك

رقيتك واسترقيتك

زى ما رقى محمد ناقته

حط لها العليق ما داقته

كانت عسير .. صبحت نسير

تنهدت أم محمود . مدت أصابعها فى طبق الملح . نثرته فوق رأس مهجة ، ومن حولها . أغمضت عينيها ، تتذكر كلمات الرقية التى توقفت عندها ..

بسم الله الرحمن الرحيم . ألف بسم الله الرحمن الرحيم . بسم الله توكلت على الله ، واعتصمت بالله ، وسلمت أمرى إلى الله ..

بسم الله الرحمن الرحيم .. يا هادى كل هدية .. يا مانع كل رزية .. يمنع عنك النظرة القوية .. بقدرة الله العلية ..

بسم الله الرحمن الرحيم . رب المشارق ، ورب المغارب . ما يغلب الله غالب . رقيتك من كل عين شهلة ، من كل عين زرقة . الله عليها ، وعلى والديها ، يجعل مصارينها بنات رجليها ، اللى شافوك ونظروك ولا صلوش على النبى الحبيب ..

بسم الله الرحمن الرحيم . الأوله بسم الله ، والثانية بسم الله ، والثالثة بسم الله ، والرابعة بسم الله ، والخامسة بسم الله

، والسادسة بسم الله ، والسابعة بسم الله تقلع عين خلق الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

عين الضيف أحد من السيف . عين الراجل أحد من المناجل . لقاها سيدى السيد سليمان فى البرية ، تنبح نبح الكلاب . قال لها رايحه فين ، يا عينى يا عنيه ، يا خاينه يا رديه ؟..قالت رايحه للى حبا ، واللى ذبا ، واللى لا أعرف له أماً ولا أبا . قال لها : أخص ما خصيتى ، م النار ما نجيتى ، لا وديكى بحر لا ينغاص ولا يندااس ، وأحدف عليكى بالزيبق والرصاص . قالت : خد عليه عهد الله سيدى السيد سليمان ، لا أخونك فى عيشة . قال لها : باطلاً بطال . قالت : لا أضر عريس فى زفته ، ولا راجل فى جلسته . قال لها : باطلاً بطال . قالت : لا أضر بهيم فى رباطه ، ولا صغير فى قماطه . قال لها : باطلاً بطال ، سيدنا النبى رقى ناقته من عين جماعته . كانت عسير ، صبحت تسير . كلت عليقها ، وشربت مياهها ، واتكلت على مولاها ، بقدرة الله العلى العظيم ..

يا بير بلا قعر .. يا كف بلا شعر .. زال عنك الشر ، وافترق كما افترق الندى من على الورق . زال عنك الشر وطار ، كما طار الندى من على الجبال ..

افترقى يا نفس . افترقى يا عين . افترق يا فكر ..

المرة بشوشة ، والرجل عبس..

بحق النبى ، وآية الكرسى ، افترقى يا نفس بقدرة الله العلى العظيم ..

سحبت العروسة من فوق الترابيزة . أعادت وخزها بالإبرة وخزات متلاحقة :

اللهم رب الناس ، اذهب الباس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلاّ شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً ، يا رب العالمين ..

الفاتحة لسيدى النبى ، والإمام على ، والإمام الشافعى قاضى الشريعة ، وأولياء الله جميعاً ، والأربعة الأقطاب ، والأربعة الأنجاب ، والأربعة حاملى الكتاب ، وسيدنا السلطان المرسى أبو العباس ، وسيدى البوصيرى ، وسيدى ياقوت العرش ، وسيدى نصر الدين ، وكل أولياء الله

الصالحين . بحادوك ، ويراشوك ، وبشبلوا عنك النفس ، والعكس ، بقدرة الله العلى العظيم ..

الفاتحة لهم ، وصلى الله عليه وسلم .

النورس يحلم بالمدن البعيدة

أمسك مختار زعبلة بخرطوم الماء ، يطفئ السخونة المتصاعدة من أسفلت الشارع ..

اختفت الظلال في شارع أبو الوجاهة ، ذي البيوت الواطئة . أغلقت النوافذ ، وبحث المارة عن الظل لصق الجدران . وثمة هديل حمام يترامى من بعيد ، وصوت صفارة باخرة من الميناء الغربية ..

تذكر رحلات البحر ، والمدن البعيدة ..

قيل إن قعقعة بسقف الحجرة فاجأته ، تناثر بعدها عليه نقود ، أمضى وقتاً يلمّها من أرض الحجرة . وقال عم محجوب حارس حمام الأنفوشي ، إنه لمح المرسى ــ ليلة غادر مقامه ــ يدس في يده ما لم يتبينه أحد . ورآه أصدقاء درس المغرب وهو ينزل درجات الباب الرئيسي . يمضي

بخطوات مهرولة إلى الميناء الشرقية ، لا يتلفت . اقتعد الكورنيش الحجرى ، وانشغل بالتطلع إلى نهاية الأفق ..

فاجأ الجميع ــ بعد أيام ــ بشراء دكان عجلاتى فى شارع أبو الوجاهة . حوله إلى قهوة ، أنفق عليها بما يشى بقدرته المالية . علق عليها لافتة : قهوة البحر . اجتذب إليها الصيادين وعمال الميناء . وخلع الجلابية ، وارتدى البنطلون والقميص ..

نفى أنه حلم برؤية المرسى ، أو أن النقود سقطت عليه . عثر على المظروف أسفل الرصيف ، بالقرب من سيدى كظمان . تلقف نصيحة الجد السخاوى :

ــ أنت أولى بالنقود من الحكومة !..

دله حمودة هلول على دكان العجلاتى المغلق . دفع مبلغاً للجدك ، وأعاد فتحه . طلى جدرانه باللون الأزرق ، ورسم عليها مراكب وأسماك . حتى النصبة جعلها فى هيئة باخرة ضخمة ..

تساءل قاسم الغرياني ضاحكاً :

ــ بلانس أم دكان ؟..

قال مختار :

ـ اسمه البحر .. يرحب بالصيادين وعمال الميناء ..

ثم وهو يومئ برأسه ناحية ميدان أبو العباس :

ـ قارئو القرآن اختاروا قهوة مخيمخ للقاءاتهم .. وهذه القهوة جعلتها للصيادين ..

قال الغرياني :

ـ وقهوة الزردوني ؟..

ـ عمنا أحمد الزردوني على عيني ورأسي .. لكن هذه القهوة للصيادين وحدهم !

لم تشغله قلة المترددين على قهوته في البداية . ألفوا التردد على الزردوني ومخيمخ . اجتذبهم بالحرج ، من مجلسه وراء " البنك " . وزعوا جلساتهم بين القهاوي الثلاث . وفتح زعبلة القهوة من الفجر إلى ما بعد منتصف الليل ، وأذن للمترددين عليه أن يقضوا أوقاتهم اليوم كله على طلب واحد ، وعرض الحساب على النوتة ، فاختار الكثيـــر من الصيادين قهوته لجلساتهم ..

حفظ من ياقوت جرسون قهوة الزردوني ، سيم القهوجية . يستغني به عن الأسماء والنداءات المألوفة ..

هز رأسه لتذكر قول ثروت :

ـ أنت هنا على البر .. فما يدريك بالحياة فى البحر ؟!

البحر !..

حياته ودنياه وترددات أنفاسه . الرائحة التى لا يخطئها أنفه . اختلاف السحن ، والأمواج الهادئة ، والعالية ، والبواخر الضخمة ، والقوارب الصغيرة ، والحاويات ، وأصوات الآلات ، والأوناش ، والشون ، والأسواق ، وأرصفة الشحن والتفريغ ، وأختام الجوازات ، والتأشيرات ، وبوليس الموانى ، والمطاعم ، والحانات ، والمواخير ، والعلاقات الهامسة ، ودكاكين الصرافة ، وتغيير العملات ، واللافتات المضيئة ، ولحظات ارتفاع السلم عن الرصيف ، وذوبان المدن . السير فى آفاق مترامية من كل الجوانب : البواغيز ، وصفارات البواخر ، وأضواء الفنارات ، والجزر المأهولة ، والقاحلة ، وألق ضوء الشمس على المياه فى امتداد الأفق . حتى النوات والعواصف . سقط ما اقتحم النفس من خوف . لم يعد إلاّ ذكرى المغامرة ومواجهة المجهول ..

لن يظل طائر النورس فى تحليقه على الشاطئ . مجرد طائر يحلق ويحوم . البحر مياهه وأعماقه ومراكبه :

ــ أنا مثل النورس .. أحب ماء البحر .. وإذا وضعتنى فى السجن أموت !

يحلقت عينا ثروت بتساؤل :

ــ ماذا تقصد ؟..

اهتز جسمه بالانفعال :

ــ حياتى فى الأرض سجن .. سأخرج منه إذا عدت إلى البحر !

البحر لم يهجره ، وهو لم يهجر البحر . الظروف القاسية أبعدت بينهما ، لكنه لابد أن يعود إلى البحر . يرى ــ بعين الشوق ــ ما وراء البحر من موانى ومدن وناس . وركب فى نومه " بلانس " من خشب الصندل ، حوافه من الذهب ، وأشرعته من الحرير ، وانطلاقه مطمئن فى بحار لا تنتهى ..

فهم من عينى ثروت وتصعيه ، أن عودته إلى البحر مستحيلة ، لكنه كان على ثقة من أنه سيعود إليه . يذهب ألم ظهره بعلاج مستشفى رأس التين ، أو وصفات الحاج محمد صبرة ، أو بركات الأولياء ..

كان يرحل مع أسراب الطيور المهاجرة . يرى شواطئ وبحاراً ومدناً وبشراً مختلفى السحن واللغات . صفافير البواخر فى الميناء الغربية تذكره بالحلم القديم ، بالحياة فى البحر ، والسفر إلى المدن البعيدة . ساح ذهنه إلى بلاد مختلطة الملامح يتمنى رؤيتها ، وإن ظل مشغولاً بوقائع يومه الأخير مع يسرية ..

هز كتفيه عندما قفز السؤال إلى ذهنه : هل هو الرجل الوحيد الذى تدخله المرأة البيت فى غيبة ثروت ؟..

بدا من لهفة المرأة ، وعناقها ، أنها كانت على استعداد لأن تسلم نفسها إلى أول شخص تلتقى به . ليس هو بالتحديد ، ولا أى إنسان آخر ، وإنما رجل ، رجل . يبعد بها عن حياة الانتظار والرتابة والوحشة والملل . ثروت فى أسفاره البعيدة . يأتى لأيام ، ويغيب لأشهر .. فلماذا تبدلت مشاعرها ؟.. لماذا عاملته بتلك القسوة ؟..

لم تكن العلاقة فى ذاتها تشغله . ما يهمه هو الصور التى تلتقطها من أحاديث رشدى ، حين يعود من رحلاته . لكن السؤال عاد إلى مناوشته : هل هناك آخرون فى حياة المرأة ؟..

كر ذهنه بأسماء لا رابط بينها ، وإن تصور أنه يمكن أن تعطى الإشارة نفسها لواحد أو أكثر . تأذن له ــ مثله ــ بالصعود . تقف لاستقباله أعلى السلم ، وتمنحه جسدها فى البسطة المفضية للسطح .. قاسم الغرياني .. محيى قبطان .. محمود عباس الخوالقة .. ومن تغيب عنه أسماؤهم وملامحهم ..

تابع سرباً من الطيور ، قدم من ناحية الأنفوشى ، واتجه إلى نهاية الأفق فى الميناء الشرقية ..

قال لها :

ــ فكرت أن أكتب اسمك بالوشم على صدرى ..

ضربت صدرها بيدها :

ــ تريد فضيحتى ؟!

أطرق لحظات ، ثم رفع رأسه :

ــ خفت من ثروت ..

ــ والناس .. ماذا يقولون ؟..

أشاح بيده :

ــ مجرد فكرة ، وأهملتها ..

فاجأه تصور اكتشاف ثروت لعلاقتهما . قدوم لا يتوقعانه . فضيحة تواجهه ، وتواجهها ، إذا نزل السر من السطح إلى قهوة الزردونى ..

أزمع ألا يصعد إلى السطح ثانية . إذا جاءته فى القهوة ، صارحها بخوفه . القرار مؤلم ، لكن مفاجأة ثروت لهما مما يصعب عليه تصوره . هل يقتلها ؟ هل يقتله ؟ هل يقتلهما ؟ هل يكتفى بطلاقها وخصامه ؟.. يذكر أنهما تخاصما على عشرة كوتشينة فى قهوة مخيمخ ، ثم ما لبثا أن تصالحا . التقيا فى الدحديرة الخلفية لأبو العباس . نسيا ما كان ، وتحدثا كأنهما لم يتخاصما ..

أتاه صوت أمين عزب ، وهو يختار كرسياً على جانب الرصيف :

ــ جئت للتهنئة !

هتف بفرحة حقيقية :

ــ هذا أسعد أيامى ..

كانت حياة أمين عزب قد تحددت بين زاوية خطاب ، وشقته فى شارع إسماعيل صبرى . لا يتردد على الحلقة ، ولا القهاوى ، ولا يشارك فى موالد أولياء الحى ، وثار على

الإمام الجديد لأبو العباس ، حين تحدث عن الزوجات السبعمائة اللائى يكن للرجل المؤمن فى الجنة . يهبه الله من القوة بحيث يضاجعهن كل يوم ، مرة فى الصباح ، ومرة فى المساء .

علا صوته بالغضب :

ـــ أليس فى الجنة رصيد سوى الجنس ؟!..

كان الإمام قد عرف مكانته بين المصلين ، فأهمل ثورته . أكمل الخطبة ، وإن اكتفى بثواب المؤمن فى الآخرة ، دون أن يتطرق إلى تفصيلات ..

كان يدخل الحجرة المطلة على سيدى تمراز ، أول رمضان ، فى خلوة ، يخرج منها فى نهاية الشهر . يؤذيه ضوء النهار ، وتتعثر خطواته لقلة المشى ..

اختار الزاوية للجلوس فيها منذ صلاة الجمعة إلى ما بعد صلاة العشاء . ينصرف إلى قراءة القرآن ، وكتب الدين ، ويؤم المصلين ، ويقصده أبناء الحى ، لسماع نصائحه ، وللتبرك . يغلق الباب الخشبى المستطيل ، العالى ، ذا الضلفتين الصغيرتين ، ويهبط درجات الرخام إلى الطريق . اســتأجر الشقة المقابلة ، بعد وفاة العائل ، ورحيل الأسرة

إلى بلدتها فى المحمودية . خصصها لقراءة القرآن . يختتم جزءاً كل ليلة ، عقب صلاة العشاء . يخصص ساعة لاستقبال أصحاب المشكلات . يناقشهم ، ويشير بالحل . لشدة اعتقاد الناس فى علمه ، كانت أحكامه ترضى الطرفين فى كل خلاف . يفض منازعات الجيران ، والمنازعات الأسرية . يعيد الزوجة الناشز ، ويجد السبيل لعودة الحياة الزوجية بعد الطلقة البائنة ، الثالثة . يتوسل بمعارفه لإلحاق الأولاد بالمدارس . يتحمل الإصغاء ــ بالساعات ــ لشكوى رجل من تطاول امرأته ، يشتمها ، فترد عليه شتيمته ، شكوى امرأة من أذية زوجها ، يضربها لأقل خطأ ، ربما يضربها لأن مزاجه متعكر . اكتفى بالقول : أصلح الله الحال ، لما شكا إليه إبراهيم القسط من أن المرأة الغجرية أزالت كل الأجزاء الظاهرة من أنوثة امرأته فى طفولتها . المرأة على فراشه غائبة ، لا تستجيب ، وتشككه فى نفسه . تردد على البلقطرية سعيا لإطالة فترة العناق . مضغ الأفيون ، وخلط سجائره بالحشيش ، وزار بارات شارع البوستة والسبع بنات . استعان بوصفات شعبية : بلابيع ودهانات وتعازيم .

ضرب المرأة ليسخن جسمها . صرخت ، وتألمت ، وظلت على همودها ..

قال أمين عزب :

ــ مبروك يا مختار ..

ثم وهو يحبطه بنظرة إشفاق :

ــ اللؤلؤة قد تكون فى أصلها حصوة رمل أو طين ،. وأنت ذو معدن طيب !..

أمّن محيى قبطان :

ــ نعم ، مختار شقى .. لكنه ابن ناس طيبين ..

قال مختار فى لهجة ترحيب :

ــ زيادة ؟..

قال أمين عزب :

ــ لا .. موزونة ..

قال محيى قبطان :

ــ أنا أفضلها سادة ..

رغم بساطة أمين عزب ، فإن الآخرين يشعرون بالمسافة بينهم وبينه . حاجز غير مرئى ، يحسون به ، وإن لم يروه ، أو عجزوا عن ملامسته . ولم يكن إلقاء الأسئلة

فى طبعه . يكتفى بالرد على ما يوجه إليه من أسئلة . ردود قصيرة تهب المعنى ، فلا تتفرع فى تفصيلات ..

بدا على محيى قبطان مغالبة للتردد :

ــ مررت على عم محجوب فى حمام الأنفوشى لأمر ، فلم أجده ..

قال مختار :

ــ هذه ليلة النصف من شعبان ..

يعرف أن عم محجوب يخلو إلى نفسه هذه الليلة ، فى حجرته . ليلة الدعاء . قدر الإنسان يكتب هذه الليلة . إن كان سعيداً أو شقياً . فيها يحدد مواليد العام التالى ، ويحدد الراحلون فى العام نفسه . شجرة فى الجنة هى شجرة المنتهى ، تحمل أوراقاً بعدد البشر الأحياء . كل ورقة تحمل اسم شخص واحد . تهز الشجرة فى ليلة النصف من شعبان ، بعد الغروب . من كان مقدراً له الموت خلال العام ، تسقط ورقته . يلزم مسجد المسيرى فى تلك الليلة ، لا يغادره ، يؤدى ركعات متوالية كأنها التراويح ، ويتلو القرآن ، ويردد الأدعية التى تتوسل بألاّ تسقط ورقته ..

قال محيى قبطان :

ـ هذه ليلة مفترجة .. يؤكل فيها الزفر ..

رفت على شفتى أمين عزب ابتسامة مشفقة :

ـ أكل الزفر ؟!.. هل هذا هو ما يهمك ؟!..

مد يده فى جيب السيالة :

ـ معى دعاء ليلة النصف من شعبان .. اشتريته من ميدان أبو العباس ..

قال أمين عزب :

ـ هذه ليلة مباركة .. لله فيها عتقاء من النار .. لا يحصيهم العد ..

أهمل محيى قبطان تردده . اقترب من مختار زعبلة :

ـ معك فلوس ؟

ثم وهو يبدى الأسى :

ـ المعلم الخوالقة لم يعطنى سلفة الشتاء ..

قال مختار زعبلة :

ـ أطلب منه ..

فى لهجته الأسيانة :

ـ طلبت .. اكتفى بإن شاء الله !

ومضت عينا مختار بالتذكر :

ــ مل على المعلم أحمد الزردونى ..

ارتفع حاجباه :

ــ ولماذا الزردونى ؟

قال مختار :

ــ أعرف أنه مقتدر !

ــ يكفى أنه يرضى الآن بالأجل على المشاريب ..

ربت مختار صدره بأصابعه :

ــ وهل تأخرت عنك ؟

وهو يخفض رأسه :

ــ البيت يحتاج إلى الأكل لا المشاريب ..

دس زعبلة يده فى البنك . طوى يد محيى قبطان على ما قدمه إليه :

ــ لم تعرف الرِّجل طريقها إلى القهوة بما يغطى المصاريف !..

هتف أمين عزب ، وهو يقفز فى مجلسه :

ــ ولد !..

رأى أولاداً يعاكسون على الراكشى ، يجذبون ملابسه ، ويقذفونه بقطع الحجارة . كان يرتدى سيالة حال لونها ، وصديرياً ممزقاً ، تساقطت أزراره .

جرى الأولاد بالخوف من المكانة التى يحتلها أمين عزب فى نفوس آبائهم .

ظلال حزينـــة

السابعة ..

الضوء الشاحب من النافذة الحديدية ، العلوية ، وشى بالظلال جدران الصالة المتآكلة ، وبياض الحائط وراء المواضع الممزقة فى ورق الحائط المزدان برسوم وزخارف ملونة . علقت آيات من القرآن ، وبعض الأمثال ، والحكم ، وأبيات من الشعر ، وصورة لسعد زغلول يصافح المعلم كشك الكبير ، وسط عشرات يطل عليهم تمثال محمد على . وثمة نجفة هائلة ، مدلاة من السقف بسلسلة حديدية ، تهتز بنسائم خريفية هادئة . على الأرض ـــ أوسط الكراسى والطاولات ـــ سجادة صلاة مطوية إلى نصفين ، ظهر فيها رسم الكعبة . النصبة ـــ على اليمين ـــ تتوسطها الرمالة والفناجين والأكواب ، وصفت فى نهايتها ثلاث نارجيلات ، وصحن نحاسى ، فوقه قلة من الفخار مغطاة بقطعة شاش . والردهة ـــ ناحية اليسار ـــ تفضى ـــ فى ظلمة شفيفة ـــ إلى المطبخ ودورة المياه . وصوت أم كلثوم ينبعث ـــ خفيضاً ـــ

من الراديو ، خلف قعدة المعلم كشك : سلوا قلبى غداة سلا وثابا .. لعل على الجمال له عتابا ..

تأكد زناتى الكناس من إغلاق الباب جيداً . ظهر عساكر الجيش فى شارع فرنسا ، ليبدأوا تطبيق قرار منع التجول ..

قال حسنين الدمنهورى :

ــ من كان يصدق أن الأمور تتطور إلى هذا الحد ؟..

قال زناتى الكناس :

ــ حتى عمال الميناء أضربوا .. تكدست البضائع ، وتوقفت البواخر عن إنزال ما بها ..

قال المعلم كشك :

ــ ذكرت " البلاغ " أن النقراشى وصل الإسكندرية ..

روى زناتى عن المظاهرات فى ميدان المنشية . طلبة وعمال وعساكر بوليس وصولات وكونستبلات ، رفعوا أرغفة خبز فوق بنادقهم ..

فرضت نفسها على الجميع أحاديث الإضرابات والمظاهرات . حتى ضباط البوليس لم يعد من المثير خروجهم فى مظاهرة ، والهتافات ضد الإنجليز والحكومات

والملك . صداقة فرضها ملازمة المكان . تبادل الشكوى والبوح والفضفضة . التجول فى الشوارع الخلفية ، وفيما وراء الأسوار . التعرف إلى ملامح غائبة ..

لم تعد القهوة تغلق أبوابها فى العاشرة ..

عرفوا السهر والعودة وجه الصبح . حتى المظاهرات والإضرابات ، دفعتهم إلى الفرجة والمتابعة . قيود الحرب غابت كأنها لم تكن . أزيلت الزرقة من النوافذ وواجهات الدكاكين ، واختفت الكشافات الضوئية من السلسلة ، وأبيح دخول ما كان ممنوعاً . حتى القعدات داخل حديقة سراى رأس التين عادت إلى مألوفها ، وعادت أضواء الكازينوهات فى امتداد الشاطئ ، وعاد السهر على الكورنيش ، والتمشى فى صفية زغلول وسعد زغلول ومحطة الرمل ..

قال مؤمن الدشناوى :

ــ بالمناسبة .. أقرأ على الجدران : نريد الخبز بدل السلاح .. ماذا تقصد هذه العبارة ؟..

قال مصطفى حجازى :

ــ أعرف أن الخبز موجود ..

تلون صوت عم محمد الطوشى بالتأثر :

– أخطأ الجيش عندما أطلق الرصاص عليهم ..

أردف فى تأثره :

ــ النتيجة هى ما حدث من حرائق بقسم الجمرك وقسم اللبان وإحراق لعربات الترام والدكاكين ودور السينما ..

قال المعلم كشك :

ــ لولا نزول الجيش لضاعت المدينة ..

قال مؤمن الدشناوى :

ــ عرفت فى المستوقد أن القتلى سبعة وعشرين .. منهم سبعة من عساكر البوليس ..

قال زناتى :

ــ هتفوا : يسقط النقراشى عدو الأمة ..

أضاف حسنين الدمنهورى :

ــ سمعتهم يهتفون : قود الثورة يا نحاس ..

قال المعلم كشك :

ــ لهم حق .. كل شئ يدعو إلى الغيظ .. التخاذل فى المفاوضات .. انهيار أسعار القطن .. كادر الموظفين .. البطالة ..

ثم فى لهجة متشككة :

ـ حتى لو نجح النحاس فى الانتخابات .. فلن يوافق الملك على تكليفه بها ..

كان المعلم كشك لا يفتح عينيه إلاّ إذا تكلم . فإذا أنهى كلامه أغمض عينيه ، وأحنى رأسه على صدره كالنائم . يتكلم ثانية ، فيفاجئ من حوله بأنه كان يتابع كل ما قيل ..

قال مؤمن الدشناوى :

ـ الحمد لله أنهم أذنوا لنا بالبقاء فى القهوة ..

لاحظ فأراً يطل من جحر داخل فجوة فى الجدار ، بالقرب من الردهة . تطلع الفأر ـ بعينين متأملتين ـ إلى المكان حوله . ثم عاد ـ ثانية ـ إلى الجحر ..

أردف الدشناوى متصعباً :

ـ أغلقوا القهوة فى النهار يوم ذكرى توقيع اتفاقية وادى النيل .. أما الآن فحظر التجول بالليل ..

قال حسنين الدمنهورى :

ـ سمعت أن عمال كرموز خرجوا فى مظاهرة كبيرة ، شارك فيها أكثر من مائة ألف .. ورفعوا لافتات تطلب قيام الجمهورية ..

قال زناتى الكناس :

ـ ميزة المظاهرات أن المفتش لا يترك مكتبه .. وقد لا يترك بيته ..

مشواره اليومى يبدأ فى الصباح . يأخذ المقشة العهدة من البناية الصفراء الصغيرة فى ميدان سانت كاترين ، ويعطى التمام . منطقته من قسم المنشية إلى نهاية شارع فرنسا ، عند تقاطعه مع إسماعيل صبرى ..

قال مؤمن الدشناوى :

ـ حجتك معك .. هل تنظف الشوارع من المتظاهرين؟..

استطرد مصطفى حجازى :

ـ ربما أصابتك طوبة ..

فاجأ عم محمد الطوشى الرجال بالقول :

ـ كما ترون .. لم أعد أقوى على حمل الصينية ..

مثل الترسة هو . صدفته الصمت ، والغموض . لهجته شامية ، وإن لم يتحدث عن أهله ولا موطنه ، ولا متى جاء إلى الإسكندرية . يكاد لا يتكلم ، ولا يروى عن ظروفه الشخصية . حتى صينية البسبوسة يحرص ، فلا يرى طريقة صنعها أحد . الصينية الهائلة الاستدارة ، تلتف حولها ـ

بإحكام ــ صينية من الماء . فى أسفل بريموس يسخن الماء ، فيواصل البخار ارتطامه بصينية الهربسة ، حتى تنضج . يميز نفسه ، لا يضم طاولتين فيتحولان إلى سرير ، يزيح الأكواب من " النصبة " ، يفرش البطانية فوقها ، يغطى جسمه ببطانية ثانية ..

وغالب التأثر فى صوته :

ــ استأجرت دكاناً بالقرب من قهوة فاروق ..

قال حسنين الدمنهورى :

ــ عين العقل ..

قال الطوشى :

ــ ما يحزننى أننى سأترك القهوة ..

علا حاجبا زناتى بالدهشة :

ــ لماذا ؟..

ــ إيجار هنا ، سأدفعه هناك ..

قاله المعلم كشك :

ــ هل تفارقنا يا رجل ؟!..

وهو يدارى تأثره :

ــ ما باليد حيلة !..

مواصلة المـــدد

من حزب الشاذلى :

نسألك الفقر عما سواك ، والغنى بك ، حتى لا نشهد إلاّ إياك .. فهؤلاء الأغنياء بالله ، الغائبون فيه عما سواه . عبادتهم بالله ولله ومن الله ، قياماً بشكر النعمة ، وإتماماً لوظائف الحكمة ..

***

اللهم إناّ قد عجزنا عن دفع الضرّ عن أنفسنا ، من حيث نعلم ، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم؟.

***

اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ..

قال عم سلامة :

ــ الغداء كل يوم خميس على حساب حمادة بك ..

قال مؤمن الدشناوى :

ــ فردبحى أم باللحم ؟

قال عم سلامة :

ــ فى كل طبق خضار ، قطعتان كبيرتان من اللحم الشمبرى ..

عم سلامة يقف وسط الحلل الهائلة الحجم ، خلف بنك من الرخام ، يلاصقه جرن من الأسمنت ، إلى جانبه ثلاثة صفوف من الأطباق ، وجردل ماء ، فى داخله الملاعق والشوك ، والبخار يتصاعد بالحرارة . وفى الزاوية حوض صغير ..

الموائد توازت لصق الحائط ، غطيت بالمشمع ، فوقها ملاحات وطفايات سجاير من البلاستيك الملون . على جانبيها الكراسى مشغولة وخالية ، والمروحة المتدلية من السقف تدور فى رتابة ، وثمة أصوات نساء يغنين على عربة كارو فى شارع السيالة :

الفاتحة للعسكرى سبع السباع المفترى

قال صابر الشبلنجى :

ــ نقلة الفول تضمن لك الآن أكلة معتبرة ..

أطلق الدشناوى من أنفه ضحكة مبتورة ، وواصل الأكل ..

خصص له المستوقد عربة يد . ينقل عليها قدر الفول من المستوقد بشارع المحافظة القديمة إلى الطنطاوى بشارع التتويج ، وإلى مطعم النبلاء ، وجمعية مائدة الفقير بشارع إسماعيل صبرى ..

كان يشارك عم سلامة فى الخدمة . يرتدى الفوطة البيضاء ، يدق عجينة الطعمية فى الجرن ، يقشر الخضار ، يعد خلطة الدقة من الفول السودانى والسمسم والحمص والزعتر والكمون والكسبرة والنعناع ، يوزع على الموائد أرغفة الخبز والملاعق والشوك وأكواب الماء ، يطمئن إلى عدم خلو الملاحات ..

فز جابر زعبلة من جانب صابر :

ــ هذه رائحة إسطبل ..

ضحك صابر باستهانة ..

ألف التصاق جسمه برائحة العليق وروث البهائم . لا تذهب باغتساله فى مسقاة الخيل . امتلأت غرفته بأجولة

الذرة والفول والشعير والتبن ، وتساندت على الجدران كومات البرسيم الصابح ..

وضع ثيابه فى ماكينة التبخير بحمام الأنفوشى . أطال وقفته تحت الدش .. لكن الرائحة ظلت ملتصقة بجسمه ..

قال له عم محجوب :

ــ هل يصلح غزل المياس لصيد البساريا ؟..

ورماه بنظرة مؤنبة :

ــ حمامنا لا ينفعك .. جلاخة جسمك تحتاج إلى مكيّس فى حمام شعبى ..

قال صابر :

ــ هل هذا حمام الملك ؟!

قال عم محجوب :

ــ خيل الملك أنظف منك ..

طلب جابر زعبلة الملاحة من الدشناوى . لم يضعها ــ بتعمد ــ فى يده . دفعها إليه ، وهمس بالشكر . قال مؤمن وهو يهز كتفيه :

ــ لا تشكر على الملح !

قال صابر لمجرد أن يدور كلام :

ـ الولد أبو بكر .. ابن على الراكشى ..

التقط تنبه الجالسين ..

صحا على حركة فى الإسطبل . خمن أن أحداً تسلل ليقطع ذيول الخيل بالموسى ، فينتقع بشعرها . شهق للمشهد المفاجأة : الولد أبو بكر يعدل وقفته وراء بغلة صغيرة ، أودعها صاحبها الإسطبل . دفع البغلة إلى زاوية الإسطبل ..

ـ من قلة الحريم يا ابن الكلب ؟!

قال عم سلامة :

ـ لا تشتم أباه .. فهو مبروك !

قال مختار زعبلة متذكراً :

ـ رأيت الراكشى فى البلقطرية أمس .. يبدو أن جذبته اتجهت إلى الكيف !

قال عم سلامة :

ـ أعرف أن الراكشى صاحبك ..

قال زعبلة بلهجة معتذرة :

ـ نسلى أنفسنا !..

هتف عم محجوب :

ـ تسلّى نفسك بأذية خلق الله !..

قال عم سلامة :

ـــ الراكشى فى بحرى الآن بركة ..

قال صابر :

ـــ كان لدينا حماد واحد .. صار لدينا اثنان ..

قال عم سلامة :

ـــ الخبل من شروط الولاية ..

علا صوت صابر بالاستنكار :

ـــ جعلته وليا ؟..

مط عم سلامة شفته السفلى :

ـــ من يدرى ؟! ..

اصطدمت يد صابر ـــ عفوا ـــ بالملاحة . سقطت ، وتناثر الملح مختلطاً بنشارة الخشب التى غطت الأرض ..

قال عم سلامة لمؤمن :

ـــ التقط هذا الملح ..

وهز إصبعه أمام عينيه :

ـــ حاذر ثانية من وقوع الملح ..

وعلا صوته بنبرة وعظية :

ــ إن وقع غصباً عنك التقطه جيداً ، حتى لا تعاقب يوم القيامة بالتقاطه برموشك من صخور جهنم ..

واتجه إلى مؤمن الدشناوى :

ــ ضع أمام عمك الحاج سلطة خضراء بدلاً من البصل ..

كان الحاج محمد صبرة يتردد على المطعم من باب المؤانسة . عرف عنه أنه لا يقرب اللحم ، ويبدى ضيقه لرؤية حيوان أو طير يذبح . وكان يرفض تناول ما يغير نكهة الطعام كالبصل والثوم والفجل ، فلا يؤذى الزبائن برائحة فمه عند الحلاقة . وظل على عادته بعد أن اكتفى بالتطبيب ، وترك الحلاقة لصبيانه ..

لما طالت وقفته ، تململ ، ومضى ..

أزمع أن يضمر بطنه بالصيام ، للسباق فى حلبة النجاة . يروض نفسه بالجوع ، حتى تظهر له مقامات الكشف ، يصطفيه الله بنور الأنوار . أفضل لو وقف أمام أبواب الجنة . يتطلع إلى المائدة التى تحدث عنها النبى . توضع بين يدى ولى الله . أطباق من الذهب الأحمر ، مكللة بالدر والجوهر والياقوت والزبرجد ، عليها فواكه لا يوجد ما هو أجمل منها

، ولا ما هو ألذ من طعمها ، ويشرب بكأس المحبة من بحر الوداد . يقبل طائر ، فيقول : يا ولى الله . أما أنى قد شربت من عين السلسبيل ، ورعيت من رياض الجنة تحت العرش . أوكلت من ثمار كذا طعم أحد الجانبين مطبوخ ، وطعم الجانب الآخر مشوى ، فيأكل منه ما شاء ، وعليه سبعون حلة ، ليس فيها حلة إلاّ على لون آخر . فى أصابعهم عشر خواتم ، مكتوب على الأول : سلام عليكم بما صبرتم ، وعلى الثانى : ادخلوها بسلام آمنين ، وعلى الثالث : وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون وفى الرابع : رفعت عنكم الأحزان والهموم ، وفى الخامس : لبسناكم الحلى والحلل ، وفى السادس : زوجناكم الحور العين ، وفى السابع : ولكم فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ، وفى الثامن : رافقتم النبيين والصديقين ، وفى التاسع : صرتم شباباً لا تهرمون ، وفى العاشر : سكنتم فى جوار من لا يؤذى الجيران..

جاوزت خطواته مطعم النبلاء ..

تنبه ، فعاد إليه ..

كان الهزال قد امتصه ، وملابسه لم يغيرها منذ فترة طويلة . يرتدي صديرياً ممزقاً على اللحم . ظهر ما يشبه قاعدة الشعر الأسود المتكاثف على الصدر ، تنتهي بصفين متقابلين ، متشابكين ، ينتهيان إلى السرة . لم يعن بنظافتها ، فغطى موضعها طين وأوساخ ..

مبنى التصوف ودعامته ، التمسك بالفقر والافتقار ..

لم يعد يضيق بالجوع . الجوع يكسر الشهوة . اختار الجوع والعزلة والمجاهدة والسهر . الطير يدبر الله رزقها يوماً بيوم . يشتاق إلى جنة الأفعال . الجنة الصورة من جنس الطعام الأشهى ، والأشربة العذبة ، والمناكح التي تهبه لذة تفوق تصوره . القصور من لؤلؤ . في كل قصر سبعون داراً من الياقوت الأحمر . في كل دار سبعون بيتاً من الزمرد الأخضر . في كل بيت سرير . على كل سرير سبعون مائدة . على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام . في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة . الحجرات بلا مغاليق من فوق ، ولا عماد من أسفل . يطير إليها أهلها أشباه الطير ، مع ضخامة أجسامهم . بناؤها لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة . ترابها المسك والكافور . حشيشها الزعفران . أبوابها من

الجوهر . حصباؤها اللؤلؤ . ماؤها أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل المصفى . وفيها من الحور العين ما لا يحصر عدده إلاّ الله ، ومن النعيم ما لا ينقطع أبداً . جوار أبكار قد علمن القرآن ، يقرأنه بأصوات تشجى القلوب ، وتشتهى الأسماع منها ، ونهر يقال له الرحمة . يجرى فى جميع الجنان ، ونهر ينبت الجوارى والأبكار ، وقبة من كافور أبيض ، معلقة بلا عمد تلزمها ، ولا علاّقة تمسكها ، وشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام ، فلا يقطعها . ورقها ورد أخضر ، وزهرها رياض صفر ، وأغصانها سندس ، وثمرها حلل ، وصحفها عسل وزنجبيل ، وبطحاؤها ياقوت وزمرد ، وثمار أشجارها أصفر من الرمان ، وأضخم من التفاح ، وحلاوتها كحلاوة العسل . من يدخلها ينعم ولا ييأس ، ويخلد ولا يموت ، ولا تبلى ثيابه ، أو صحته . له كل ما يشتهى من أكل وشرب ولباس ونكاح وركوب . يشتهى الطير ، فيخر بين يديه ملقى نضيجاً ، لم تمسّه نار . يأكل منه حتى يشبع ، ثم يطير . وإذا اشتهى الشراب ، جيء بإبريق ، فيقع فى يده . يشرب ، ثم يعود الإبريق إلى مكانه . على نهر البيدخ ، جوار نباتات . إذا

أعجبت جارية رجلاً ، مس معصمها ، فتتبعه ، وتتبت مكانها . وإذا اشتهى الولد ، كان حمله ، ووضعه ، وسنه ، فى ساعة واحدة كما يشتهى . وإذا اشتهى زيارة أحد إخوانه ، طار من سريره ، حتى يكون بحذاء سرير أخيه . يباح الخمر والحرير والذهب . تمر السحابة تقول : أتريدون أن أمطر لكم ؟.. فلا يتمنى شيئاً إلاّ مطره . يرى الثمرة فى الشجرة ، يشتهيها ، فيقول الغصن : خذنى يا ولى الله . يسأل : من أعلمك بما فى نفسى ؟.. يقول الغصن : الذى ارتضاك لجواره . يتناول الطعام فى أطباق من الياقوت الأحمر والأصفر والأبيض ، وأكواب من الذهب الأحمر ، مملوءة بالماء واللبن والخمر والعسل والتسنيم والزنجبيل والسلسبيل والرحيق المختوم . حاجته عرق ، يسيل من جلده ، مثل ريح المسك ..

دعاه الحاج محمد صبرة ، فرفض ..

قال له يوسف بدوى :

– فى قول لرسول الله : من صبر على القوت الشديد ، صبراً جميلاً ، أسكنه الله الفردوس حيث شاء ..

أكرمه الله بالحياء والخوف والانتباه واليقين . أذهب عنه الشك والوهم . كسر حظوظ نفسه ، وقطع الطمع فى الدنيا ، وتجرد للآخرة . احتذى المشايخ الكبار فيما حرصوا عليه : أزمع الصبر على قلة الكلام والنظر والحركة والمنام والطعام والشراب واللباس واعتزال الناس ، حتى يختاره الله للحياة فى الجنة . يدخل الرحاب الواسعة الطاهرة . ينادى المنادى : إن لكم عند الله موعداً . يسأل الأولياء والصالحون : ألم تبيض وجوهنا ، وتنجنا من النار ، وتدخلنا الجنّة ؟.. يقول المنادى : بلى . ويكشف الحجاب ، فما ينالون شيئاً أحب من النظر إليه . يدخل مع رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء . يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنازلهم عند الله . يكونون على منابر من نور . يغنى إسرافيل للملك القدوس ، لا تبقى شجرة فى الجنة إلاّ مادت ، ولا ستر ولا باب إلا ارتج ، ولا حلقة باب إلاّ طفقت بألوان طنينها ، ولا أجمة من آجام الذهب والفضة إلاّ زمرت بفنون الزمر ، ولا حوراء إلاّ غنت بأغنياتها ، ولا طائر إلاّ غرد بلحنه . تردد الملائكة الأغنيات ، وتتضاعف اللذة ، وتغنى الحور العين بأجمل الأصوات : نحن الخيرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرون بقوة

إيمان . ونحن الخالدات فلا نموت ، ونحن المقيمات فلا نظعن . طوبى لمن كان لنا ، وكنا له . لا ليل ولا نهار ، ولا شمس ولا قمر ، ولا حر ولا برد . الوقت دائم كما قبل طلوع الشمس . جنات الجلال ، ودار السلام ، والمأوى ، والخلد ، والنعيم ، والفردوس ، والقرار ، وعدن . جميعها لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وترابها المسك الأذفر والكافور ، وحشيشها الزعفران ، وقصورها اللؤلؤ والياقوت ، وأبوابها من الجوهر . علو ضلفتي كل باب منها خمسمائة عام ، وحصباؤها اللؤلؤ ، وماؤها أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأفضل أنهارها ستة : الرحمة ، والكوثر ، والكافور ، والتسنيم ، والسلسبيل ، والرحيق المختوم ، وأنهار أخرى كثيرة ، لا يعلم عددها إلاّ الله . نخيلها له جذوع من الذهب ، وجريد من الذهب ، وأقماع من الذهب ، وثمارها ألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، وثمة شجرة ، يخرج من أصلها خيل ذوات أجنحة مسرّجة ، ملجّمة ، يركبها أولياء الله فتطير بهم حيث شاءوا . الحجرات من أنواع الجواهر ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها . فيها من النعيم والثواب والكرامات مالا أذن

سمعت ، ولا عين رأت . وفى يوم الجمعة يؤتون بخيل مسّرجة ، ملجّمة ، لا تروث ولا تبول • يركبونها حتى ينتهوا حيث شاء الله ..

أعاد عم سلامة دعوته :

ــ أدخل يا شيخ على ..

تعنيف السلطان له على معاملة سيد الفران ، بدلت معاملته لمن يترددون على المطعم . حتى من يطلبون التعامل بأجل ..

مد الراكشى يده إلى أعلى . توالى التقاطه ما لم يروه ، وقذف به فى فمه ، وراح يمضغ فى استمتاع ..

اتسعت عينا صابر بالدهشة :

ــ ماذا تفعل يا رجل ؟..

وهو يواصل المضغ :

ــ طعام السماء أفضل من طعامكم ..

أدار صابر أصابعه بجانب أذنه :

ــ أصابه الخرف ..

صرخ الراكشى :

ـ المخرف أبوك !.. هذا طعام من الجنة لا تراه الأعين الكافرة !..

وداخل صوته تهدج :

ـ أنتم تأخذون من الجيب .. وأنا آخذ من الغيب ..

هم الراكشى بالانصراف .. لكن فرصة الجوع دفعته إلى المائدة القريبة ..

سكب قطرات من الماء على الأرض ، ثم شرب الكوب دفعة واحدة ..

علا حاجبا مؤمن الدشناوى :

ـ لماذا ؟..

قال وهو يواجه الطعام :

ـ حتى يشرب أخوتنا .

اتساع الدائـــرة

غادرا الجامع بعد صلاة المغرب ..

كانا قد استأذنا إمام أبو العباس فى مشوار ، فلا يستطيعان حضور درس المغرب . نزلا درجات الباب الملكى إلى ميدان الأئمة . الأيدى ــ فى الأضواء الخافتة ، المنبعثة من داخل المكان ــ تلمس المقصورات النحاسية ، كالنوافذ الصغيرة ، وتعيد ما لمسته إلى الأفواه ، وتقبله ، وتمسح بها على الصدر . بقايا الشمس تسللت من أعلى الجدران ، وحلت العتمة . بدت المرئيات كأطياف ، أو كأشباح ..

قال عباس الخوالقة :

ــ ماذا يخيفك من جابر برغوث ؟.. لقد رفض أن يتقاضى مليماً قبل حدوث الشفاء ..

قالت أم محمود :

ــ أى شفاء ؟!.. صحة البنت تدهورت .. أخشى أنها ستموت ..

كانت قد أهملت الأمر ، ونسيته تماماً . ثم نبشت الذاكرة ــ فى الأيام التالية ــ لقدوم الإمام . لملمت الجزئيات الصغيرة ، فاستعادت الملامح الغائبة ..

قالت أم هشام :

ــ ليتك ترضعين الولد مع البنت ..

قالت متصعبة :

- كفى الله الشر !

قالت المرأة مهونة :

ــ أبداً .. لبن صدرى لا يكفيه ..

ترامى صوت أم عباس الخوالقة من الحجرة المطلة على السيالة :

ــ اشربى حلبة ومغات يا ولية ..

قالت أم محمود :

ــ أنت هكذا تغلقين الباب أمام البنت لو أن الولد طلب زواجها ..

قالت المرأة :

ــ إنها اكبر منه فيصعب زواجهما ..

خمنت أنها ربما أساءت التعبير ، فأردفت :

ـــ مهجة تستحق ابن الملك ..

تناهى صوت أم عباس الخوالقة :

ـــ وهل للملك ابن يا ولية .. إن كل خلفته بنات !

قالت المرأة :

ـــ الحقيقة أنى لم أعد أذكر من أرضعته .. أصبح أخاً للكثير من أولاد وبنات السيالة ..

مع أن عباس الخوالقة ولد فى بحرى . من أبوين وجدين ولدا فى الحى . لا يعرف له أهلاً خارج الإسكندرية ، سوى من غادروا المدينة لظروف العمل ، أو المصاهرة .. فإنه لم يعرف عن كرامات جابر برغوت إلا بعد أن كلمه عم محجوب ، حارس حمام الأنفوشى :

ـــ جابر برغوت مبروك .. وفقه الله فى علاج ما هو أقسى من مرض ابنتك ..

سبقه عم محجوب فى شارع سيدى كظمان . عبرا حلقة ذكر يتمايل فيها الذاكرون متشابكو الأيدى على إيقاع القوال . قرأ عباس الخوالقة الفاتحة لولى الله بصوت هامس ، ومسح وجهه بيده . اخترقا شوارع ضيقة وحوارى وأزقة ،

اختلط التراب بمياه الغسيل ، بالأوساخ المتخلفة من تنظيف السمك ..

توقف عم محجوب عند بيت من الطوب الأحمر ، ذى طابقين . نوافذه عالية ، مغلقة ، وإن علا الصدأ قضبانه الحديدية . وثمة ــ فى المدخل ــ مياه راكدة ، ورائحة عطن . وتناثر على الجانبين مجاديف مكسورة وحبال وشباك وفلين وإسفنج وعلب فارغة ..

***

تعلم جابر برغوت حتى الثالثة الأولية . فك الخط ، وحفظ آيات من القرآن الكريم ، وقواعد الجمع والطرح والضرب والقسمة . لم تكن ظروف أسرته تقوى على تكاليف الدراسة . ألحقه أبوه صبياً عند المعلم مهنى ، الحانوتى المواجه لجامع ياقوت العرش . أتاح له مواصلة تعلم القراءة والكتابة ، وتعلم الأحجبة والأعمال فيما بعد ، اقترابه من الشيخ عوض مفتاح . كان يصنع الأحجبة ، ويكتب الأعمال لمن يقصده من زائرى ياقوت العرش . أضاف إليها من ذهنه ، ومن دعوات المترددين على المقام ، وما يتركونه من رسائل وشكايات وأحجبة ..

قضى برغوت أعواماً يقرأ الرواتب فى البيوت . وعندما اشترى كتاباً فى السحر من مكتبة بالعطارين ، فرغ له أياماً حتى حفظه . قرأ أمهات فى كتب السحر والطب الروحانى وأتقن العمل بما فيها : تذكرة داود ، وتعطير الأنام فى تفسير الأنام وشمس المعارف ومنبع أصول الحكمة للبونى ، وتعبير الرؤيا لابن سيرين ، والرحمة فى الطب والحكمة للسيوطى ، ومجربات الديربى الكبير ، ومؤلفات ابن الحاج ، وغيرها. العلم بكمالات القلوب ، وآفاتها ، وعللها ، وأدواتها ، وبوسائل حفظ صحتها واعتدالها ، ورد الأمراض عنها . وصار عارفاً ، قادراً على الإرشاد والتكميل ..

استكمل علمه بالتردد على مشايخ لهم صيتهم فى اللبان وغربال وكرموز وصحراء المتراس ..

لما زادت علومه ، أجاد فتح الكتاب ، وقراءة الكتب ، والجبهة ، والاستخارة بالقرآن ، وبحبات المسبحة ، واستحضار الأرواح ، ومخاطبة أولياء الله فى أضرحتهم بالبركة والمكاشفة . وصنع أحجبة لرد الغائب ، وفك النحس ، وشفاء العقم ، والأمراض المستعصية ، وطرد الشياطين ،

وإبطال العمل . ونجح الكثير من التلاميذ بفضل أحجبته ، وتماثل مرضى للشفاء ، وولدت نساء ذكوراً ..

كان يأخذ اسم المشكو فى حقه . يعيد رسمه على فحف قرموط ، ويطلب إلقائه فى البحر . يصعب على الرجل من ليلتها أن يضاجع امرأته . يظل مربوطاً حتى يموت القرموط ، أو تأكله سمكة كبيرة ، أو يقع فى شباك الصيادين . وكان يكتب الوصفات . إذا وضعها الرجل فى كوب ماء ، وسقاه لزوجته ، فإنها لا تفعل ـــ بعد ذلك ـــ ما يكرهه ..

لم يعد مسئولاً عن حياته ، ولا عما يقضى به فى الحالات التى يعالجها . كتب السحر تشير بكل تصرف . تقرر ما ينبغى أن يفعله ، وما ينبغى إهماله . تطلعه على حقيقة الداء ، وتضع العلاج المناسب ..

وحين شكا عم سعد صاحب المجيرة فى شارع إسماعيل صبرى من فتاق ضخم يملأ ما بين فخذيه ، فهو يتحرك ويمشى بصعوبة . لجأ إلى جابر برغوث . وضع يده على موضع الفتاق ، وبسمل ، وحوقل ، وتلا أدعية ، ثم رفع يده ، فإذا الفتاق ذهب ، كأنه لم يكن . قد يكون العلاج وصفة ، أو دواء من الصيدلية . ربما اكتفى بالنصح بقراءة

الأذان فى أذن المريض ، أو تلاوة آيات القرآن . وربما ــ إذا بدت الحالة صعبة ــ أمر يعرض المريض على طبيب دنيوى ، فهو طبيب روحانى ، له علومه ومعارفه التى لا تختلط بعلوم الطب الدنيوى ، ومعارفه .

رفض ــ بعد وفاة أكبر أبنائه مسموماً ــ كتابة الأعمال السحرية للضرر والإيذاء . لم يعد يكتب إلا أعمال الخير والشفاء والمصلحة والهداية . كلمات السحر تتضمن آيات من القرآن ، والقرآن خير حروفه وكلماته وجمله وآياته وسوره.

طلبت منه زوجة صياد الطراحة زغلول عمران أن يربط زوجها ، لزواجه من أخرى ، فرفض . قال إنه يخاف عذاب الله لو أقدم على الأذى ..

قال :

ــ هل تزوج الرجل بالمرأة ، أو زنى بها ؟

قالت المرأة :

ــ تزوجها ..

ضرب الفراغ بيده :

ــ وصفة الربط لا تصح إلا فى حالة الزنا وحدها ..

***

جلس على حشية من قطن . أمامه طاولة مستديرة من الخشب المنقوش ، عليها أوراق وكتب ودواة حبر ومجمرة بخور . وعلى الجدران آيات قرآنية وصورتان للحرم المكى والحرم النبوى . وغطيت النافذة بستارة من القماش السميك . تحتها صندوق خشبى ، مغلق بقفل ..

اقتعد عباس الخوالقة وعم محجوب الكليم الأسيوطى ، المفروش باتساع الحجرة ..

ــ أهلاً يا معلم عباس ..

يعرفه ، وإن لم يهبه انتباهه ، ولا جلس إليه من قبل . رآه مرات كثيرة أمام ياقوت العرش ، وفى داخله . ليس الشيخ عوض مفتاح إمام الجامع ، ولا حتى الشيخ سباتة قارئ الجامع ومؤذنه ، فيعطيه حقه من التوقير . القعدة بدلت صورته ، وتأثيره في نفسه . داخلته رهبة . تعمد أن تكون كلماته هامسة :

ــ أهلاً يا شيخ جابر ..

لو أن الموقف قبل الآن ، لنطق الاسم غير مسبوق بصفة ..

نثر جابر برغوث المزيد من البخور فى المجمرة أمامه ، ونكش جمرات النار بقطعة من الخشب :

ــ حدثنى عم محجوب عن مشكلة ابنتك ..

قاطعه بصوته الهامس :

ــ وأكد أن الحل سيكون على يديك ..

سرحت عيناه فى المدى :

ــ الحل فى يد الله !

مسح بيده على الأثر . همس باسم الله ، والفاتحة ، وبعض أسماء الله الحسنى ، وأدعية . ثم علا صوته : بسم الله الرحمن الرحيم . بسم الله الكافى . بسم الله الشافى . بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ ..

قرأ : " فلما ألقوا ، قال موسى : ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله . إن الله لا يصلح عمل المفسدين " ..

طلب من الخوالقة أن يكرر ما قرأ ــ هو أو أحد من آل بيته ــ اثنتين وأربعين مرة . وطلب أن تقرأ " قل هو الله أحد " ثلاث مرات ، والمعوذتين ثلاث مرات ، وأن تقرأ خمس آيات من سورة البقرة ، ويقرأ من نفس السورة " الله لا إله إلاّ هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى

السموات وما فى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلاّ بإذنه . يعلم ما بين أيديهم ، وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلاّ بما شاء . وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وهو العلى العظيم .. الآيات إلى " والله لا يهدى القوم الكافرين " . وتقرأ سورة " الإخلاص " اثنتى عشرة مرة . ويقرأ من سورة الحشر : " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم يتفكرون . هو الله الذى لا إله إلاّ هو ، عالم الغيب والشهادة . هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلاّ هو ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق ، البارئ ، المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . ومن سورة طه " وألق ما فى يمينك ، تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى "..

قال جابر برغوث :

ـــ البنت تعانى أذية سحر .. إذا قرئ ذلك كله ، ونفذ ، فإنه يحرق كل ما كتب من أسماء الجان ، ويبطل أعمال السحر ، ويحطم التعاويذ والطلاسم ..

صنع حجاباً ، ثبته فى حجر صغير وطلب من الخوالقة أن يلقيه فى البحر :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الله الذى لا إله إلا هو ، مرسل الرسل ، عالم البعض والكل ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، الوالى المتعال ، رب الآخرة والأولى ، والبداية والمنتهى ، وله الأسماء الحسنى ، مجرى الفلك ، مالك الملك . إنى لا أقرب ممن علق عليه هذا الحجاب ، لا فى أكل ، ولا فى شرب ، ولا فى مشى ، ولا فى جلوس ، ولا فى خلاء ، مادامت الفلك دائرة . والله على ما أقول وكيل " ..

***

وضع محمود عباس الخوالقة أرغفة الخبز على الجريدة بيده ، واتجه خارج الفرن ..

لحقه نداء فؤاد أبو شنب ..

مال به يمين الباب من الخارج ، يتقى طرطشات المازوت على الجدار ..

ـ أريد أن أزور والدك فى البيت لأمر هام ..

***

ما كاد أبو شنب يغادر الشقة ، حتى خبطت أم محمود على صدرها :

ـ لن أزوج ابنتى لرجل فى سن أبيها ..

قال محمود :

ـ هذه مشكلة بسيطة .. الأهم أنها ستكون زوجته الثالثة!

قال عباس الخوالقة فى هدوء باتر :

ـ أزوج ابنتى وأضمن حياتها ، أفضل فى كل الأحوال من أن أراها تموت !

التحليق بلا أجنحة

قال أبو الحسن الشاذلى : " إذا أكرم الله عبداً فى حركاته وسكناته ، نصب له العبودية لله ، وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب فى عبوديته ، والحظوظ عنه مستورة ، مع جرى ما قدر له ، ولا يلتفت إليها كأنه فى معزل عنها . وإذا أهان الله عبداً فى حركاته وسكناته ، نصب له حظوظ نفسه ، وستر عنه عبوديته ، فهو يتقلب فى شهواته ، وعبودية الله عنه بمعزل ، وإن كان يجرى عليه شئ منها فى الظاهر "

***

" لا تختر من أمرك شيئاً ، واختر أن لا تختار ، وفر من ذلك المختار ، ومن فرارك ، ومن كل شئ ، إلى الله تعالى " ..

***

" لا تنقل قدميك إلاّ حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلاّ حيث تأمن غالباً من معصية الله ، ولا تصطفِ لنفسك إلاّ من تزداد به يقيناً ، وقليل ما هم " ..

ترك المعهد الدينى وراءه ، ومضى فى شارع المسافرخانة ، ببيوته القديمة ذات الطريق المغطاة بقطع البازلت الصغيرة ، والأبواب والنوافذ العالية ، والحجارة البيضاء . أسلم نفسه لظلام الحوارى الضيقة ، المتشابكة ، المتداخلة ، وإن تناثرت أضواء شاحبة من أخصة النوافذ المغلقة . ثمة بيوت مغلقة الأبواب ، وبيوت فتحت عن آخرها ، وإن احتوت الظلمة مداخلها ، فلا تبين عن شئ ، وهدأت الأصوات ، وخفتت . تحولت إلى همهمات هامسة ، بعيدة ..

لم يشعر بالخوف . الجن والعفاريت سجنها رمضان . يستطيع المرور فى أى وقت ، دون أن يخشى أذاها :

يا رمضان يا عود كبريت   يا مقيد كل العفاريت

أغلقت أبواب الجحيم ، وفتحت أبواب الجنة ، وصفدت العفاريت والجان والمردة والغيلان فى قماقم من النحاس . لا

يظهرون طول الشهر ، فيستطيع الناس الحياة فى أمن وسلام..

كانت الجان والعفاريت تترصد له فى ناصية حارة الشارونى ، فى الجانب المظلم المفضى إلى السيالة . يعرفها بمجرد اقترابه . لها تكوين البشر ، لكن حركاتها القافزة تكشفها . يقترب ، ولا يتوقف . تؤذى من يبدى خوفه . يتلو ما يسعفه به لسانه من آيات القرآن ، فتفزع وتختفى ..

كانت الأقدام قد خفت من الميدان والشوارع المحيطة ، وأغلقت الدكاكين . انداح الظلام ، ماعدا ذبالات الفوانيس المرتعشة فى الأركان ..

إئتنس بالظلال التى صنعها تعدد لمبات الشارع ، والأضواء المتسللة من النوافذ المغلقة . تلازم الظلال خطواته . تسبقه ، وتجاوزه ، وتتبعه . يعتبر نفسه سائراً فى جماعة تؤنسه وتسلّيه ..

توقف لرؤية أولاد أمام إسطبل التميمى بالسيالة . يهزون الفوانيس ، ويغنون :

الدكان ده كله عمـــار   وصاحبه ربنا يحميـــه

شوح التميمى بيده ــ ناحيتهم ــ فى غضب ، فعلت أصواتهم :

الدكان ده كله خراب وصاحبه ربنـــا يعميه

رمضان ..

طلقة مدفع الإفطار تترامى من قلعة قايتباى ، يمتص صداها البحر ، فلا تسمعها الأحياء البعيدة ..

مولد سيدى ياقوت العرش موعده فى أيام الشهر . تسبقه المظاهر التى تهب الشهر ملامحه . خلو الشوارع إلى العصر ، وإغلاق الدكاكين ، والزحام الخانق قبل انطلاق مدفع الإفطار ، وموائد حمادة بك أمام فرن التمرازية : الفول النابت والأرز والفتة وقطع اللحم المسلوق ، وتدلّى المسابح من الأيدى ، وحلقات الذكر والتسابيح ، وقراءة كتب الدين ، وصلاة التراويح ، وتلاوة القرآن فى حديقة سراى رأس التين ، يتردد فى الحديقة الواسعة فى هيئة حدوة الحصان ، طيلة ليالى الشهر ، آيات القرآن ، وخدم السراى يطوفون على الناس بصوانى الحلوى والقهوة والشاى ، وثمة الكنافة والقطايف والنقل وقمر الدين وقلل الماء البارد والفوانيس والزينات والأعلام الملونة والأضواء والسهر والحركة

والتمشى على الكورنيش والفرجة ورائحة البخور .. حتى مآذن الجوامع تضاء إلى ما بعد صلاة الفجر ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ رمضان ليس مجرد شهر مبارك . إنه ملك عظيم ، بل هو أقرب الملائكة إلى الله سبحانه ..

واتجه بنظرته إلى محيى قبطان :

ــ كل الناس تفقد من وزنها فى رمضان .. ماعدا محيى ..

قال محيى قبطان :

ــ أنا لا أفطر يوماً واحداً ..

قال قاسم الغريانى :

ــ ومن أنكر ؟.. لكنك تأكل بمقام أربعة في إفطار سراى الملك ..

تجعدت جبهته :

ــ كذب !.. لم أتردد على إفطار الملك فى رأس التين إلاّ مرة واحدة في أسبوع ..

قال حمودة هلول :

ــ أنا أذهب كل يوم .. وألتقى بك كل يوم !..

كان يحرص على الجلوس فى المقاعد الأمامية . يحجزها الخدم للوجهاء والأعيان والمعلمين وموظفى الحكومة . يدخل السرادق ـ عندما يأذن الحرس الملكى ـ عقب صلاة التراويح ..

قال قاسم الغريانى :

ـ لو أن المعلمة مواهب أقامت فرعاً لنشاطها فى المولد ..

قال محمود عباس الخوالقة :

ـ منّه لله سيد الفران .. استأثر بأنسية وحده !..

قال الغريانى :

ـ تزوجها على سنة الله ورسوله ..

قال محمود :

ـ كانت تقضى ..

قال الغريانى فى لهجة معاتبة :

ـ يا رجل !.. سيد صاحبك !..

قال محمود :

ـ ألم يجد إلاّ أنسية ليتزوجها ؟!..

قطب عم إبراهيم القسط جبهته متذكراً :

ـ زكى ثعلب ؟

ثم وهو يهز رأسه :

ـ نعم .. طرد من المعهد ، وسافر إلى بلدته ..

اتسعت عيناه بالقلق :

ـ لماذا ؟..

ـ سألت عنه المباحث لصلته بالإخوان المسلمين .. ففصلته إدارة المعهد ..

ـ هل ألقى القبض عليه ؟

مط القسط شفته السفلى :

ـ لا أعرف !.. ودعته حتى نهاية المسافرخانة .. شيخنا يرفض اشتغال الطلبة بالسياسة ..

أردف الرجل بصوت هامس :

ـ قيل إنه فصل لانتمائه إلى جماعة سرية ..

قال طالب التقى بالراكشى فى حجرة زكى ثعلب ، إن الحكومة ليست راضية عن نشاط الطلبة . تحالفوا مع الوفد ، أو مع الأخوان المسلمين . أوقفت الحكومة دعم المعهد ، فعانى الطلبة . تحولوا إلى مهزومين . وغابت العناية عن

المبنى : انتشر البلى والوسخ ، وتشققت الجدران ، وتساقط الطلاء ..

لما أبدى زكى تعلب ضيقه مما يجرى ، أمر شيخ المعهد بفصله ..

اعتاد ــ فى الأيام الماضية ــ أن يتردد على المعهد . يدخل الباب الحديدى الضخم . يسبقه نبوت ، حمله للمرة الأولى ليطرد الأولاد حين يعاكسونه . يصعد الدرجات الرخامية . يطالعه فى الردهة الواسعة زحام الطلبة وصخبهم . عرف الطريق إلى حجرة زكى تعلب . الثانية على اليمين ، فى الطابق الثانى . تطل على منور خلفى ، وعلى حجرات الطلبة المقابلة . ينضم إلى زكى تعلب ، وإلى الطلبة المقيمين معه ، والمترددين عليه . يخوضون فى أحاديث تبدأ ولا تنتهى . يتناهى من حجرة قريبة ، تواشيح للشيخ على محمود . يهتف أحدهم : جعنا . توضع الطبلية ، فوقها أرغفة الخبز ، وأطباق العدس والفول النابت والفول المدمس .. ثم تشغى الحجرة بالحكايات والمناقشات والنداءات والهمس والمذاكرة واندلاق أدوار الشاى فى الأكواب . وثمة ــ من المطابخ ــ

أصوات الحنفيات المفتوحة والملاعق والشوك والسكاكين والأكواب ورنين المغرفة فى داخل الحلل ..

كان يواصل السير ، يقطع منازل السائرين ، ومراحل السالكين . يلتذ بالصبر فى تحمل المشقة ، ويكتفى بأكل القراقيش والليمون المالح . حمل سلسلة تتطوح بمجمرة بخور ، ينادى بآخر ما عنده على المدد من أولياء الله الصالحين ، فلما لحقت النار ذيل جلبابه ، ألقى بالمجمرة بعيداً ، فلم يحملها ثانية ..

أزمع أن يستبدل المتاع الأخروى الباقى ، بالحطام الدنيوى الفانى . عد نفسه من الموتى ، ولولا خوفه من غضب الله ، لتمنى مفارقة هذا العالم . صار حاله فى زمن الحال . لا يشغله الماضى ، ولا المستقبل . نور فى قلبه ، يشغله دائماً بأمور الآخرة . سطعت الشمس فى داخله بشدة ، اجتذبته ، لفته ، استغرقته فى أضوائها المبهرة ، فذابت نفسه . انقشعت أمام عينيه سحب الأغيار والأشكال والإشكال . وامتلأ القلب بعظمة الله ومحبته وجلاله . حل فيه النور ، ونزلت السكينة . تجاوز الحدود الخلفية . لم يعد على صلة بالخلق ورسومهم . أزالهم من نفسه ، وانفرد إلى الحق ..

كانت الرؤى تأتيه عقب آذان الفجر . اللحظات التى تشتد فيها الظلمة . لا يدرى إن كان ما يشاهده فى صحو أم فى يقظة . يدفع نفسه إلى التأكد مما حوله ..

تداخلت الرؤى فلم يعد يدرى ما الحلم ، وما رآه رؤية العين . كالصور الباهتة ، كالأصداء البعيدة ، مساومات الحلقة ، وجلسات قهوة الزردوني ، وطرقعات الكوتشينة والنرد ، ونداءات الجرسون ياقوت ، ودرس المغرب فى أبو العباس ، وتهدجات الذكر ، وسهرات حمام الأنفوشى ، ومطالب المرأة والأولاد . استغنى بالله عن الكل ، لا يحفل بهم ، ولا يلتفت إليهم ، ولا ينصت إلى كلامهم ، ولا يعتذر لهم على أى نحو ، وآثر ما يبقى على ما يفنى ..

إنسلخ من نفسه ، وانقطع عن الوجود إلى الله . إتصلت حياته به ، وأصبح كله له . استغنى به عما سواه ، وآثره على ما دونه . توكل عليه ، وعكف ببابه ، ورضى بقضائه ، وهجر له الأهل والأصدقاء . هرب من الخلائق مستأنساً به ، مستوحشاً مما سواه . صان قلبه عن الاتساع لغير المحبوب . جعله بيتاً مقدساً طاهراً من التعلق بالغير . مضى فى قلب التجليات الجاذبة إلى الفناء ، خلّف وراءه

البرق ، وتشوق إلى الهمس فى الذات ، والسياحة ، والانقطاع فى الجبال والشعاب وبطون الأودية ، لا يختلط ، ولا يراه أحد ، ولا يرى أحداً ، وإن رأى نفسه فى جلوة الخليفة . هو الخليفة نفسه ، وهو شيخ السجادة . يمتطى الحصان ، يحيط به الأتباع والمريدون ، والبيارق والرايات والتهليل والإنشاد والزغاريد ..

رأى ــ أول السيالة ــ طاطا الخباز بفرن التمرازية ، يقود دراجة بيد ، ويحمل طاولة خبز باليد الأخرى ..

ــ إلى أين ؟

ــ مطعم النبلاء ..

قال الراكشى :

ــ هل تبيعون له العيش الرجوع ؟

ــ طلب حمادة بك إرساله إلى المطعم ..

ثم وهو يواصل السير :

ــ يستخدمونه فى عجينة الفلافل ! ..

بدا ميدان المساجد كالسوق . تخلى عنه الهدوء ، وتعالى فى جنباته التكبيرات وعبارات التوحيد والصلاة على النبى والزعيق والنداءات والابتهالات ودقات الدفوف

والزغاريد ، وتناثرت أضواء الكلوبات ، تبين عن السرادقات وخيام الخدمة وسواتر الأقمشة والأكشاك وعربات البذ وشوادر الحمص وحب العزيز وخيام الكنافة والقطايف وفرق الصوفية والإنشاد والمريدين وحلقات الذكر وطوفان الزوار المتجهين إلى الباب الرئيسي لجامع ياقوت العرش وألعاب النشان والقوة والرايات والبيارق ، وتضوع المكان بروائح البخور والعطور والشواء ، ورددت مواكب الأطفال :

اقروا الفاتحة لسيدى ياقوت   واللى ما يرضى يطق يموت

تنبه لصيحة مفاجئة :

هل هلالك شهر مبارك .. على أمة الإسلام

وعلا ـ متغنياً ـ صوت الرجل الواقف أمام الباب الجانبى لأبو العباس :

يا رمضان يا صحن نحـــاس   يا داير فى بلاد الناس

سقت عليـــك أبـــو العبـــاس   تبـــات عندنـــا الليلـــة

الشيخ جمعة . الموالد موطنه . ينتقل من مولد إلى آخر . يحفظ مواعيد البدء والانتهاء : القنائي .. الحجاجي .. الدسوقي .. البدوى .. البوصيرى .. أبو العباس .. السيوطي .. يحرص على حضور مولد أبو الحسن الشاذلى . وقفة

عرفات . يخوض زحام البشر والسيارات وحلقات الذكر والخيام ودماء الأضاحى . يصبح قطرة فى بحر الألوف المحيطين بضريح قطب الأقطاب فى وادى حميثرة . يشارك فى الطواف بكسوة مقام الشاذلى ، يمسك ــ أو يلمس ــ أطرافها . يردد عبارات التكبير والتوحيد والصلاة على النبى..

قال الشاذلى عند موته :

ــ والله ، لقد جئت فى هذا الطريق بما لم يأت به أحد..

دفن بحميثرة ، وغسل من مائها ، فكثر الماء بعد ذلك ، وعذب ، فصار يكفى الركب إذا نزل عليه ، ولم يكن قبل ذلك كذلك ..

قال الشيخ جابر : إستصحب سيدى أبو العباس المرسى ، شيخه أبو الحسن الشاذلى ، فى رحلتهما الأخيرة إلى الأراضى الحجازية . ولما وصلا قنا ، اشترى الشاذلى مكتلاً وفأساً وقماشاً أبيض ، وحمله لتلميذه أبو العباس ، فسأله :

ــ ولم هذه الأشياء ، ونحن غير قادرين على السير بمفردنا ؟..

قال أبو الحسن :

ــ عند " حميثرة " سوف ترى ..

وسارا حتى وصلا عيذاب ، بالقرب من إدفو . وعند وادى حميثرة ، طلب الشاذلى من أبو العباس أن يملأ الإناء ماء ، فملأه . وهنا قال أبو الحسن :

ــ يا أبا العباس .. الآن وقد أعددت لك كل شئ ، وحفرت هذه الحفرة ، وسوف ألقى الله بعد قليل .. فعليك أن تغسّلنى ، وتكفننى . وسوف يحضر إليك رجل يساعدك فى دفنى ، فلا تسأله من أنت ..

وقام الشاذلى ، فتوضأ ، وصلى . بعد أن فرغ من صلاته ، نطق بالشهادتين ، ولقى ربه ..

نفذ أبو العباس كلام شيخه ..

يمضى الشيخ جمعة ليلة عرفات وصباح العيد فى أقرب مكان إلى الضريح . يحرص أن يشارك فى حمل كسوة المقام الحريرية الخضراء ، تطوف على إيقاع الذكر والتكبير ، حتى المسجد . يتكرر الطواف سبعاً حول المقام ، ثم يتسلم الكسوة خدم الضريح . يميل ــ عقب أيام المولد ــ

إلى ضريح سيدى سالم . يطوف حوله ثلاث مرات ، التماساً للمدد ، وتجنباً لإشعاره بالغيرة ..

صعد على الراكشى درجات السلم الرخامية ..

لم يعد تردده على الجامع مثلما كان فى القديم . انتصر السلطان له على الإمام وجلسائه ، لكن الأحوال ظلت كما هى . الحاج قنديل وحده أخذته هيبة الموقف ، فغابت ــ من يومها ــ شتائمه ، وراعى خاطر الله فى معاملاته . قصر تردده للصلاة على ياقوت العرش ، يؤدى ركعات الفرض والسنة . يجلس إلى جابر برغوث . يسأله ، أو يرد على أسئلته ، ثم يأخذ طريقه إلى باب الجامع لا يختار غاية محددة . قد يجول فى ميدان أبو العباس ، أو يطيل التوقف على شاطئ الكورنيش . يرقب قدوم البلانسات والفلايك ، وابتعادها فى انحناءة الميناء الشرقية . وربما مضى إلى زحام شارع الميدان ..

قال له سيد الفران وهو يحاذيه فى خطوات الصعود إلى الجامع :

ــ الرجل أبو شنب .. لم أكن أراه فى الفرن ، كما أراه الآن فى أيام المولد !..

قال الراكشى :

ـ كن متكلاً ولا تضعه فى مخك ..

ثم وهو يشبح بيده :

ـ لك الآن تجارتك !

أظهر سيد التصعب :

ـ يدهشنى تنقله بين الأكشاك والخيام والغرز .. كأنه مسئول عن إعاشة الناس !

تناثر فى أرجاء الجامع أفراد ومجموعات ، يصلّون ، ويتلون القرآن ، ويستندون إلى الجدران ، ويتبادلون الأحاديث . وثمة أعداد لا تنقطع من النسوة ، يدخلن الباب المواجه للمقام . يطفن حوله ، يهمسن بتلاوات وأدعية ..

اجتذبه صوت :

ـ أما كنت تعبد الله لو لم يكن هناك خوف من النار وحب فى الجنة ؟!

نظر إلى الرجل بجانب عينه . جلس فى طرف البسطة الأولى من الدرجات الرخامية . الشيخ حماد . قامته الطويلة ، وشعره المهوش المنسدل على كتفيه ، وعيناه المحدقتان

فيما يصعب تبينه ، وفمه المنفرج عن شفتين متدليتين ، وأنفه الدائم الزكام ، وملابسه التى تداخلت بالسواد فى جسده ..

هم بالميل ناحية الرجل ، لكن قوة غامضة ، غلاّبة ، رفت به الدرجات إلى داخل الجامع ..

فى حضرة ياقوت العرش

أخبر أبو العباس المرسى بخليفته ياقوت العرش ، يوم ولد ببلاد الحبشة ، وصنع له عصيدة ، أيام الصيف بالإسكندرية ..

قيل له :

ــ إن العصيدة لا تكون إلاّ فى أيام الشتاء ..

قال :

ــ هذه عصيدة أخيكم ياقوت . ولد ببلاد الحبشة ، وسوف يأتيكم ..

فكان الأمر كما قال .

***

قال النبهانى : " سمى العرش لأن قلبه كان ينظر دائماً إلى العرش ، وليس بالأرض إلاّ بدنه . ومن كراماته أنه إذا كان قدم إليه طعام ليأكله وفيه شبهة ، وجد عليه ظلمة محسوسة كالمسكنة ، فيتركه . وكان يشفع فى الحيوان والطير " ..

***

دخل شريف على ياقوت العرش بثياب رثة ، فوجده بثياب غالية ..

قال له الشريف :

ــ أنت يا مقلب الشفاتير ، يا مشقق الحوافر ، بهذا الحال .. وأنا بهذا الحال ؟..

قال ياقوت العرش :

ــ لعلى نهجت نهج آبائك ، فحسبونى منهم ، فأنزلونى منزلتهم ..

بكى الشريف ، واعتذر له .

حين ظهر لى سيدى ياقوت العرش ، اجتذبتنى الرهبة..

لم يكن خوفاً ، ولا يشبهه . أعرف الكثير الكثير من كرامات سيدى ومكاشفاته . حكايات أتاح لى تثبتها ، وروايتها . جلوسى ــ ساعات طويلة ــ خلال مايقرب من السنوات العشرين ، فى صحن جامع سيدى ياقوت العرش . أرقب ــ وأجالس ــ الداخلين والخارجين والمصلين

والذاكرين والطائفين حول مقام صاحب الضريح ، رضى الله عنه ..

كنت أتلو آيات القرآن ، وأؤذن للصلاة . أفتح أبواب الجامع قبل صلاة الفجر ، وأغلقها بعد صلاة العشاء . سمعت وشاهدت ما لم يغادر خاطرى ولا ذاكرتى . جلست إلى العابرين فى ترددهم على الجامع . قدموا لأداء نذر ، أو لحلول موعد الصلاة وهم بالقرب منه . وجلست إلى دائمى التردد على الجامع من مريدى أبو العباس المرسى ، عارفى فضل سيدى ياقوت العرش فى حياته ، خادمه ، وزوج ابنته ، وصفيه ، وتلميذه ، يلبدون فى أركان الجامع ، وعلى سلالم الأبواب ، ولصق الجدران..

دونت ما استمعت إليه ، وشاهدته ، فى أوراق كثيرة . تعهدتها بالتسوية والترتيب ، والتنقيح ، والتأكد من المعلومة الصحيحة . أخذت ما سجلته من أهل الثقة ، وما شاهدته بنفسى . لم أترك لقلمى رواية ما لم أتأكد من حدوثه . ساعدنى على ذلك أن الروايات مأخوذة من أشخاص مشهود لهم بالعلم والأمانة . لا أترك التفصيلات ، مهما بدت صغيرة . ما يبدو تافها قد يبين توالى الأحداث عن أهميته ،

والشخصية التى لا شأن لها ، ربما ــ فى لحظة ما ــ تسفر عن ملامحها . تمنيت على الله أن يكرمنى بالفهم والحفظ حتى لا أنسى كلمة مما قرأت أو شاهدت أو سمعت . حقق الله أمنيتى ، فلم يسقط ذهنى أى شئ ..

***

الله ــ سبحانه ــ هو الذى يصطفى الأنبياء والرسل والأولياء والعلماء والمصلحين . محمد هو آخر الأنبياء . الرسالة المحمدية هى مسك الختام ، والعلماء ــ كما تعلم ــ هم ورثة الأنبياء . ماقاله الرسول العظيم ، وقال به علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل . حين يجيد العالم السباحة فى بحر العلم ، فإنه يصبح ولياً . يضعه علمه على مشارف الحقيقة . ثم يصبح فى قلبها . تتوضح كراماته ومكاشفاته ومعجزاته وخوارقه ..

التصريف بالمقدرة الإلهية لا يكون الا لولى . أولياء الله كالشمس للدنيا ، والعافية للناس . الأولياء هم الذين آمنوا ، وكانوا يتقون . هم الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا ..

قال الرسول :

ــ إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء

قيل :

ــ من هم يا رسول الله ؟

قال :

ــ هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال وأنساب . وجوههم نور ، وهى على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس . ثم تلا قول الله تعالى : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ..

وقال سيدنا المرسى أبو العباس :

ــ معرفة الولى أصعب من معرفة الله عز وجل ، فإن الله تعالى معروف بكماله وجماله . وحتى متى تعرف مخلوقاً مثلك ، يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب ؟

وقال المرسى :

ــ الأدنى يشرف علىالأعلى ، ولا يحيط به ، والأعلى يحيط بالأدنى .. فالأولياء لهم إشراف على مقامات الأنبياء ، ومالهم الإحاطة بمقاماتهم ، والأنبياء يحيطون بمقامات الأولياء ..

***

كان اليوم شديد الحرارة . وكان جماعة من أصحاب أبو العباس فى ضيافته ، فقدم لهم عصيدة ..

قال أحدهم :

ــ يا أبا العباس .. لا تؤكل العصيدة إلا فى أيام الشتاء..

قال أبو العباس :

ــ هذه عصيدة ياقوت .. ولد اليوم ببلاد الحبشة ..

وظل ياقوت يباع ويشترى ، إلى أن جاء إلى أبو العباس . حسبوا عمره ، فتأكدوا من نبوءة السلطان ..

***

هو محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن أبى سرور بن حبان عبد الله العرش الشاذلى . يكنى بشرف الدين . من بنى حبنون ، أحد فروع قبيلة " صنهاجة " بالمغرب العربى . نسبه إلى قطب الأقطاب ، سيدى أبو الحسن الشاذلى ..

اشتراه التاجر رضى الدين إبراهيم الإسكندرانى ، من أسواق الحبشة ، وحمله فى مركبه ــ ضمن ما اشتراه ــ ليبيعه فى موطنه ببلاد المغرب .. لكن العاصفة فاجأتهم فى

قلب البحر ، وعلت الأمواج ، وهددت المركب بالغرق . فدعا التاجر ربه قائلاً :

ــ يا رب .. لئن نجيتنى ، ونجيت تجارتى ، لأهبن عبدى ياقوتاً لعبدك الصالح أبى العباس المرسى ..

وسكنت العاصفة ــ حالاً ــ وهدأت الريح ، واستوت المراكب فى انطلاقها ، وأمن التاجر على تجارته . فلما وصل إلى الإسكندرية ، وأراد أن ينفذ ما اعتزمه ، فوجئ بأن العبد ياقوت أصيب بقروح فى رأسه ، فاستحى أن يهب السلطان عبداً أقرع ، بعد أن نجاه الله ــ بفضل السلطان ــ من الغرق . وذهب إلى سوق النخاسة ، واشترى غلاماً جميل الصورة ، وذهب به إلى أبو العباس ..

فاجأه المرسى بالقول :

ــ أهذا الذى نذرته يا رضى الدين ؟

ثم بلهجة يخالطها غضب :

ــ مالك وماله ؟.. أتعرف منزلة هذا العبد من ربه ، وقربه منه ؟

وذهب التاجر ، وعاد بياقوت . فاستقبله السلطان بالبشر ، وألبسه طاقيته ، فشفاه الله ..

اتصل ياقوت العرش بأستاذه أبو العباس ، وأخذ عنه ، وتأدب ، وقام على خدمته ، وصار من أخلص المقربين إليه ..

***

أعلن حاكم الاسكندرية ضيقه ، فهو يمر على أبو العباس بين أصحابه . يقف الأصحاب احتراماً ، ويظل المرسى فى جلسته . زاد من ضيق الحاكم أن أبو العباس كان يقف إذا مر عليه أحد خدمه ..

قال الحاكم :

– كيف تقف لخادمك ولا تقف لى ؟

لم يرد أبو العباس ، وطلب الخادم ..

قال الأصحاب ، انه يجمع فتات الخبز الذى خلفه الآكلون ! ..

قال أبو العباس :

– ليأت ، ومعه فتات الخبز فى يده ..

وطلب أبو العباس من الخادم أن يفتح يده التى تقبض على فتات الخبز . فتحها الخادم ، فهتف الحاكم فى عجب :

– ياقوت !

وسمى الخادم ياقوت . ولزم مجلس السلطان لا يغادره ، حتى مات ، فدفن فى المسجد ..

***

سمى العرش ، لأن قلبه كان لم يزل تحت العرش الإلهى ، وما فى هذه الدنيا إلاّ جسده الفانى . أخذ عن شيخه المرسى فى المعارف والعلوم . لازمه فلم يفارقه . تعلم على يديه ، وتابع حركاته وسكناته ، ولاحظ كيف يأخذ أموره : متى ينصت ، ومتى يتكلم ، وقراءاته ، وأحاديثه ، وأفعاله . لجأ إليه فيما غمض عليه من أمور دينه ودنياه . ناقشه ، سأله ، أذن له المرسى بالخوض فى بحار الشك ، لا يضايقه ان جاوز حدود العقل ..

***

قال ياقوت العرش :

كنت بمدينة الإسكندرية . وكنت أتعبد فى مسجد بخارج المدينة ، فبقيت فيه مواصلاً ثلاثة أيام ، فأصابنى الجوع ، فدخلت الإسكندرية قاصداً الشيخ أبو العباس ، فوجدت فى طريقى درهماً ، فأردت أن أشترى به خبزاً وإداماً ، فرأيت فى السوق زبيباً طيباً . وكنت أعلم أن أبو العباس يحبه ،

لأنه من بلاد الأندلس . وهو كثير ببلاده . فاشتريت الزبيب ، وآثرته على نفسى ، وقصدت إليه ، فوجدته جالساً فى القلعة ، لأنه كان يسكنها بعد الشيخ أبو الحسن ، فوضعت الزبيب بين يديه ، وجلست ساعة . ولما هممت بالانصراف ، أمهلنى الشيخ ، وقال لى :

ــ اجلس !..

فجلست . فإذا برجل يدخل علينا بمائدة ، عليها رقاق طيب وبعض الطيور ..

فقال لى الشيخ :

ــ كل .. فهذا فتوحك لما آثرتنى على نفسك وأنت جائع ..

قال :

ــ فأكلت حتى امتلأت . ثم أمرنى أن أوزع الباقى على الفقراء . وعند قيامى ، قال لى الشيخ :

ــ احمل الزبيب معك ، فنحن قوم لا تحل لنا اللقطة ..

***

حين أراد الناصر بن محمد بن قلاوون ، ابن والى مصر آنذاك ، أن يخطب مهجة بنت سيدى المرسى أبو

العباس لنفسه ــ وكانت بالغة الجمال ــ رفض أبو العباس ، واختار لها زوجاً ، عبده ياقوت ، بعد أن أعتقه ..

***

قضى سيدى ياقوت العرش معظم عمره فى خدمة سيدى أبو العباس المرسى . تزوج ابنته ، وان لم يصبح خليفته . لا لعيب فيه ، وإنما لأن خلفاء أبو العباس هم مئات التلاميذ والمريدين الذين أخذوا على يديه ..

تعلم الكثير الكثير من أحوال المرسى . اعتقاداته وخواطره وأسراره ومطالع أنواره ومكاشفاته ومشاهداته ومسامراته وأفعاله ..

روى أنه كان فى سوق للسمك خارج الإسكندرية ، عندما أتى إليه فقير من عند أبو العباس ، ليشترى سمكاً . تنقل معه ياقوت العرش بين الباعة ، فلم يجد سمكة واحدة ..

قال :

ــ فاجتمعت بجماعة من الصيادين ، وطلبت من رئيسهم أن يصيد لنا شيئاً ..

فقال لى :

ــ إن هذه الريح يتعذر فيها الصيد (وكان نصرانياً)

فقلت له :

ــ أدخل على بركة الله ، فان للشيخ كرامة ..

فقال :

ــ ما يخالف الله العادة ..

فعرضت عليه أجره ، وأجر رجاله . فقبل ، ودخل البحر ، ومد شبكته ، وجرها الى الساحل ، فاذا بها سمك كثير ، مارأوا مثله من قبل ، فتعجب الحاضرون لذلك ، فرد رئيس الصيادين ، فقال :

ــ هذه بركة.. لأدخلن على بركة فلان الراهب ..

فدخل بالشبكة ، فلم يخرج فيها غير الوطاويط . وهو نوع لا يؤكل ، ولا ينتفع به ..

قال : فرجعت بالسمك .. وكان به سمكة كبيرة الحجم . وفى الطريق ، رآها يهودى ، وطلب شراءها ، فامتنعت ، وأرسلت بالسمك كله إلى سيدى أبو العباس ، فما أن رأى السمكة حتى قال :

ــ ارفعوا هذه السمكة ، وردوها الى ياقوت يعطيها لليهودى ، فان له زوجة حاملاً ، اشتهت السمك ، وليس اليوم من سمك ..

قال : فرددت السمكة إلى اليهودى ، وأخبرته بقول الشيخ ، فأسلم هو وجماعة من اليهود ، وبعض صيادى السمك ، منهم صاحب الشبكة ..

***

روى سيدى ياقوت العرش ، أن رجلاً قدم له طعاماً ، فرأى عليه ظلمة كالمكب ..

قال ياقوت العرش فى نفسه :

ــ هذا حرام ! ..

وامتنع عن الأكل ..

ثم دخل على المرسى . وما كاد يطمئن إلى جلسته ، حتى ابتدره السلطان :

ــ ومن جهلة المريدين من يقدم له طعام ، فيرى عليه ظلمة ، فيقول : هذا حرام ..

وأردف السلطان متصعباً :

ــ مسكين أنت .. ما ساوى ورعك سوء ظنك فى أخيك المسلم . هلاّ قلت لى : هذا طعام لم يردنى الله به

***

عرف عنه ميله إلى صوم النهار وقيام الليل ، حتى فى الأيام التى يرهقه الضعف لمرض ، أو لبذل مجهود فى العمل . وعرف عنه الاشتغال بالذكر والعبادة ، والغنى عن الناس ، والقناعة ، والرضا بالقليل من المأكل والملبس ، وهجر الشهوات ، والمجاهدة ، والورع ، وقلة النوم والكلام ، وعدم مبارحة المسجد إلاّ لضرورة ..

لم يتعمد إظهار الكرامات ، ولا خوارق الأحوال ، ولا إنشاء البراهين . وكان يغلب على حاله السكينة والوقار ، فهو يحسن الإنصات ، ويتحدث بقدر المعنى ، فلا يستطرد . يخشع فى صفات الله : الكبرياء والعزة والقوة والقدرة والجلال واللطف والكرم والعلم المحيط بكل شئ . والتف حوله مريدون وتلاميذ ، والتمس الناس ـ حيث يقيم ، أو يزور ، أو يمشى ـ بركاته ودعواته . عرفوا عنه أنه من أهل المحبة الإلهية ، ومن أصحاب المكاشفات القلبية . وتخرج عليه العديد من المريدين ، فى المجاهدة والخلوة . وظل له احترامه وتوقيره بين الطائفة الشاذلية ..

حقق خوارق ومعجزات وآيات لا حصر لها ، ولا مستحيل أمامها . أضاء نور علمه جنبات الإسكندرية .

اشتهر بمواجيده وأحواله . أفاد بكراماته ومكاشفاته أبناء الطائفة الشاذلية ، فى كل البلاد التى أقاموا بها ..

روى الناس عن قدرته . وقيلت عنه خوارق : كان يصيد السمك دون سنارة ، أو شباك . يمد يده فى الماء . تصعد بالماء والسمك . ينساب الماء من بين أصابعه ، ويبقى السمك . وكان يمد يده فى الهواء ، يلتقط الطعام فيكفى المريدين من الفقراء ويزيد ، تنزل عليه الطيور الكاسرة بأجنحتها ، لا تنفرمنه ولا تهاجمه ، يعرف كلامها وتعرف كلامه . وضايقته الشمس فى زيارة له إلى صديق بصحراء المتراس ، فكوّن الطير سحابة ، ظللته فى سيره ، حتى وصل إلى البيت الذى يقصده ..

كان يغمض عينيه . ينظر بخياله إلى قلبه . وقيل إن الله ــ سبحانه ــ صرفه فى جميع مملكته ، وأطلعه على الكثير من علوم الغيب . لم يخلف إنتاجاً مكتوباً ، لكنه خلّف شهرة واسعة بخلقه وصفاته ..

قيل انه كان يمتلك مسبحة هائلة الحجم ، ينتظم فى عقدها ألف حبة فى حجم البيضة ، صنعت من خشب الصندل ، ذى الرائحة الذكية النفاذة . وقيل انه كان يبول على

الرصاص ، فيستحيل ذهباً ، ويبول على الصفيح ، فيتحول ماساً وأحجاراً كريمة بإذن الله ..

***

كان جالساً فى حلقة الفقراء ، فجاءته يمامة ، وجلست على كتفه ، وأسرت إليه شيئاً فى أذنه ، فقال :

ــ باسم الله ، ونرسل معك أحداً من الفقراء ..

قالت اليمامة :

ــ ما يكفينى إلا أنت ! ..

***

ركب سيدى ياقوت بغلة من الإسكندرية ، وسافر إلى جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ، وقال :

ــ اجمعونى على فلان المؤذن ..

وجاء المؤذن ، فقال له ياقوت العرش :

ــ هذه اليمامة أخبرتنى فى الإسكندرية أنك تذبح فراخها كلما تفرخ فى المنارة ..

قال المؤذن :

ــ صدقت .. قد ذبحتهم مراراً ..

قال ياقوت :

ـــ لا تعد !

قال المؤذن :

ـــ تبت إلى الله تعالى ..

***

أنكر الشيخ شمس الدين بن اللبان على سيدى أحمد البدوى ، فسلب البدوى علمه وحاله ..

توسل الشيخ شمس الدين بجميع الأولياء ، فلم يقبل البدوى شفاعتهم فيه ..

سار ياقوت العرش من الإسكندرية إلى طنطا . رجا البدوى أن يطيب خاطره على شمس الدين ، وأن يرد عليه حاله . فأجابه البدوى ، حباً له ، وإعظاماً لمكانته . زاد ياقوت ، فزوج ابن اللبان ابنته . فلما أحس شمس الدين يدنو الأجل ، أوصى أن يدفن تحت رجلى زوجته ، تقديراً لمكانة أبيها ..

***

لما وضع مؤلف " التنوير فى إسقاط التدبير " كتابه ، وضمنه علوماً ومعارف كثيرة ، اطلع عليه ياقوت العرش ، فقال له :

– جميع ما قلت ، مجموع فى بيتين ، هما :

ما تـــم إلا مـــا أراد فاترك همومك وانطرح

واترك شواغلك التى شغلت بها تستـــــرح

....

....

للتأكد ، تلوت آية الكرسى ، وأسماء الله الحسنى ..

ظل الجسم النحيل فى موضعه ، والشعاع النفاذ ، الهادئ ، ينبعث من العينين الواسعتين ، المكحولتين . وكان يرتدى عباءة من الجوخ الأخضر ، تحتها قفطان مزهر ، به خطوط خضراء ، ويحيط وسطه بحزام أخضر ، وعلى رأسه عمامة هائلة ، ودس قدميه فى بلغة مغربية ..

خنقنى الخوف ، فتلعثمت . رهبة الموقف أضاعت الكلمات . قرأت ــ فى لهوجة ــ الفاتحة ، وقل أعوذ برب الناس ، وقل هو الله أحد . وقرأت آية الكرسى ، وعدية يس ، لكنه ظل فى وقفته ..

أخلى ــ سيدى ــ وجهه لابتسامة رائقة ، طيبة ، وقال :

ــ من تظننى يا جابر ؟

وأنا أغالب الرهبة :

ــ سيدى ياقوت العرش ..

وهو يغرقنى فى فيض ضيائه :

ــ تلاوة القرآن ، للخوف أم للحب ؟..

جاهدت حتى لا يشى صوتى بما أعانيه :

ــ هو الحب يامولاى ..

قال فى ابتسامته الرائقة ، الطيبة :

ــ غفر الله لك ما أملاه عليك خوفك !..

ثم وهو يجرى بأصابعه على حبات المسبحة :

ــ سأكلفك بما لا تقوى نفسى الضعيفة على احتماله ..

همست بالتهيب :

- وكيف أحتمل مالا يقوى عليه سيدى ؟..

روى لى عن اليوم الذى غادر فيه السلطان مرقده . خاطب المترددين على مقامه . عاب الأفعال الخاطئة ، وانتصف للائذين بحضرته . ثم ارتخت شدة الغربال ..

قال وهو يضم أطراف عباءته :

ــ أنا خادم السلطان وتلميذه .. ومن واجبى أن أنفذ أوامره ..

قلت فى لهفة خائفة :

ــ وأنا خادمك يا سيدى .. ومن واجبى أن أنفذ أوامرك..

سبحت نظراته فى آفاق غير مرئية :

ــ لقد أدى كل منا ما عليه .. والدور قادم على الأنفوشى ..

انتزعت السؤال :

ــ ماذا ؟..

حنى رأسه ، ورفعها بالضياء :

ــ بل من .. ولى الله الأنفوشى ..

أخليت السبيل لجرأتى :

ــ هل هناك ولى بهذا الاسم ؟..

فى ابتسامته الطيبة :

ــ لأن أمور ديننا استغرقتنا ، فقد أوكل إليه السلطان أمور دنيا الناس ، فهو أدرى بها ..

استطرد موضحاً :

ــ سيدى السلطان مشغولياته لا تحد فى أمور الدين ، بما يصرفه عن أمور الدنيا ..

ثم وهو يهز رأسه فى تأثر :
ــ هذا حالى ، وأحوال أولياء الحى ..
ودس المسبحة فى جيب العباءة :
ــ اسم ولى الله الأنفوشى ــ كما تعلم ــ على معظم الحى ..
وضغط على الكلمات :
ــ الجأ إلى ولى الله الأنفوشى !
قلت فى لهجة متذللة :
- أنا لا أصلح لهذه المهمة .. وورائى تبعات بيتى وأولادى ..
قال سيدى ياقوت العرش :
- هذا أمر سيدنا المرسى .. ولابد لك منه !
رنوت إليه بنظرة مستغيثة :
- وأين أجد سيدى الأنفوشى ؟..
كان قد اختفى ..
عاد المكان إلى مألوف هدوئه ، وذوى الضوء الباهر الذى غشينى ، وإن ظل يملأ قلبى . واستقر المقام فى وضعه ، كأنه لم يغادره أحد . ثمة الصحن ، والأعمدة ، والمنبر ،

والحصير ، والسجاد ، والعقود المحملة بالجفوت والخناصر والميهات والزخارف الجصية ، والمبخرة يتضوع منها بخور اللبان والجاوى والمستكة ، والأضواء الخافتة ..

عرفت أن سيدى أبلغنى الرسالة ، ومضى . مشغولياته ــ وأولياء الله الصالحين ــ لا تحد فى أمور الدين ، بما يصرفهم ــ غصباً ــ عن أمور الدنيا ..

واجهت السؤال ، فى اللحظة التالية : أين سيدى الأنفوشى ؟..

أقول هذا ، وأختمه ، بالحمد لله رب العالمين ، واستغفر الله العظيم . وسبحان من بيده الأمور ، ومصائر البشر . يحيى ويميت ، ويعز ويذل ، وهو على كل شئ قدير .

الزفـــــاف

دخل حمام الأنفوشى ، للمرة الأولى منذ زواجه . توقع الإيماءات والتلميحات والمعايرة . حشد نفسه ، وقرر الإجابة بما يؤذى . فاجأه ترحيب الجميع وكلماتهم المعجبة . لم يتحدثوا عنها باسمها . هى الست والبيت والجماعة . حتى محمود الخوالقة ، لم يحاول فضح سيرتها ، ولا مجرد ذكر اسمها . الباب المفتوح أغلقه زواجها من سيد . لم يسألها عن أهلها ، ولا حاول أن يتعرف إلى ماضيها . هى التى روت له عن أمها وأبيها وأخوتها وقرية سحالى القريبة من دمنهور . أهداهما صابر الشبلنجى هدية ، أرسلتها له أمه من رشيد . فسيخ وسردين وليمون وبلح زغلول . ضوع عم محجوب داخل الحمام ـــ للتبرك ـــ بخور المستكة ، ورفض تقاضى المقابل فى صابونة لم يسبق استعمالها . وحلق سيد شعر رأسه ، وإن ظلت الخصلة على تهدلها ، وقلّم أظافره ، ونتف تحت الإبطين ، وأزال العانة ..

هتف فؤاد أبو شنب للنبأ :

ـ هل خلت الدنيا من النساء ؟!

قال سيد فى هدوء :

ـ أنسية لا يعيبها شيء ..

تحسس أبو شنب طرف شاربه ، وغمز بعينه :

ـ لكنها مومس !..

داخل صوته تهدج :

ـ لا داعى للغلط يا ريس .. البنت ستصبح زوجتى ..

أطلق ضحكة من أنفه :

ـ بنت ؟!..

وعلا صوته :

ـ ماذا تقول يا مغفل ؟!.. إنها عشيقة كل رجال بحري!

قذفه سيد بمقص ، وتهيأ للعراك ..

قال له قاسم الغرباني :

ـ كان اسمك سيد الفران .. فماذا أسميك الآن ؟

قال سيد :

ـ قل لى يا سيد كما كنت تدعونى ..

قال حمودة هلول :

ـــ فلنسمه سيد الكشك . هذه هى التسمية الأنسب !

قال خميس شعبان :

ـــ هو سيد الفران .. الخبازين أصل الاسكندرية !

فاجأه حمادة بك بحضور عقد القران . تبعه فؤاد أبو شنب . هنأه حمادة بك ، وأعطاه نقوداً ، ووقع شاهداً على العقد . وقّع أبو شنب ـــ بالحرج ـــ شاهداً ثانياً ..

لما مد سيدى ياقوت العرش يده من داخل المقام ، وأخذ العهد عليها ، ونصحها بالذهاب إلى كمال مصباح تاجر المنيفاتورة بشارع الميدان ، همست بالقول :

ـــ حمادة بك أهمل طلب سيدى السلطان .. لماذا لم يعاقبه ؟..

قال سيد :

ـــ ألم يتركك الرجل فى البيت المهجور .. فهل يطالبه السلطان ببيت جديد تتزوجين فيه ؟!..

ثم وهو يغتصب ابتسامة :

ـــ فلنكف على كل ما مضى ماجوراً ، وننساه ..

حين أعد نفسه لترك قهوة كشك إلى بيت البلقطرية ، أشفق رواد ليل القهوة من أن تتم الدخلة بلا فرح . أذن المعلم

كشك ، فسهروا ، ورقصوا ، وغنوا . بيومي جلال يقذف بالطبلة إلى أعلى ، ويتلقفها . صابر الشبلنجى يساعد بالنقر على الطاولة . مصطفى حجازى يغنى ، وهم يرددون :

ياللى على الترعة حود ع المالح

مالح يا مالـــح يا بـــو الموالـــح

شعرى بيوجعنى ..

من إيه ؟..

من مسك امبارح ..

ياللى ع الترعـــة حـــود ع المالح

مالح يامالـــح يابـــــو الموالـــــح

رجلى بتوجعنى ..

من ايه ؟..

من مشى امبارح ..

ياللى على الترعة حـــود ع المالـــح

بقّى بيوجعنى ..

من إيه ؟..

من بوس امبارح ..

ياللى على الترعة حود ع المالـــــح

شارك المعلم كشك بدعابات ، وأوصى سيد بأنسية ، فأظهرت تأثرها وامتنانها . وفاجأ هشام كشك الجميع بحضوره . في يده هدية مغلفة للعروسين . زجر صابر الشبلنجي لما حاول فتحها . قال :

ـ كنت أسبق الكل إلى معرفة زواج سيد وأنسية ..

أضاف لنظرات الدهشة المتسائلة :

ـ رأيتهما يتنزهان على الكورنيش ..

دارت أنسية وجهها براحتها ..

تعدد سيرهما على الكورنيش ، وفي حدائق الشلالات . ألفت الأشجار والنخيل وسحن دائمي التردد وهدير الأمواج المترامي من ناحية البحر وانحدار المياه من مرتفع عال إلى مجرى منخفض . وألفت وابور المياه ومدرسة محمد علي الصناعية والمستشفى الأميري والإستاد والنادي الأولمبي ..

رفت ابتسامة على شفتي هشام :

ـ عرفت يومها أن سيد أفلح في الصيد ..

فاجأ حمادة بك هشام بالسؤال :

ـ هل أنت مقيد في جداول الانتخاب ؟..

ارتعشت رموش هشام بالارتباك :

ـــ لا أعرف !..

قال حمادة بك :

ـــ كيف ؟.. ألم تقيد اسمك ؟..

قال المعلم كشك :

ـــ هشام لم يبلغ العشرين ..

قال حمادة بك :

ـــ من حقه القيد فى جداول الانتخاب ..

أردف بلهجة آمرة :

ـــ يهمنى هشام والشبان من أصدقائه وزملائه ..

تظاهر سيد بالإنصات لنصائح قاسم الغريانى ، وكتم السؤال : هل غابت عنه علاقته القديمة بأنسية ؟ ..

فاجأ نفسه حين فاجأها بالسؤال :

ـــ هل أحببت أحداً من قبل ؟..

إذا كان ماتشعر به نحو سيد هو الحب ، فإنها أحبت سيد . كان يشغل بالها ، وصورته دائماً أمام عينيها . يضايقها غيابه ، وتفرح لقدومه . تشفق للخجل الذى يتملكه وهو يحنى رأسه إلى أسفل ، وهو يزيح خصلة الشعر من جبهته ، وهو يضغط على شفته السفلى بسنتيه الأماميتين .

تسترجع ــ فى جلوسها مع نفسها ــ تصرفاته ، وقفاته وسكناته وكلماته . حتى الملاحظات التى يؤكد بها فحولته ، لم تعد تضايقها ..

وهى تخفض رأسها :

ــ أنا أحبك ..

ــ قبلى .. وغير ..

لجأ إلى يديه ، يحاول التوضيح . ثم سكت ..

احمرت أذناها :

ــ أنا لم أعرف هذا الأمر ..

ودع أصدقاءه قرب الفجر إلى حنطور ، قاده صابر الشبلنجى إلى بيت سيدى داود ..

كانت أنسية تنتظر ..

صعدت وراء الكبود ، وانتقل سيد جوارها ، ومضى الحنطور إلى البلقطرية ..

قال صابر :

ــ لو أن الظروف ساعدتنى .. كنت زينت الحنطور بالشيلان الكشميرى والورود ..

سارت وراء جهازها من العطارين إلى البلقطرية ..

نقل صابر الجهاز على عربة كارو من الإسطبل : سرير وبوريه وصندوق وترابيزة وستة كراسى ومرتبة ولحاف ومخدتين ومرآة فى إطار ووابور بريموس ومطبقية وأربعة حلل وإبريق وطشت وستة أطباق وطبلية وستة أكواب للشاى . لم تهمل حتى كرسى الحمام وصفيحة الماء والكوز والقبقاب . وأهداها التاجر كمال مصباح ثلاث فوط ..

حلمت بحفل كالذى أقامه الحاج قنديل لابنته ، أو الذى أقامه المعلم عباس الخوالقة لمهجة : ليلة الحنة وثوب الزفاف والصهبة والزغاريد وبدرة الملح والعوالم والنقوط والأعمدة الخشبية والرايات الحمراء ذات الهلال واللمبات الكهربائية الملونة ..

البيت من ثلاثة طوابق . أسقفه خشبية ، وجدرانه متآكلة ، وإن بدا سكانه في حالهم ، فلا زعيق ولا نداءات ، والنوافذ مواربة ، أو مغلقة . الشقة فى الطابق الأرضى ، إلى يسار السلم ، تطل على الشارع من نافذة عالية ، ذات ضلفتين ..

أصرّ أن يحملها بين ذراعيه ، ويتخطّى بها عتّبة الشقة..

ــ ماذا يقول صاحبك .. والجيران ؟..

اهتز جسمه بالانفعال :

ــ طظ فى الكل !.. أنت الآن زوجتى بالورقة والقلم!..

لم تطل تأمل معنى العبارة . قالت :

ــ هذا تصرّف العرسان للتغلب على سحر يوضع فى عتبة الباب ..

وتنهدت :

ــ من يفكر فى السحر لنا ؟!..

احتواها بعينيه :

ــ أنت سحرتنى .. وسأحملك لأقضى على سحرك !..

شغله السؤال ، وإن كتمه ، حتى طردت أنسية القلق من نفسه :

ــ أصحابك طيبون ..

ثم وهى تضغط على الكلمات :

ــ هذه أول مرة أراهم ..

قال فى صوته المتهلل :

ـ إنهم زملاء القهوة ..

استطرد متذكراً :

ـ صابر الشبلنجي وحده يعمل في إسطبل السبالة ..

قالت :

ـ لم آخذ بالي منه ..

وهزت رأسها :

ـ أرى أنهم جميعا طيبون .

النـــــوة

سحب الجد السخاوى كرسياً ، وجلس فى مواجهة الشمس . كان يتحرك بكرسيه مع أشعة الشمس ، لايتركه إلاّ بعد أن تمتد الظلال ..

أخرج من جيب الصديرى علبة سجائر . سحب منها سيجارتين ، قدم واحدة إلى شحاتة سليط ، ووضع الأخرى بين شفتيه . حك عود الكبريت فى القداحة ، ودارى عليه حتى أشعل سيجارة شحاتة سليط ، ثم أشعل سيجارته ، ونفض المتبقى من عود الكبريت حتى انطفأ ، ثم طوح به..

قال محيى قبطان :

ــ الشمس حامية ..

قال فى تهوين وثقة :

ــ إنها تنشط الدورة الدموية ، وتغذى الأعصاب ، وتحيى الأنسجة ..

استطرد وهو يهز إصبعه :

ـ شريطة أن تتجنب حرارتها الزائدة ..

ثم وهو يعتدل في مواجهة محيي قبطان :

ـ الشمس تفيد في أمراض الكبد والضغط المرتفع والقلب وتصلب الشرايين .. والمشى حافياً على الرمال الساخنة ، علاج للأعصاب والصداع ..

شكا شحاتة سليط إلى الجد السخاوى من آلام في الرأس ، بعد أن غاص إلى عمق أربعة أمتار ..

قال الجد السخاوى :

ـ أنت تعانى نزلة برد .. أو أن أسنانك تتطلب حشواً..

قال شحاتة سليط :

ـ اللؤلؤة التى أثنيت عليها .. ذهب لمعانها ..

صرخ الجد السخاوى :

ـ غبى !.. دائماً توقد نارك في الناحية البحرية ..

ثم وهو يعيد إليه اللؤلؤة :

ـ اللؤلؤ يغسل بالماء فقط ، ثم يلمع بقطعة جلد ناعمة..

بحلقت عيناه :

ـ تقصد أنى أتلفت اللؤلؤة ..

ـ طبعاً ..

قال شحاتة سليط :

ـ وهذه ؟..

وأخرج من جيب السيالة لؤلؤة فى حجم البيضة الصغيرة ..

قربها الجد السخاوى من عينيه :

ـ ينقصها الاستدارة ، ومليئة بالبقع اللونية والحفر ..

ـ لكنها عالية الشفافية ..

وهو يعيدها إلى الطاولة :

ـ اللؤلؤة الجيدة شفافيتها قليلة ..

قال شحاتة سليط فى أسف :

ـ هل أعيدها إلى البحر ؟..

قال الجد السخاوى :

ـ بل اطلب فيها سعراً مناسباً ..

سأل عم محجوب فى دهشة :

ـ تطلب سلفة فى عز الصيف ؟!

قال محيى قبطان :

ـــ أصر الخوالقة وقنديل وكل المعلمين على أن ندفع ما اقترضناه فى الشتاء ..

هز عم محجوب رأسه :

ـــ هذا حقهم .. ادفعوا مبلغاً من السلفة فى كل طلعة ..

قال محيى قبطان :

ـــ إنهم يأخذون الإيراد بعد كل رحلة .. يريدون الكراسة بيضاء ، دون أن يشغلهم تأثير ذلك على بيوتنا ..

اتجه الجد السخاوى إلى خميس شعبان بنظرة مشفقة :

ـــ لا تحزن يا خميس .. لو أنك فتشت وراء هؤلاء الغجر ، فستجد فى بيت كل منهم فضيحة !

روى ما حدث لقاسم الغريانى ، وطالبه بألا يفشيه .. لكن الغريانى فاجأه ـــ وفاجأ الجالسين ـــ بإعادة الحكى . أضاف ألواناً وظلالاً وتفصيلات . اشتكى للحاج محمد صيرة من سرعة القذف . هل هى الشيخوخة ؟.. طمأنه الحاج محمد . أعد له دهاناً يستعمله قبل النوم . تثاءبت المرأة ، فأسرع إلى الحمام . طال قعود المرأة . دعاها إلى النوم . اعتذرت بانشغالها فى رفو ملابس الأولاد . لزم مكانه ، يعانى فلا يستطيع التكتم . يتكلم ، ويتقلقل ، ويحاول المداراة

. طلب من المرأة شاياً . دخلت المطبخ ، فارتفع صوته ، يطلب الشاى فى حجرة النوم ..

قال حمودة هلول :

ــ ما أبدع العادة السرية لشيخ فى الستين !

قال محيى قبطان :

ــ هل أفادك علاج الحاج محمد ؟

قال خميس شعبان :

ــ لست مريضا لأعالج ..

قال محيى قبطان :

ــ لماذا الدهان إذن ؟

قال الغريانى :

ــ هددته المرأة ، فخشى الفضيحة !

وشى صوت إسماعيل سعفان بالضيق :

ــ وطّوا أصواتكم !

تغيرت طباعه منذ موت وحيده البهاء . دخل الغميق فى الأنفوشى ، فغرق ، اجتذبته الأمواج . غيبت جسمه وصرخاته . ظهرت الجثة تحت قلعة قايتباى . دفعتها الأمواج أسفل الكتلة الخرسانية ، منتفخة ، مشوهة ، نهش

فيها السمك . يعانى ــ من يومها ــ مطاردة الضوضاء . ضوضاء هائلة ، عنيفة . زعيق وصراخ وشتائم . أسوأها الميكروفونات التى لا يدرى مصدرها . تحاصره فى كل مكان : فى الطريق ، فى بئر السلم ، فى حجرة النوم ، فى دورة المياه . ينتفض لها ، يتألم ، يتكور على نفسه . يصر على أسنانه ، فلا يتعالى الأنين ..

هؤلاء الذين لا يعرفهم ، يتآمرون عليه ، يحاصرونه ، يخنقونه بصراخهم وزعيقهم وصخبهم الذى لا ينتهى ..

نذر للمرسى أبو العباس إن رزق بولد ، بعد عقم خمسة عشر عاما . ألف التردد على مقام السلطان بعد أن حقق له المدد . يقرأ الفاتحة ، ويوزع الفول النابت ، وشطائر اللحم ..

لما ابتلع الهدم زوجته بسقوط البيت ، ترك الفدادين الستة فى عهدة شقيقه الأصغر . وسافر إلى الإسكندرية ، ليحيا بالقرب من أولياء الله ..

إختطف البحر وحيده البهاء ، فعزاه الناس بمصاب المؤمن ..

أكد محمد على الراكشى أنه رأى عروس البحر تختطف الصغير لتجعله ابناً لها فى مدائن الأعماق . كان محمد يسبح بالقرب منه . وكانا يعبثان ، ويضحكان ، ويصرخان فى نشوة ، عندما أتت الموجة ، فأبعدت بينهما . غطس البهاء ، وقب ، وغطس ، وقب ، وصرخ ، واستغاث بيديه . اجتذبته من داخل الموجة يد امرأة ، تيقن محمد أنها عروس البحر . أطلق البهاء ثلاث صرخات ، وصخب الموج من حوله . ثم اتسعت الدوائر الضيقة ، حتى اختفت . وهدأ الموج ، وحل الصمت . كأن الموج علا ليبتلع الولد ، لتنفذ يد عروس البحر من داخله فتأخذه إلى دنيا الأعماق .

هل هى عروس البحر كما قال محمد الراكشى ؟ اختطفت الولد كما اختطفت سواه من قبل . أو أن ساعديه خذلاه ؟ أو دفعه ولد من أصدقائه ؟.. أو أن الأقدار ابتلته بما لم يقو على رده ؟..

قيل إن الرجل عدل عما اعتزمه من أمر خطير حين ظهر له السلطان فى المقام ، وأخبره أن الله أخذ الولد ليمتحن صبره ، وبشر الصابرين ..

حل على الرجل ــ من يومها ــ هدوء وسكينة . يقضى يومه فى التنقل بين أضرحة الأولياء ، والجلوس على قهوة الزردونى ــ يخفض الجرسون ياقوت صوت الراديو عند اقترابه من القهوة . يتوقع ضيقه من ارتفاع الصوت ــ والخلو إلى المصحف ودلائل الخيرات ، فى شقته الصغيرة ــ حجرة واحدة وصالة ــ المطلة على شارع سيدى كظمان . وكان يحب المشى لمسافات طويلة ، وتناول الشاى بكثرة ، وسماع تلاوة الشيخ محمد رفعت ، والجلوس على سور الكورنيش ، يتأمل ما لايراه أحد . حتى ظروف غرق البهاء لم يعد يشير إليها ، ولا إلى حزنه على الولد ، وإن تيقظ فى داخله قلق للأصوات المرتفعة . تصاعدت ، وتلاحقت ، حتى حاصرته تماماً . وكان يشغله السؤال : لماذا تعلو أصوات العصافير فى الصباح الباكر ، وعند الغروب ؟ لماذا تصخب فى هذه الأوقات بصورة لافتة ؟.. وصدمه مولد أبو العباس ــ فى اقترابه من ميدان المساجد ــ بتضخم الأصوات ، فعاد إلى السيالة ..

كان يجلس على سور الكورنيش ، أو على هيكل فلوكة قديمة . يتطلع إلى الأفق ، كمن يتوقع شيئاً . لا يتكلم عن

ترقب عودة الولد ، ولا ما إذ كان مات ميتة ربه ، أم أن عروس البحر اختطفته بالفعل . إذا سمع تحية ، رد بهزة من رأسه ، وعيناه تتجهان إلى الأفق . يسلم نفسه لشرود حزين . وينصرف تماماً عن كل ما حوله ..

همس محبى قيطان :

ــ الرجل معذور فالولد وحيده ..

قال عباس الخوالقة :

ــ من كان يتصور أن يترك عبد الرحمن الصاوى الإسكندرية ليقيم فى القاهرة مع أبنائه ؟!..

تعددت زيارات سلامة فى الأشهر الأخيرة . يئس من إقناعه بالذهاب إلى القاهرة ، فانقطعت زياراته . تردد بالشيخوخة والقرف وتوالى الأيام ، وعدم رغبته فى فتح جراح جديدة ، فى الذهاب إلى القاهرة . ترك للأيام فرصة إنهاء كل شئ ، ثم فاجأ الجميع باعتزامه تصفية عمله ، والسفر إلى القاهرة . ملأ السلطان حجرة نومه . لاحظ خوفه ، فقال فى صوته الهادئ :

ــ إنما أتيت للنصيحة ..

ثم وهو يهز إصبعه :

ـــ لا يكفى أن يرضى المرء نفسه .. عليه أن يرضى الآخرين ..

ثم وهو يذوب فى الجدار :

ـــ جريمتك قديمة ، وتصر على الفرار منها !

تباعدت أوقات جلسة العصر . توالى الغياب والاعتذارات . ووجد الحاج محمد صبرة نفسه ـــ ذات أصيل ـــ بلا جليس يحادثه ..

قال ياقوت وهو ينثر نشارة الخشب فى أرضية القهوة :

ـــ أهلاً بالبطل الصغير !

كان قد نسى الصفة . لم يعد أحد يناديه بها . عاش أياماً من الاهتمام والإكبار . فى القهوة ، وفى الحلقة ، وفى المدرسة . حتى نظرات أبيه ، كان يفجؤها وهى تتسلل ناحيته بالإعجاب الصامت . أم محمود ـــ وحدها ـــ اعتبرت ما حدث مصيبة ، ودعت على الملك والحكومة ، وعلى مصطفى لأنه كاد يحرق قلبها ..

نسبت إليه أفعال كثيرة ..

قيل إنه أشعل النار فى سيارة بوليس ، فاضطر من بداخلها إلى الفرار . وقيل إنه تصدى لضابط أراد أن يضرب

بنتاً ، لم يتركه حتى أعلن أنه امرأة . وقيل إنه أعاد القنابل المسيلة للدموع ، فآذت العساكر ، واضطرتهم للفرار ..

ثم نسوا ما حدث ، وانشغلوا بشئونهم ..

شارك ـ بالإنصات ـ فى أحاديث عن الإضرابات والمظاهرات التى لم تشهدها الإسكندرية من قبل . انضم إليها ضباط بوليس وكونستبلات وصولات وجنود . كانوا يواجهون مظاهرات الطلبة والعمال .. من يواجههم ؟ .. حتى الضابط نبيل قرة مدير نقطة الأنفوشى ، تغيب منذ يومين عن مكتبه ، وإن أكد عبد الوهاب مرزوق إن الجيش سينزل إلى الشوارع غداً لفرض النظام ..

قال محيى قبطان :

ـ حتى العساكر خرجوا مع الضباط فى مظاهراتهم ..

قال الغريانى :

ـ إذا جاء الخير .. فسيجنى ثماره الجميع !

قال الجد السخاوى :

ـ ماذا جرى للبلد ؟.. الإضرابات والمظاهرات تتوالى . حتى ضباط البوليس أضربوا ..

قال الغريانى :

ـ ما يعنينا إلاّ أن يضرب السمك عن الدخول فى الشباك !

المجاهدة

قال أبو الحسن الشاذلى : "من آداب مجالسة الصديقين ، أن تفارق ما تعلم ، لتظفر بالسر المكنون "..

***

" إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان . وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ، ومجانبة الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيها ؟"..

***

" وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله ، ومن الله ، فصاحبها مستدرج مغرور ، أو ناقص أو هالك أو مثبور "..

سبقه جابر برغوث إلى المخزن الصغير الملاصق لحجرة الإمام . اطمأناّ إلى جلستهما بين السجاجيد والحصير والمقشات وأسلاك الكهرباء وزيوت الإضاءة والشموع والبخور والصناديق والكتب القديمة . مال الراكشى إلى جابر

برغوت . استهوته صحبته ، أنصت إلى آرائه ، وتأملها . استولى على قلبه بالمحبة . شعر أنه يعلم من علوم الدين والتصوف أكثر مما يعلمه الشيخ يوسف بدوى . هو الآن أرقى حالاً من الشيخ الذى كان يتعلم منه . وشعر بالروحانية فى نفسه ، والربانية فى روحه ..

قال على الراكشى :

ــ الشيخ أمين عزب زعلان منى ..

ــ لماذا ؟..

ــ يتصور أنى أمشى فى طريق الشيخ حماد ...

غلبه التأثر حين طارده الأولاد فى شارع إسماعيل صبرى ، فلاذ بمجيرة عم سعد . اختبأ وراء الكشك الصفيح المطل على سيدى على تمراز ، حتى طرد عم سعد الأولاد..

قال جابر برغوت :

ــ وهل تفعل ذلك ؟..

التمعت عيناه بحيرة :

ــ أنا لا أعرف الشيخ حماد ؟..

واعتدل فى جلسته :

ــ يقولون إنه رجل صالح ..

أمن جابر برغوث بهزّة من رأسه :

ــ هذا صحيح .. وأنت رجل صالح .. سر فى طريقك ولا تلق بالاً لأحد ..

تشاغل على الراكشى بتأمل القبة الضخمة ــ من انفراجة الباب ــ تتوسط صحن الجامع ، تحيط بها نوافذ زجاجية ينداح منها الضوء إلى الداخل ، ويشكل تكوينات وظلال على الأرض والجدران ..

هذا هو المكان الوحيد الذى يجلس فيه إلى من ألقى حبه فى قلبه ، يحاوره ، يأخذ ويعطى ، يسأل ويجيب . يدرك فى مجلس جابر برغوث معنى القول إن الصوفى لا يتنفس إلاّ بين أخوان . هذا الرجل أخوه . هو الأقرب إليه لأنه يفهمه ، لا يضايقه ولا يزجره ولا يثور عليه . دنياه القرآن والدعوات والابتهالات والأذان والبخور والخدمة فى الجامع . تيقن من آثار ربه في قلبه ، فاعتزل الناس ، ولزم الجامع لا يفارقه إلاّ لضرورة ..

فاض المكان بالصمت ، صمت سادر ، جياش بالصفاء والسكينة ..

ــ ما أخبار الشيخ يوسف بدوى ؟..

أحنى رأسه :

ـــ لم أعد مريداً ..

ثم بصوت ممتلئ :

ـــ كل ما يعلمه .. أعلمه ..

كثرت طاعاته ، وكثر إخلاصه . أخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الناس . رآهم من حوله بعين النقص . انقطع إلى الله من البشر . ولى وجهه نحوه فلم يتحول عنه . صار معه بلا علاقة . صفى نفسه من كل ما هو فان ، متناه ، محدود . فنى عن آفات الدنيا ، فلم يرجع إليها . لم يعد يشتغل بغير الذات الإلهية ، فتحققت ـــ فى داخله ـــ الولاية . سلك فى مدارج العارفين إلى حيث بلغ مرتبة العرفان ، وانكشفت له الحجب ، وشهد من علم الله ما يشهده غيره . عرف السر وأخفى . بحره يغوص إلى حيث لا أعماق ، وتمتد آفاقه إلى حيث لانهاية ، وثمة أصوات خفية تنبعث من داخله ، تدعوه إلى السمو والارتقاء فوق الحجة والرغبات ، والتحليق فى آفاق الطير بلا أجنحة ..

عظمت الأحوال ، وعلت المقامات : تفتح أبواب السماء ، وتسطع الأنوار ، وتبين الملائكة عن صورها ، وتتألق

مشاهد الجنة بدورها وقصورها وحورها وأنهارها وأشجارها وثمارها ومنازل الأنبياء والأولياء والشهداء والصديقين . يسير فى الملكوت ، ويمضى فى الطريق إلى الغاية القريبة : ينكشف له الأمر ، ويتعرف إلى الأحوال الرفيعة ، وتجليات الذات والصفات . يتخفف من الأحمال السيئة ، ويرقى فى مقامات النور . يغنى فى كون اللاهوت ، وينهل من التوحيد والحقائق ، ويفيض على صدره النور ، ويتصرف فى الأطوار القلبية ، وتتوالى فيوض التجلى ، لا يتخللها ستر ولا انقطاع ..

ــ قوّى الله إيمانك ..

بدا عليه التردد ..

قال الراكشى :

ــ هل هناك ما تريد أن تكلمنى فيه ؟..

وهو يغمض عينيه :

ــ لا تشغل بالك ..

اتجه إليه بنظرة اهتمام :

ــ نحن أصدقاء ..

ربت ركبته بأصابعه :

ـــ نعم الصديق أنت .. وأنت كذلك شيخ مبارك ..

ثم بصوت هامس :

ـــ الحكاية يا أخى على أن سيدى ياقوت العرش ..

داخل التهدج صوته ، واختلطت الصور ، وتشابكت ، وشحبت ، وتشكلت تكوينات ، وغاب الزمان والمكان ، وتواصلت لحظات السكينة والصفاء ، واندلحت حزم الضوء من النافذة العلوية ، وحلقت فى صحن الجامع عصافير وحمائم ، وتضوع المكان ببخور لم يشم أريجه من قبل ، وسرت تلاوات من القرآن وقصائد صوفية وموسيقا جميلة ، وأصوات تسبّح بلغات كثيرة ، متداخلة ، وتناغمت التكبيرات والأذكار والابتهالات ، وارتفع الأذان فى غير موعد ، واهتزت البيارق ، ورفرفت البنود والأعلام الخضر ، وتطوح الذاكرون فى طاقات النور ، وانفتح باب الخوارق عن فيوض لا نهاية لها ، وتلاحق مد البحر وجزره ، فى إيقاع منغّم ، وتعالى هسيس النخيل على شاطئ الكورنيش ، واستطال المحيط الأخضر ، فلا يحده أفق ..

قال الراكشى :

ـــ ولكن من هو سيدنا الأنفوشى ؟..

التمعت عيناه بحيرة :

ــ اختفى سيدى ياقوت العرش دون أن أعرف من هو ولا مكانه ..

قال الراكشى :

ــ وكيف ستتصرف ؟..

وعلا صوته فجأة :

ــ أقم مولداً للإمام الأنفوشى ..

ــ من ؟..

أعاد قوله :

ــ أقم مولداً للإمام الأنفوشى

وهو يغالب حيرته :

ــ أنا لا أعرف من هو .. مضى سيدى ياقوت العرش .. غاب عن المكان فلم أعرف إلاّ أن سيدى الأنفوشى أحد تلاميذه ..

اطمأن إلى أن سيدى الأنفوشى ليس فى مرتبة الأقطاب . لا يرقى إلى مرتبة الشاذلى وأبو العباس وياقوت العرش والبوصيرى والأقطاب الصالحين ، لم يعد لديهم الوقت الذى ينفقونه فى أمور الحياة الدنيا . الحياة الآخرة شاغلهم .

فوضوا أمر الناس ومشكلاتهم الدنيوية إلى سيدى الأنفوشى . ولى له كراماته ، وإن لم يحقق من المكاشفات ما يجعل له مكانة الأقطاب . هوالمريد والتابع والتلميذ الذى ينفذ الأوامر ..

لم يكن قد التقى بسيدى الأنفوشى ، ولا ظهر له فى صحو أو منام ، لكن طيف سيدى ياقوت العرش ظل ماثلاً أمامه ، وإن غابت عنه رؤيته منذ ظهر له فى صحن الجامع . يشعر أنه يصبّره ويدفعه إلى المواصلة . لولا هذا الشعور الذى تملكه ، ما استطاع أن يظل على أمله فى أن يلتقى بسيدى الأنفوشى ، يراه ، وينصت إلى نصائحه وتعاليمه ..

عرف أن عليه أن يجاهد نفسه وأهواءه وميوله ، حتى يرضى عنه أولياء الله الصالحون . مشوار الراكشى طويل ، لا يقاس به قراءاته القليلة ، وإنصاته المتعجل لخطب الجمعة ودروس المغرب ، والأحاديث التى تدور فى الجامع . أكثر الراكشى من الطاعات والإخلاص ، فبلغ مرتبة من الورع لا يبلغها سوى العارفين الواجدين ، المبتعدين كلية عن مشاغل الدنيا وهمومها ، فهم قد تنبهوا وانشغلوا بالله وحده . اقترب الراكشى من الحضرة الإلهية . حصلت الولاية ، وبلغ مرتبة

العرفان . انكشفت له الحجب ، وشهد من علم الله ما لا يشهد سواه . ظل هو مريداً يرغب فى القربى . تبدلت ـ من زمن ـ صورة علاقتهما . ينصت ، فتفيض الأقوال والرؤى . اعتبر من تشريف الراكشى له ، عندما اقتنع بالذهاب معه إلى حمام الأنفوشى ، وترك له جسمه . ينال بركة تحميمه بيديه . لو أنه أعلن الولاية ، ما تردد فى أخذ الطريق عليه . عاش بالأمل ، وتمنى وصول النفس إلى القرب والحب والإخلاص ، والائتناس بنور الرحمة الإلهية . اجتهد فى قطع الأمل . مال إلى العزلة ، واستعد للرحلة . أولياء الحى نجوم الهدى ، يضيئون له طريقه . أزال صدأ القلب بدوام الخلوة والصوم والطهارة ونفى الخاطر والربط . شفت البصيرة ، ونشطت مداركها إلى مصادر استقبال فيوضات النور الإلهى ، وما تنزله الملائكة من الغيب بالهداية والنور ..

قال جابر برغوت فى تنبه :

ـ أسأل نفسي الآن : هل يجب أن أتوقف عن عمل الأحجبة وفك السحر ؟..

قال الراكشى :

ــ لماذا ؟.. أنت لا تؤذى أحداً ..

ضايقه ما تناقله الناس من أنه قد خاوى جنية ، تتيح له معرفة الغيب ، وقراءة الطالع وشفاء الأمراض ، وإخراج الجن من العين والأنف وإصبع القدم ..

اكتفى ــ فى الفترة الأخيرة ــ بترديد ما حفظه من كتب السحر : آيات القرآن والأحاديث النبوية والرقى والتعاويذ ، لا يجاوزها إلى استخدام أحشاء الطيور ، أو أقدامها ، ولا الكتابة المؤذية ..

عندما طلبت منه هنية زوجة خميس شعبان أن يضع لها عملاً تضعه تحت وسادة ضرتها ، أو عند عتبة بيتها ، نفض رأسه فى غضب . قال إنه يضع الأحجبة للخير ، ويرفض المكر السيئ ..

وهو يغالب قلق واضح :

ــ ربما لا يرضى ما أفعله سيدى ياقوت ..

أعاد الراكشى القول :

ــ أنت لا تؤذى أحداً ..

بدا هادئاً ، ساكناً ، على غير الصورة التى اعتاد الناس رؤيته فيها . يحسن الإنصات ، وتقصد كلماته المعنى ،

وتغيب الجذبة فى حركاته وتصرفاته . كان يفعل ما يفعله عفو الخاطر ، ودون قصد . تنتابه حالة الوجد . تدفعه إلى حالة الفناء ، يحدوه الحنين والشوق والمحبة والطيران ، وينغمس فى بحر التعبد . يبدو غريباً بين من لا يفهمون معانى كلماته ، وما يحياه . إيماءات تقبض عليه بأحوال السكر والفقد والفناء ، يشطح بمال ايتبينه هو نفسه ، ويستنكره الناس . ما يفعله لا يفهمه من تغيب عنه المشاركة فى الأذواق والمواجد . ثم يعود إلى حالة الصحو ، يصبح سوياً بعد الجذب ، يعى ويدرك ، ويتنبه . يصر الناس على رؤية الجذب حالة دائمة . لم تكن تثيره حتى مضايقات الأولاد له ..

ماذا يعرف أهل الظاهر والرسوم من أحوال أرباب الحقائق وأهل الباطن ؟..

آثر الصمت ، وانصرف إلى أحواله ومواجيده ، فنى عن نفسه ، وعن دعوة الخلق له ، سكن إلى الله ، وفر من الناس ، يخضع للعلم الذى لا يتبدل ولا يتغير ولا يخطئ ، يحيا فى قلب الحب والتسامح والصبر . يعنيه أن يخرج من الدنيا مثلما دخل فيها : طاهراً من الذنوب ، نقياً من الشبهات

، فيظفر بقرب الحبيب . لا يأذن لأى قول أو تصرف ، أن يصرفه عن الحياة التى أرادها . صفّى نفسه من كل ما هو فان متناه محدود ، فهى لا تنشغل بغير الذات الإلهية . مضى إلى الأنس وروح الفؤاد والرجاء والمؤنس . ارتقت النفس إلى المعارج القدسية ، فى رحاب مسيرة الأيام ، وتقلب آيتى الليل والنهار . أنس بالأنوار . تراءت له كشمس مبهرة بالضياء . واطمأن إلى نهاية الوصول والارتقاء : المنن والفطن ، العلم والحكمة ، النعم والفضل . تنجذب القلوب له ، بالمحبة والقول . لا يشق عليه — بالفيوضات الإلهية — أن يحيط بالسماء والأرض ، النهار والليل ، الجبال والأودية ، المياه والنهار . يعلم مالا يعلم الناس ، ويقول ما يغيب عن الناس . يفهم أسرار الجماد ، ويعرف ما فى باطن الأرض وقاع البحر من خيرات . يختفى أمام الناس فلا يراه أحد ..

زنقة الستـــات

لسنا نذكر متى تنبهنا إلى البيت ، ولا إلى الحكايات التى تروى عنه . كنا نتهامس بحكايات العفاريت والأرواح الشريرة ، والأولاد الذين فتح الباب ، واجتذبتهم يد إلى الداخل ، ثم أغلقت الباب ..

قال محمد على الراكشى :

ــ عرفت أن هذا البيت يسكنه عفاريت ..

قال عادل عبد الوهاب مرزوق :

ــ من قال لك ؟

قال محمد :

ــ سمعت أمى تكلم جارة الطابق الأرضى ..

شطحنا فى تصور العفاريت : ما شكلها ؟ .. كيف تحيا ؟.. ماذا تفعل إن وجدت أحداً فى طريقها ؟..

قال محمد :

ــ تأكله !

قال عادل :

ــ كذب !.. إنها تسخط الإنسان فيصبح مثلها !..

تأمل مصطفى عباس الخوالقة نفسه ، وهمس :

ــ هل أصبح عفريتاً ؟!

كانت أجسامنا تتقارب ، ونهمل ارتعاشاتها ، ونحن ننصت إلى حكايات عم محجوب عن أفعال الجان فى البشر ..

أصبحنا نخاف الوقوف ــ منفردين ــ أمام باب البيت . نتخيل ما يضمه من عفاريت وجان ومخلوقات تنتمى إلى عالم غير عالمنا . كل منا يعيد ما سمعه على الآخرين ، فيزداد خوفنا مما بداخل البيت ، وإن لم نتردد فى شتم أنسية ، حين أطلت من الباب الموارب ، وامتدت أيدينا إلى قطع الحجارة ، قذفناها بها ، حتى أغلقت الباب ..

كنا نقضى أوقات الفسح حول المقام الذى يتوسط واجهة مدرسة البوصيرى . لم نعد نثير الأسئلة حول الشيخ صاحب المقام : هل هو سيدى البوصيرى ، وأن المدرسة ــ كما قال عادل ــ بنيت على قبره .. أو هو ــ كما قال عم جابر برغوت ــ سيدى الأنفوشى ، أصل الإسكندرية ، وأسبق أولياء الله فى تعطير بحرى ببركاته .. أو هو ولى مقطوع

نذره ، فلا أحد يدرى اسمه ، ولا طريقته ، ولا بركاته ومكاشفاته ، فلا يقام له مولد ، ولا يطلب شفاعته مريدون وزائرون . كررنا الأسئلة والأجوبة ، فلم تعد تثيرنا أو تشغلنا . نتكئ بمرافقنا على المقام ، ذى القماش الأخضر الباهت . نحدد مواعيد لقاءاتنا بعد العودة إلى البيوت ..

نلعب ـ حتى العصر ـ أبونا ضربونا ، البحر المالح ، القط والفار ، عسكر وحرامية ، كيكا ع العالى ، يا عم يا جمال ، برلا برلا ، المساكة ، ونلعب البلى والدوم والطيارات الورقية وأولها إسكندرانى ، ونلعب الكرة فى الساحة المجاورة لحلقة السمك ، ونتردد على حمام البلدية ، ونتسلى بمراقبة الصيادين فى الميناء الشرقية . وننصب الفخاخ ، وشكل للبيع . وكان مصطفى الخوالقة يجيد تقليد أصوات الحيوان والطير ، وحركات وطريقة كلام آبائنا ، والمعروفين فى السيالة ..

نهمل التحذيرات ، والأوامر ، وعبارات التهديد والشتم . نخترق الشوارع الضيقة إلى شاطئ الأنفوشى ، نجمع القواقع والأصداف . تغوص أقدامنا الحافية فى الرمال . نبنى البيوت ، ونهلل حين يجرفها المد . نحفر حتى تظهر زغاوى

الماء المالح . نلعب نطة الإنجليز . ننزع ملابسنا ، ونجرى نحو البحر ، لا نتوقف إلاّ عندما تلامس الأمواج رءوسنا . تطول قعداتنا فى ظل هياكل المراكب . نطارد طيور النورس ، أو السمان . مسافات قصيرة ، ثم يحل بنا التعب ، فنتوقف ..

إذا مالت الشمس فى الأفق ، أسرعنا بترك الشاطئ ، فلا تفاجئنا ــ أو أحدنا ــ عروس البحر . تطلع من داخل الماء . تمارس عادتها فى اصطحاب الرجال إلى الأعماق التى لا عودة منها . رويت حكايات عن الذين اجتذبتهم العروس إلى قاع البحر ، فلم يعودوا : البهاء إسماعيل سعفان ، وسباعى سويلم ، وحودة التيتى ، والمليجى عطية ، وجمعة العدوى . اجتذبتهم عروس البحر ، فلم يعودوا أبداً . وقال مصطفى الخوالقة إنه رأى عروس البحر تمشى على سور الكورنيش ، تقفز فوق السور ، رأسها لامرأة ، وذيلها لسمكة ..

نتجه ــ قبل أذان المغرب ــ فى أيام كثيرة ، إلى سوق الخيط ..

يمسح مصطفى بوز حذائه بأصابعه ، ويسبقنا :

ــ تعالوا نحب ا ..

نتبعه ..

فى أعماقنا مشاعر يصعب تحديدها . تدفعنا الرغبة فى ملامسة البنات . نهمل تصور ما يلى الاحتكاك بالذراع أو الساعد . حين امتدت أصابع مصطفى إلى ثدى بنت ، لم نصدقه فى البداية ، ثم توالت الأسئلة ، ترافقها ، وتلاحقها ، صور غير واضحة الملامح ، وإن تيقنا من جمالها المؤكد ..

نحاذر السير أمام زاوية خطاب . نهاب الشيخ أمين عزب . لا يرتدى الجبة والكاكولا والعمامة ، لكنه يؤم المصلين فى الزاوية ، ويلقى الدروس ، ويلجأ إليه الناس لحل مشكلاتهم . إذا مر بنا فى طريقه بين البيت والزاوية ، وكنا جلوساً ، وقفنا . وإذا كنا نلعب ، توقفنا عن اللعب . وإذا كنا نتحدث ، خفتت أصواتنا . له مهابة تفوق ما عند إمام أبو العباس ، أو عند آبائنا . لم ينظر إلينا بغضب ، ولا عاب علينا تصرف ، ولا شخط ، أو نطر . يمضى فى طريقه ، لا يلتفت ، لكن الحكايات التى استمعنا إليها ، رسمت له فى أذهاننا صورة نهابها ..

نخترق الحوارى والأزقة إلى الحجارى ، ومنه إلى شارع رأس التين ، فشارع فرنسا . بعد مسجد ترانديل نميل يساراً إلى سوق الترك . تأخذنا روائح العطارة : الفلفل الأسود والشطة والحبهان والشبح والفلفل الأحمر . تتآلف الروائح ، فتصنع مزيجاً ثابتاً لا يتغير . تتعالى ضربات الدقاقين ..

نخترق أسواقاً تالية ، صغيرة : العقادين والخراطين والصيارفة والمغاربة ، حتى نصل إلى سوق الخيط . الدكاكين الصغيرة ، المتلاصقة ، والممر الضيق ، والأسقف الخشبية ، اقتربت فكادت تتماس . تحمى المارة وأهل السوق من حرارة الشمس والأمطار ، وإن أذنت بدخول الضوء ..

البنات يمشين ، أو يتوقفن ، فلا تأذن المسافة إلا بأن يحتك الكل فى الكل .

نمضى فى السوق إلى أوله وآخره ، ونعود . لا يشغلنا النظر إلى ما بداخل الدكاكين ، ولا إلى ما فى الممر نفسه ، ولا إن كانت البنت التى نحتك بها سمينة أو نحيفة ، صغيرة أو كبيرة . مجرد أن نحتك أجسامنا بالأجسام الواقفة والماشية . يتباهى كل منا ــ فى طريق العودة إلى السيالة ــ بما

حققته الأجسام التى احتك بها ــ فى نفسه ــ من نشوة . ربما لمس كوع أحدنا نهداً منتصباً لفتاة ، تشتم أو تصرخ أو تتأوه ، أو يدفعها الحياء للإسراع فى خطواتها . إذا لامه تاجر ، أو عابر سبيل ، فإن الزحام وضيق المكان عذر من السهل تأكيده .. وحلف لنا مصطفى الخوالقة ــ مرة ــ أن ساعده العارى احتك بالثدى العارى لفتاة . لا يدرى كيف فز الثدى ، ولا كيف حدث ما حدث ، لكنه أحس بملمس الثدى العارى ، فى ساعده العارى ..

كان مصطفى الخوالقة أكبرنا ، وأكثرنا معرفة بالبنات . يترددن على حلقة السمك ، يلاغيهن ، يأخذ ويعطى ، ويفهم مالا نفهمه . ودخل ــ بمفرده ــ عوالم من السحر ، نكتفى بما يرويه عن غوامضها وما تخفيه . وكان يروى لنا حكاياته مع بنات المدارس فى شارع حسن باشا عاصم . له طريقة فى تحوير الحكاية . يثير فينا مشاعر الفضول والمتابعة . يحذف ، ويضيف ، ويختصر ، ويتوقف ، ويستطرد ــ ربما ــ إلى حكايات أخرى . يرفق سكتاته بالقول : واخد لى بالك ؟. وعرفنا منه ما لم نكن نعرفه . نصنع مما يرويه قصصاً لنا ، نتخيل أننا نحياها . وكنا

ننصت إلى أحاديثه عن بنت يحبها ، ويؤكد أنها تحبه . بنوى التقدم لخطبتها ..

سأله عادل عبد الوهاب :

ــ ما اسمها ؟

احمرت أذنا مصطفى ، وشاب لهجته ارتباك :

ــ سر بينى وبينها ..

قال عادل :

ــ تلميذة ؟

رماه بنظرة مؤنبة :

ــ طبعاً .. هل أحب لمامة سبارس ؟!..

قال محمد:

ــ حلوة ؟

قبل أصابعه المضمومة :

ــ فلقة قمر ! ..

قال عادل :

ــ هل تصرف عليها من جيب أبيك ؟ ..

قال مصطفى :

ــ بل من جيبى .. فأنا أساعد أبى فى عمله ..

قال محمد :

ــ تلميذ فى البوصيرى الأولية يتزوج ؟!

قال مصطفى :

ــ وماله ؟.. لما تزوج أبى كان أصغر منى ..

قال محمد :

ــ زمانهم غير زماننا .. ولم يكن تلميذاً ..

قال مصطفى :

ــ إذا كنت تعجز عن الانفاق على نفسك ، فهذه مشكلتك ! ..

نجلس ــ قبل العودة إلى بيوتنا ــ فى قهوة النجعاوى . السلمات الثلاث تصعد إلى المصطبة الواسعة ، المفروشة بالسجاد . تتناثر فيها مقاعد مستديرة من الجلد المنقوش . النصبة فى نهاية المكان . فوقها الرمالة وأكواب الشاى وفناجين القهوة والنراجيل الملونة ، وعلى الجدران رسوم وزخارف ونقوش خزفية ومعلقات سجاد وآيات من القرآن . وثمة مبخرة ــ أوسط المكان ــ يتصاعد منها بخور اللبان والمستكة والجاوى والفاسوخ ..

نتأمل مصطفى وهو يأخذ النرجيلة من الجرسون . يضعها أمامه . يجذب اللى ناحيته . يمسح المبسم بباطن يده . يضعه فى فمه . يسحب أنفاساً متلاحقة . ينفث الدخان من أنفه . نثق أن ما يفعله لا نستطيع فعله . حاول عادل تقليده . أصابته نوبة سعال ، نفضت جسمه ، وكورت وجهه ، ودفعت الحمرة إلى عينيه . خفنا على أنفسنا ، فاكتفينا بالمراقبة ..

يمضى بنا مصطفى بعيداً عن بحرى . نتفرج على إعلانات الأفلام والدكاكين والقهاوى والكازينوهات فى منطقة الرمل . نركب الطابق الثانى فى الترام . يقلنا إلى نهاية الخط ، ويعود ..

استوقفنا ــ ذات مساء ــ بائع فى ناصية السوق ، وقال :

ــ أنتم لا تشترون ! ..

كيف لاحظ فى الزحام الخانق ؟ ..

قال مصطفى الخوالقة :

ــ نحن نشترى من الداخل ونعود ..

قال البائع :

ـــ فماذا اشتريتم ؟..

قال مصطفى فى تحد :

ـــ هذا شأننا ..

قال الرجل :

ـــ معاكسة بنات الناس ليست من شأنكم !

وخالط لهجته وعيد :

ـــ إذا عدتم إلى هنا ، اتهمتكم بالسرقة ..

قال مصطفى :

ـــ نحن لا نسرق ..

ـــ تحتكون بالنسوان وتقاوحون ؟!

قال مصطفى فى مكابرة :

ـــ نحن لا نعرف ما تتحدث عنه ..

قال البائع :

ـــ إذا عدت ثانية ، ندهت لك العسكرى ! ..

وفاجأ مصطفى أباه ـــ ذات صباح ـــ فى مجلسه بحلقة السمك . من حوله الطبالى والمشترين والمساومات والنداءات والصياح وتقافز القطط ..

أطال الوقوف حتى تنبه ..

حدجه عم عباس الخوالقة بنظرة متسائلة ..

انتزع مصطفى الكلمات :

ـ أريد أن أتزوج ..

أسند عم عباس الخوالقة مبسم الشيشة على المقعد أمامه:

ـ ماذا ؟!

قال مصطفى :

ـ أريد أن أتزوج ..

وشت نظرته بسخرية :

ـ لأنك يا دوب بلغت .. تحسب نفسك رجلاً ؟! ..

قال مصطفى :

ـ أريد أن أتزوج ..

ـ هل ستأخذها معك إلى المدرسة ؟!

ـ أنا أعمل معك فى الحلقة .. فلماذا أذهب إلى المدرسة ؟!

ارتفع صوت الخوالقة بالأسى :

ـ أولاد الحاج قنديل تخرجوا فى الكليات .. وأنتم ترفضون حتى الحصول على الإبتدائية ..

ثم بنبرة ساخطة :

ــ الله يلعنكم !..

وزفر فى نفاد صبر :

ــ ماذا أفعل لك ؟

ــ أريد موافقتك ..

تحشرج صوت الخوالقة بالغضب :

ــ وهل هذا وقته ؟!

قال مصطفى وهو يمضى خارج الحلقة :

ــ أريد موافقتك أولاً !!..

أسواق من النور

قال رجل لأبى الحسن الشاذلى :

ـ مالى أرى الناس يعظمونك .. ولم أر لك كبير عمل ؟..

قال أبو الحسن :

ـ بسنة واحدة افترضها الله على رسوله ، تمسكت بها ..

قال الرجل :

ـ وما هى ؟..

قال الشاذلى :

ـ الإعراض عنكم ، وعن دنياكم !

***

من حزب الشاذلى :

نسألك الفقر مما سواك ، والغنى بك ، حتّى لا نشهد إلا إيّاك .

***

يا ذا المن ولا يمن عليه . يا ذا الجلال والإكرام . يا ذا الطول والإنعام . لا إله إلا أنت . ظهر اللاجئين ، وجار المستجيرين ، ومأمن الخائفين ..

إن كنت كتبتنى فى أم الكتاب شقياً ، فامح عنى اسم الشقاء ، وأثبتنى عندك سعيداً ، موفقاً للخير . فإنك تقول فى كتابك الذى أنزلت : " يمحو الله ما يشاء ، ويثبت ، وعنده أم الكتاب " .

فاجأ على الراكشى الحلقة ..

كان قد مضى زمن ، يعبر الحلقة دون أن يدخلها . يدعوه الصيادون والفريشة ، يغمغم بما لا يتبينه أحد ، ويواصل السير ..

دخل هذه المرة من الباب الواسع . جاوز الطبالى ، ومستطيلات الثلج ، والباعة والمشترين والزحام ، والمياه الآسنة . كانت التعليقات متشابكة ، صاخبة ، حول جنوح باخرة عند البوغاز ..

دنا من الحاج قنديل والمعلم أحمد الزردونى فى جلستهما بركن الحلقة ..

كان الزردونى يفضل الشراء من الحلقة . يروقه منظر السمك وهو يلعلط فى الطبالى . الخياشيم تتفتح ، وتنغلق ، والذيل يهتز ، فيهتز الجسم كله ، ورذاذ الماء يتطاير . يلتقط بإصبعيه سمكة من الطاولة . يشمها ، ثم يبدأ فى الفصال . إذا تغيرت رائحة السمك ، فهو قد تعفن ..

أشار الحاج قنديل إلى كرسى بجانبه :

ــ تفضل يا مولانا !

قال الراكشى بلهجة آمرة :

ــ جاءنى سيدى السلطان فى المنام ..

وزغد الحاج قنديل بأصابعه فى كتفه :

ــ إنه يدعوك لتكسية مقامه بقماش جديد ..

ثم بصوت زاعق :

ــ ويأمرك إن تعطنى مما أعطاك الله ..

وهرش عنقه بأظافره . التقط بإصبعيه أجساماً صغيرة ، تأملها لحظة ، ثم قذف بها . رمى الحاج قنديل بنظرة مؤنبة :

ــ هات خاتم الذهب من فم السمكة الميتة ..

وداخل لهجته وعيد :

ـ هاته .. وإلا ستفقد الطريق إلى بيتك ..

لاذ الحاج قنديل يصمت ، فعرف الرجال أن كلمات الراكشى فيها معرفة باطنية ، أدرك الحاج معانيها . تنبه لما تحمله من وعيد ، فسكت ..

اعتاد الرجال تغير أحوال الحاج قنديل . يطيل ذقنه ، ويحلق شاربه ، ويكر بأصابعه حبات المسبحة . يعنى بالأحداث السياسية ، يتابعها ، يلح فى تحويل مؤشر الراديو حسب مواعيد نشرات الأخبار ، يخلص للقراءة : جرائد ومجلات وكتب ، يأتى بها من مكتبة حمامة الفن ، يلزم صحن أبو العباس ، لا يغادره إلا وقت العمل فى الحلقة ، أو للذهاب إلى البيت ، أو لزيارة ابنته ..

ضرب الراكشى على الترابيزة بقبضته :

ـ لا وقت عندى .. أريد نقوداً ..

دس الحاج قنديل يده فى جيب السيالة . قبض الراكشى على ما أخذه ، ومضى خارج الحلقة ..

ثمة أسواق أخرى يعرف طريقه إليها ، لا شراء فيها ولا بيع . يجتمع الناس حلقات ، يتذاكرون كيف كانت الدنيا ـ هل يتذكر الحاج قنديل ، أو أن النعيم ينسيه ؟! ـ وكيف

كان العمل بفرائض الدين ، وكيف كان فقراء أهل الدنيا ، وكيف كان الموت ، وكيف صاروا بعد طول البلاء إلى الجنة . تختلف عن هذا الزحام المتلاغط . تحف بها الملائكة . فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولا خطر على قلب بشر . لا يباع ولا يشترى ، إلا الصور من الرجال والنساء ، إذا اشتهى الرجل صورة ، دخل فيها ، ولا ينزع ثمرة إلا نبتت مكانها مثلثاها ، قبل أن تصل إلى فمه . يأكل من ألوان الطعام ، يجد لآخرها ما يجد لأولها . يقوم بالخدمة سبعون ألف ملك شبه اللؤلؤ . بأيديهم أواني الفضة وأباريق الذهب . فيها أشربة ليس فيها لون على لون الآخر . ويرتدى سبعين طاقاً من الحرير الأخضر ، ومن السندس والإستبرق مختلفة الألوان . يقدم الخادم كأسا فيه ماء وخمر ولبن وعسل ، لا يختلط بعضها ببعض . يأخذها ولى الله ، فيرى ما خلفها مسيرة ثلاثة أيام ، فيتركها على فيه مقدار سنة ، لا يمل الشراب ، ولا الشراب ينفد ..

لم يغضب من المعلم أحمد الزردوني ، ولا رد عليه . عاب عليه رائحة جسده :

ــ يا أخي .. حمام الأنفوشي بالمجان !

تيقن أن ما قذف به الله فى قلبه ، هو علم الباطن ، وإن لم يحاول السؤال ولا الفهم ، فالله لم يطلع عليه ملك ولا بشر . صفا قلبه لله ، وسكن إليه ، وفر من الناس . أهمل الظاهر ، وعنى بالباطن . تخلص من أثقال الدنيا ، وقاطع من وصلهم أيام غفلته ، وارتحل إلى الآخرة بقلبه ، وتهيأ للوصول . الشوق فى داخله لن يطفئه سوى الوصول واللقاء ، يرنو إلى يوم يرشح عرقاً كالمسك . لا يبول فيه ولا يتغوط ولا يمخط ولا يبصق ، ولا يمسه تعب . يرد الله وجهه كالقمر ليلة البدر . تغيب الحرشفة من ظاهر يده ، صنعها تآلف الملوحة والشمس . ينعم ، ولا يبؤس ، ولا تفنى ثيابه ، ولا يبلى شبابه . يدخل عليه الملك ومعه ألوان الحلل مطرزة بالذهب ، مكتوب عليها أسماء من أسماء الله الحسنى . يقول : أنظر يا ولى الله إلى هذه الحلل . إن أعجبتك فهى لك ، وإن لم تعجبك انقلبت إلى الشكل الذى تريده . يرتدى ملوك الدنيا الأساور والتيجان . يرتدى ــ حيث تضعه العناية الإلهية ــ طوق ديباج يتلألأ من نور ، ويضع فى يديه ثلاثة أساور : سوار من الذهب ، وسوار من الفضة ، وسوار من اللؤلؤ ، ولرجليه خلخالان لا صدى فيهما . قد يرتدى حلة

ذات وجهين . يقول الذى يلى جسده : أنا أكرم على ولى الله منك . أنا أمس بدنه وأنت لا تمسينه . ويقول الذى يلى وجهه : أنا أكرم على الله منك . أنا أرى وجهه وأنت محجوبة لا ترين وجهه . قرأ عن مراكب الياقوت . كل مركب ياقوتة واحدة ، تجرى بلا شراع ولا موتور . بحرها من السلسبيل فى بياض اللبن الخالص ، مرتفع بلا أمواج ، رائحته أذكى من العنبر ، على شاطئه نخل يختلف عن نخل الكورنيش ، فهو من ذهب ، بدنه وسيقانه وفروعه وأوراقه . حتى ثماره فهى فى لون الذهب ، وإن كانت ذات مذاق أحلى من الشهد ، ومن العسل . إذا أراد صيد الحيتان ــ لها رائحة أشد من المسك ، وطعم أحلى من الشهد ــ وقف على المركب ، أو حتى على ساحل البحر ، فيأتى الحوت مطبوخاً ومشوياً . ويقول : كل يا ولى الله . إذا أكلت منه ، فسيرجع إلى البحر مسبحاً ، مفتخراً ، بأن ولى الله أكل منه . يصيد الغزلان بدلاً من السمك . ليس صيداً مما اعتاده الناس . ولى الله يسعى فى اثر الغزال ، متلذذاً بذلك السعى . لا خوف يصيب الغزال ، ولا وجع فى الإمساك به ، لا تخويف ولا جرح ولا كسر ولا قتل . إذا قبضتها ، فإن شاء رجعت له لحماً

مطبوخاً أو مشوياً . لا ذبح ولا نحر ولا كسر ولا سلخ ولا دم يسيل . يسكن كل ولى قصراً ، سقفه عرش الرحمن ، له أربعة آلاف باب ، وسبعون ألف غرفة من الذهب ، مرصعة بالزبرجد . يزاور مع الآخرين على نجائب بيض كأنهن الياقوت . وثمة قبة من الدر الأبيض ، أسست على سطح من الزمرد الأخضر ، ترى من مسيرة مائة عام . ركبت فى أعلاها جوهرة بيضاء ، يلمع فيها نور ، ينعكس شعاعه على امتداد الأفق . ليس لها معاليق من فوقها ، ولا عماد من تحتها ..

قال حسان عبد الدايم وهو يتابع انصراف الراكشى بنظرة مشفقة :

ــ الراكشى ليس مجنوناً .. أسرف فى التعلم ، فتشوش مخه !

قال خميس شعبان :

ــ عالجه يا حاج .. تأخذ ثواباً ..

قال الحاج قنديل :

ــ الرجل أصح منا .. وهو ــ بإذن الله ــ طبيب نفسه..

أطلق قاسم الغريانى ضحكة عصبية :

ــ أيوب السكندرى !

قال الحاج قنديل :

ــ لا تسخر من الرجل فهو بركة !

قال قاسم الغريانى :

ــ فلماذا لا تحل بركته على بيته ؟.. المرأة تنفق على أولادها من مساعدات أهلها ..

قال الحاج قنديل :

ــ شدة وتزول !

وأهمل الشيشة فى يده ، وسرح إلى بعيد :

ــ قد يكون على الراكشى فى حياتنا ولى جديد !

كانت الكلاب والقطط تسكن لمرآه ، لا تنبح أو تموء ، ولا تمارس الفعل . وأكد خميس شعبان أنه رآه يخوض المياه العميقة ، وراء قلعة قايتباى ، فلم تصل المياه إلى ركبتيه . واستمع إليه عبد النبى شعرة ، خادم أبو العباس يكلم من لا يراه داخل مقام السلطان ، وصوت ــ من داخل المقام ــ يبادله الكلام بعبارات واضحة . وعرف بأنه ينطق بما يجريه الله على لسانه ، لا يختار كلماته ، ولا يتدبرها ، ولا يتوقع

تأثيرها فى نفس محدثه . وكان ــ فى بعض الأوقات ــ لا يعى ما حوله ، ولا يعرف من يعيشون حوله ، ولا يستطيع التعبير . يلجأ إلى يديه ، وهز رأسه ، ونوبات من الصراخ ..

فاجأ الناس فى مولد سيدى نصر الدين بسيف من الخشب ، رفعه ، وهزه ، وأطلق صيحات متوالية ..

ثمة قوة غامضة ، مسيطرة ، تجتذبه الى حيث لا يدرى . تدفع قدميه ، فلا يستطيع التوقف . تمنعه حتى من إطالة الوقوف أمام الدكاكين والقهاوى . لا تهدأ نفسه إلا عندما يدخل أبو العباس أو ياقوت العرش أو البوصيرى أو مساجد الحى الأخرى . يتوضأ ، ويصلى ، ويخلو إلى نفسه بأدعية وأذكار ، حتى يهم الخادم بإغلاق الجامع ، فيخرج ..

أشرقت فى داخله أنوار الخدمة والمحبة والمعرفة . انشغل باختراق الحجب التى تمنعه من رؤية المستور . أخلص فى عبادة الله ، والتجرد لذكره ، والزهد فى طلب الدنيا ، والإعراض عن مباهجها . فنى عن نفسه ، وأقبل على حياته بخضوع من ينفذ إرادة إلهية . انصرف إلى أعمال القلوب : المحبة لله ورسوله ، والتوكل ، والخوف ،

والرجاء ، وغير ذلك من المقامات والأحوال . حب إلهى يفيض بالأهوال والأشواق . دنيا لا يزاحمها وهم ، ولا يخالطها شك ، ولا يصحبها اضطراب . تطير به الخيل فى ساعة من ساعات الدنيا مسيرة ألف عام . يصل روضة ، هى الدرجة الرابعة من الفردوس ، من الكافور الأصفر ، نباتها الزعفران ، وترابها المسك الأذفر ، وحصاها من الدر والجواهر ، تجرى فيها أنهار الماء والعسل والخمر . على حافاتها أشجار ، أصولها من الزبرجد الأخضر ، وقضبانها من الذهب ، وأوراقها من اللؤلؤ ، وثمارها لا يعلمها إلا الله . تخفق فيها رياح الرحمة ، وتنفخ فيها روائح المسك والعنبر . يخرج إليها ــ فيما بعد ــ متنزهاً ، كما يخرج الملوك من قصورهم . بها خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً . فى كل زاوية منها أهل للمؤمن ما يرون الآخرين . يطوف عليهم المؤمن فى كل زاوية . إذا حل ولى الله بالخيمة ، انصدعت له عن باب ، فيعلم أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم يأخذها ، فهى مقصورة ، قد قصرها عن أبصار المخلوقين . يؤذن فى يوم الجمعة من أيام الدنيا ، ليزوروا الواحد الأحد . يبرز العرش . يتبدى فى روضة من

رياض الجنة . توضع للصالحين مثله منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة . يجلس أدناهم ، وما فيهم من دنى ، على كثبان المسك والكافور . سئل رسول الله : هل نرى ربنا ؟ قال : نعم . هل تتمارون فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ . قيل : لا . قال : كذلك لا تتمارون فى رؤية ربكم ، ولا يبقى فى ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله محاضرة ..

اعتادت أم محمد غيابه عن البيت يوماً بليلة ، أو يومين بليلتين . يجلس ــ بين أوقات الصلاة ــ فى صحن مسجد المسيرى . يلزم نفسه بخدمة المصلين ، ويكنس المسجد بنفسه ، وينظف دورات المياه . يمشى فى الشوارع والأسواق حاسر الرأس ، حافى القدمين . عارياً إلا من قطعة خيش تغطى صدره وحول بطنه ..

تركت المرأة ــ ليلة ــ حجرة نومها مع الأولاد . دفعت باب حجرته الموارب . أعادت التثبت من حمالتى القميص الستان الأحمر فوق كتفيها .

كان قد تمدد على بطنه ، ودس يديه تحت المخدة ، وتعالى شخيره ..

داعبته بإصبعها فى بطن قدمه ، فانتتر مذعوراً . كان قد انفرد عن المرأة والأولاد . تخلى للعبادة ، وانقطع إلى الله تعالى . ضعفت أحوال الحس ، وقويت أحوال الروح بعاقل العبادات والذكر ، وغلب سلطانها ، وتجددت النشوة الربانية . مضى إلى النهاية فى الرياضة والمجاهدة ..

فوجئ بوقفتها الخائفة ..

دفعها بقدمه فى صدرها :

ــ امش !..

جرت ــ بظهرها ــ إلى الباب المغلق . فتحته ، وانحطت ــ تلملم نفسها ــ على كنبة الصالة ..

لم يعد يلتفت إلى ما تراه عيناه . هو يكتفى بالنظر إلى ما بداخله ، ما يشغله ، ويلح عليه ، يضنيه . انطلق من ضيق المحسوسات إلى لا نهائية الحضرة الإلهية . حرم على نفسه النوم إلى جوارها ، منذ عرف طريقه . ضجر من صحبة الأغيار ، وآثر الزهد . انقطع للعبادة . جاوز سجن عبادات صفات النفس إلى الصفات الروحية فى عالم الأمر .

محبة الله لا تدخل القلب ، ولا تستقر فيه ، إلاّ إذا خلا القلب من حس سواه . تكشفت الأنوار الإلهية ، فاحتجبت المحسوسات . خرج عن حظوظ النفس بالمجاهدة والمكابرة . اشتغل بالله تعالى ، وتجرد من أسباب الدنيا ، ورغب فى الآخرة . محا أسرته من قلبه ، لا يستقر فيه إلاّ الذات العلية . تحمل نار المعاناة ، ليتذوق حلاوة القرب ، ويشرب من خمر المعارف الربانية ، الأزلية ، وينغمر فى بحر النور . تلبسته الخشية من الصد والهجر وعدم القبول ، ففتح أبواب الشدة ، والذل ، والجهد ، والسهر ، والفقر ، والخوف . قطع المنازل والمقامات . كشفت سجوف الظلام عن عالم الملائكة والوعد والجنة والأشجار وأنهار اللبن والعسل والسقاة والحور العين . أحب الأشياء حين يخلو إلى نفسه : كيف يشرق نور قلب ، صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟ كيف يرحل إلى الله وهو مكبل فى شهواته ؟ كيف يطمع أن يدخل حضرة الله دون أن يتطهر من جنابة غفلاته ؟ كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار قبل أن يتوب من هفواته ؟..

خطر له أن يؤمها فى صلاة الفجر . يئس من ردها على ندائه . نضح فى وجهها الماء ، وقال لارتعاشتها الخائفة :

ــ من استيقظ فى الليل وأيقظ امرأته ، فصليا ركعتين .. كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ..

* * *

رآه أمين عزب يطير وراء أولاد يعاكسونه فى شارع أبو وردة . يقذفونه بقطع الحجارة الصغيرة ، وقشر البطيخ ، وهو يتقى بيديه ، ويصرخ ..

زجر أمين عزب الأولاد . تصعب للمشهد وهو يتجه غلى باب الجمرك . جرى الأولاد بالخوف من مكانة أمين عزب فى نفوس آبائهم ..

ــ ثم ماذا يا على ؟..

علا صوت الراكشى :

ــ من يريد الله .. لا يريد سواه !

رماه أمين عزب بنظرة غاضبة:

ــ هل أفقدك يوسف بدوى عقلك ؟!..

جزيرة السحر تبوح بسرها

اقتحمت أنفه رائحة الدخان والأنفاس ، ولاحقته الأصوات المنادية ، والمتسائلة ، والداعية ..

كان يغالب الارتباك ، وهو يتلفت حوله . ربما فاجأه صديق لأبيه ، أو أحد الجيران ..

لجأ إلى خياله . اختلق الروايات . ضمنها حكايات للرجال فى الزردونى والبحر ومخيمخ ، أنصت إليها . نقلها للأولاد بإضافة وحذف ، وجعل نفسه فيها . بدا له كوم بكير دنيا غريبة ، ساحرة ، تاق لرؤيتها ..

واجه محمود همسه بغضب لم يعهده فيه :

ــ لكنك تذهب إلى هناك ..

قال بصوت متوجس :

ــ من قال لك ؟..

واجه عينيه :

ــ أنت قلت فى القهوة ..

هز محمود قبضته :

ـ أنا أكبر منك ..

داخل صوته ارتعاش ، كمن يهم بالبكاء :

ـ لم أعد صغيراً ..

هتف محمود فى لهجة باترة :

ـ لو ذهبت إلى هناك .. سأريك شغلك !..

سكت ، وإن ظلت الفكرة فى داخله . تلبسته ، فلم تعد تفارقه . هو لا يفترق عن الأولاد إلاّ بالروايات المختلقة . الذهاب إلى كوم بكير يعود بحكايات حقيقية لا تنتهى ..

احتفظ بخمسين قرشاً من إيراد شروات الصباح فى الحلقة . استقل الترام إلى ميدان المنشية . مضى فى شارع السبع بنات . بوصلته حكايات الرجال ، والأخيلة المجنونة تناوش ذهنه ، وتدفعه : لما ذهبت إلى كوم بكير .. رأيت فى كوم بكير .. لى صديقة أتردد عليها ، كل مساء ، فى كوم بكير .. لن ألعب معكم ، وقتى ـ بعد الحلقة ـ أقضيه فى كوم بكير .. نصف نساء كوم بكير يحببننى .. كوم بكير دنياى المفضلة .. يصعب أن أصحب أحدكم إلى كوم بكير ، فلا يتردد عليه إلاّ الرجال ..

لم يكن يخشى إلاّ أن تلمحه عين من السبالة : قاسم الغرياني أو المعلم التميمي ، وغيرهما ، ممن يداومون التّردد على كوم بكير . سكت أبوه عن الكثير من تصرفاته ، لكنه ـ بالتأكيد ـ سيجد في فعلته الجديدة ، ما يدعو إلى المؤاخذة القاسية . قد يضربه ، أو يطرده من البيت ..

طالعه الحي بما لم يتصور أنه يراه . ما يختلف تماماً عن كل الحكايات والروايات التي أصاخ إليها سمعه ، ودفعته إلى محاولة التعرف . الأغنيات تتصاعد من كل مكان ، تختلط فلا تبين كلماتها ولا ألحانها ولا مصدرها . الأعين المتسائلة ، والمتوجسة ، والداعية ، ورائحة الطعام ، والحشيش ، والخمر ، والوجوه المصبوغة ، والنبرة المتكلفة ، والعرق ، والنداءات ، والضحكات ، والآهات ، والغمزات ، والأنفاس اللاهثة ..

مع أنه كان قد أعد نفسه لما رآه ، فقد أذهلته نساء اكتفين بوضع غلالات شفافة على أجسادهن . يبدو الصدر والبطن والصرّة وما تحت البطن . حتى الحسنات والوحمات يبين لونها الداكن من وراء الغلالة ..

واجهه رجل مجدور الوجه ، يحبط برأسه شعر مشعث منكوش . فى حوالى الخامسة والأربعين . يرتدى جلباباً مقلماً من الكستور ، ويضع فوق رأسه طاقية من نفس قماش الجلباب ، ويحرك بيده عصا معقوفة ، لامعة ..

ــ ماذا تريد ؟..

غالب ارتباكه :

ــ أتمشى ..

فى لهجة مرغّبة :

ــ هل تريد شيئاً محدداً ؟

ــ لا .. أنا أتمشى ..

فاجأته المرأة بالقول ، وهى تشير إلى قامته الممتلئة :

ــ أنا التى تتحمل عافيتك .. تعال !

فى حوالى الخامسة والعشرين . ذات وجه قاتم السمرة ، وشعر أسود أكرت . ترتدى قميصاً من الساتان الأحمر ، يطل نهداها من فتحة الصدر الواسعة ، المشغولة بالترتر ..

أذهلته الكلمات ، وأرضته ..

ترك ساعده ليد المرأة ، تقوده إلى داخل الحجرة ..

في الركن سرير نحاسي مرتفع ، مفروشاً بملاءة متسخة ، وإن بدا لونها أقرب إلى الزرقة . تحته كرسي حمام ليتيح الصعود عليه . وفي الجانب كومودينو صغير ، وحامل خشبي ، عليه فوطة متداخلة الألوان ، وفي الركن المقابل تسريحة بمرآة ، صف عليها زجاجات عطر ، وكيس قطن ، ومشط متآكل الأسنان ، وقطعة من الجلد ، أشبه بعصا رفيعة سوداء . وعلقت ــ على الجدران ــ صورة من مجلة لتحية كاريوكا ببدلة الرقص ، وصور صغيرة لبحارة ذوي سحن أجنبية ، بينما تدلت من السقف مروحة ساكنة ، وفرشت الأرض بسجادة مضفرة من أقمشة قديمة ..

ــ هل أنت خائف ؟..

التفت إلى المرآة وراءه . راعه الشحوب الذي كسا وجهه ..

وهو يبتلع ريقه :

ــ لا ..

نطت على السرير . عادت أصابعها ــ من تحت المخدة ــ بعلبة سجائر . أخذت أنفاساً متوالية . أطفأت السيجارة في الطبق الخالي على الكومودينو المجاور ..

ـــ ما اسمك ؟..

ـــ مصطفى . .

ـــ من الإسكندرية ؟..

ـــ من بحرى ..

ـــ أول مرة ؟..

هز رأسه :

ـــ نعم ..

أعادت السؤال ، وهى تواجهه بنظرة مشفقة :

ـــ خائف ؟..

اهتز بالانفعال :

ـــ لا .. لست خائفاً ..

أطلقت ضحكة عابثة :

ـــ من له جثتك لا يخاف إبليس !..

ثم وهى تنزل من السرير ، وتمضى وراء الستارة المسدلة :

ـــ استرح حتى أعد نفسى . .

ظل فى وقفته وسط الحجرة ، يتأمل ما حوله . وثمة راديو قريب يتناهى منه صوت منيرة المهدية :

فيك ناس يا ليل بتشكى لك مواجعــــهم

يا لله يا ليــــــل ما تبقـــاش تراجعــــهم

أجريت يا ليــل على الخدين مدامعهـــم

باتوا سهارى بطـــــول الليـــل نواحين

من خوف يا ليل .. ليطول المدى معهم

علا صوت المرأة من وراء الستارة :

ــ اخلع هدومك !

تبينت عيناه خطاً طولياً ضيقاً ، يفصل بين الستارة والمكان الذى دخلت إليه المرأة ..

مد رأسه بعفوية ..

غمض ما تفعله المرأة ، وإن فاجأته بما لم يتوقعه . ما تصور أنه يعرفه اختلف عما رآه خلف الستارة المسدلة ، وصدمه . كل ما رواه للأولاد صنعه خياله ، غذته الصور التى تشكلت من حكايات قهاوى الزردونى ومخيمخ والبحر ، ومن الصيادين والسماكين فى الحلقة ..

صعد القرف بالغثيان فى حلقه . وضع يده على فمه ــ بتلقائية ــ يمنع انفلات القيء ..

اهتزت الستارة الخشبية ، الملونة ، فى اندفاعه إلى الطريق ..

وكان نداء المرأة يلاحقه ..

قبل موسم السردين

قال المعلم ناجى التميمى :

ـــ ماذا حدث ؟..

قال صابر الشبلنجى وهو يشير إلى السيدة على باب الاسطبل :

ـــ الســت تريد أجزاء من حافر البغلة ..

ـــ لماذا ؟..

غالب صابر تردده :

ـــ قيل لها إن أجزاء الحافر إذا وضعت فى الطعام ، ينقطع حيض من تأكله وحملها ..

لم يبد على التميمى مشاعر من أى نوع . لا دهشة ولا تأثر ولا غضب . قال وهو يتجه إلى الداخل :

ـــ كل شئ هنا بالفلوس .. فهل تملكين ثمنها ؟

نطقت الاستجابة فى عينى السيدة ذات التايير الرمادى ، والنظارة الطبية ..

مال التميمى إلى يمين الأسطبل . اطمأن إلى عليق الخيل : الشعير والذرة والفول والتبن والبرسيم . علقت على الجدران سست وقضبان حديدية وعجلات ورولمان بلى ..

اتجه إلى سلم البيت . مبنى من الطوب الأحمر . نوافذه خشبية من ضلفتين . بابه الرئيسى فى شارع سيدى كظمان ، الخلفى . استأذن من حمادة بك ــ بعد أن استأجر منه الإسطبل ، فأغلق الباب الرئيسى ، واكتفى بباب شارع السيالة . نوافذ الطابق الأول تفتح على الإسطبل . أما الطابق الثانى ، فنوافذه تطل على شارع سيدى كظمان ..

قال التميمى :

ــ علينا مجاملة المعلم عباس الخوالقة فى حفل زفاف ابنه ..

ــ محمود ؟..

وهو يلوك قصا فى فمه :

ــ لا.. مصطفى .. الولد الأصغر .. أجبر أباه على تزويجه من بنت عبد الوهاب أفندى مرزوق ..

وطرد ذبابة عن أنفه :

ـ الزفة ليست طويلة .. شقة العروسين فى الطابق الرابع الخالى فى بيت الخوالقة ..

البيت فى نهاية السيالة . تمضى الزفة إلى ميدان المساجد . تطوف دوراتها السبع أمام السلطان ، ثم تمضى فى طريق الكورنيش ، إلى السلسلة ، وتعود ..

قال صابر متذكراً :

ـ متى الزفاف ؟

قال التميمى :

ـ فى موسم السردين ..

قال صابر :

ـ لما ظهر عصفور النيل على الشاطئ منذ أيام .. أكد الجد السخاوى اقتراب موسم السردين ..

قال التميمى بنبرة متعالمة :

ـ الراديو يتحدث عن ارتفاع فيضان النيل هذه السنة..

ثم وهو يعدل كمى البنش :

ـ فلنتوقع بإذن الله محصولاً وفيراً من السردين ..

عرف صابر ـ من أحاديث الصيادين على قهاوى الحى ـ متى يبدأ موسم السردين ، ومتى ينتهى . يمتد من

سبتمبر إلى يناير . جمعة النيل ، موسم الزيادة ، موسم القطن للصيادين . فصل الشتاء ميت ، للصيد فيه أيام قليلة : الجمبرى والسيفوليا واللوت والصبيط والدنيس والسيوف والكابوريا . أسراب السردين تفد بالملايين فى أبو قير . يدفعها ماء النيل ، والطمى ، إلى البحر . تتألق فى لون الفضة على سطح الماء . تحلق فوقها أسراب طير البحر . تهبط بمناقيرها ، وترتفع . تستقبلها أساطيل الخشب فى عرض البحر من الأنفوشى وإدكو ورشيد والبرلس ودمياط . تزدحم القوارب والشباك وعمليات البيع والشراء والصفقات المؤجلة . موسم الرواج ، وزواج الأبناء ، والأفراح ، وتجهيز البيوت . كل الأمنيات الصعبة تنتظر تحقيقها فى موسم السردين . معظم طعامه فى جمعة النيل هدايا : المبرومة الأكثر سمنة ، والمفطرة الأكثر نحولاً ..

سأل التميمى وهو يتجه ناحية السلم المفضى إلى داخل البيت :

ـــ الست فوق ؟

قال صابر :

ـــ لم ألمحها فى الشباك ..

كان باب البيت مفتوحاً . لا يغلق فى ليل أو نهار ، وإن حرص التميمى على إغلاق الحجرة التى يقيم فيها مع جمالات . يصعد صابر الدرجات الخشبية . يدخل الصالة . يضع ما يحمله من احتياجات البيت . ينظر إلى الصالة والحجرات المحيطة بها . بسرعة ، أو يتأمل . إذا أراد التميمى ، طرق باب الحجرة ، أو يعود إلى الإسطبل ..

حين تقدم التميمى ــ منذ ثمانية عشر عاماً ــ لخطبة بنت المعلم كشك الكبرى ، غالب الحرج لاصطحابه الحاج قنديل ــ وحده ــ يزكى مطلبه . نسب قامته الطويلة لأبوين من فلسطين ، قدما إلى بحرى فترة الخلافة العثمانية . أقاما فى السيالة لأنها تذكرهما بحيهما فى مدينة يافا لم يغادر البيت المطل على الإسطبل بعد وفاة أبويه ــ مات الأب ، ثم لحقته الأم ، فى العام نفسه ــ قصر سكنى طوابقه الثلاثة على أسرته ، واكتفى بإيراد الإسطبل . ألغى عقداً كان أبوه وقعه لشراء إسطبل جديد ــ بدلاً من الإيجار ــ فى رأس التين ..

سئل عن الأبناء ، فقال انه يتحاشى الإنجاب . الأبناء مسئولية لا يقوى على مواجهتها .. لكنه تمنى ــ بينه وبين

نفسه ــ أن تنجب له زوجته طفلاً ، ونذر إن أنجب ولداً ، يمشي في زحام شارع الميدان ، وعلى رأسه طرحة ..

ظلت المرأة بلا خلفة ، حتى قتلتها وصفة مسمومة للإنجاب . طالت حياته بلا زواج ، حتى قدم ــ منذ ثلاثة أعوام ــ بالست جمالات في سيارة تاكسي ..

لم تكن من أسر الحى ، ولا تكلم التميمى عن ظروف زواجه منها ، وإن أكدت الهمسات في قهوة الزردونى أنها من نساء كوم بكير . أعجب بها ، فعقد عليها . عانى ــ لسنوات ــ من تحقق الرجفة المتعجلة . يتبعها همود ، وتهيؤ للنوم . أفلحت في إطالة اللحظات . جاست به أحراشاً لم يسبق له ارتيادها ، فأحبها ، وعقد عليها . ثم أدرك أن المرأة تحاول أن تقتله باللذة ، فأخلى لنفسه حجرة مستقلة ، وترك المرأة وحدها في حجرة النوم . إذا علا في داخله صوت الرغبة ، مضى إلى كوم بكير ، يطفئ الجذوة المشتعلة ، ويعود ..

قيل إنه ضعيف أمام الخادمات . لا يقوى على كتم رغبته ولا تلهفه ، ويتعرض لمتاعب . وأودت به علقة نالها في دحديرة أبو العباس ، إلى لزوم الفراش عشرة أيام ..

كان يتردد على بار بشارع البوسنة . يجلس على الرصيف . أمامه زجاجة الخمر وطبق المزة ، وأمام الحصان دلواً أفرغ فيه الجرسون خمس زجاجات من البيرة ..

وكان من أطعمته المفضلة الريش والخناصر والنيفة والطرب والمخاصى والمنبار . وكان يأكل الحمام واليمام والسمان . إن لم يأكلها فى البيت ، تردد على مطعم الخيرات بشارع الميدان . وحرص على تدليك العصعص بالثوم الطازج ، وأكل الفلفل الأسود والكرفس والجزر الأصفر والتفاح وجوزة الطيب ..

قال صابر :

– العجلة مقلقلة منذ نزهتك الأخيرة على الكورنيش ..

ثم وهو يهز رأسه :

ـــ سأصلحها ..

يحلو له الجرى فى شارع الكورنيش بآخر ما عنده . ضحكاته عصبية للصرخات الخائفة من اندفاع البنز وسط السيارات والحناطير وعابرى الطريق . يميل البنز ، فتعلو الصرخات للتصور أنه سينقلب على الحصان ، وعلى راكبه ، وعلى الناس فى الطريق . حتى فى المفارق لا يحاول التقليل

من سرعته . تسترخى يده على اللجام فى اعتزامه الميل إلى ميدان أبو العباس . للسلطان احترامه الذى يرفض الاجتزاء . يمشى أمامه متمهلاً ، ويقرأ الفاتحة . لا يصلى ولا يصوم ، لكنه يخاف أذية السلطان . يعرف قدره ، ويؤمن بكراماته ومكاشفاته ، ويؤمن بكرامات وشفاعات الأولياء الذين يمر على أضرحتهم ، فى طريقه إلى الإسطبل . يعيد قراءة الفاتحة ..

قال صابر :

ــ اليوم السبت .. هل تذهب إلى سبورتنج ؟

حدجه بنظرة متسائلة :

ــ لماذا ؟

ــ سباق الخيل ..

وهو يبدأ فى ارتقاء السلم :

ــ سباق البنز على الكورنيش أجمل !

غجريـــــة

نبين زين !..

استوقفه النداء . تصور المرأة ذات الفستان الأسود ، المكشكش ، والطرحة ، والقفة فوق رأسها ، وحلقة الذهب الفالصو مغروسة فى الأنف ، والوشم الأخضر أعلى الصدغ..

كان يتمدد فى استرخاء القيلولة . اعتذر للرجل الذى أطال وقفته أمام الإسطبل بأن الكرابيج سليمة . المعلم التميمى يرفض أن ينزل الكرباج من اليد على جسم الحصان..

قال الرجل :

ــ أنا أفتل الكرباج لزوم قيادة الحنطور ..

أشاح صابر بيده :

ــ عد مرة ثانية .. قد يوافق صاحب الإسطبل ..

تنبهت لإشارته فى وقفتها القصيرة أمام الإسطبل . همت بالقعود على الباب ، ثم فطنت لما فى باله ..

النافذة المطلة على الإسطبل مغلقة ، وشارع السيالة يخلو من المارة ..

مضت ـ مبتسمة ـ إلى الداخل ..

ـ ارم بياضك ..

دس يده فى جيب البنطلون ، وأخرج تعريفة ..

دفعت بالصدفة :

ـ هذه ملكة البحر .. وشوشها ..

قال صابر :

ـ أريد أن أوشوشك أنت ..

تظاهرت بعدم الفهم :

ـ أشوف بختك ..

غمز بعينه :

ـ أعرفه ..

حبكت الطرحة حول رأسها :

ـ فماذا تريد ؟

وهو يتأمل الخال الصغير ، رسمته بالكحل على خدها ..

ـ أريدك أنت !

ثنت جسمها ، لتتفادى مداعبات يده فى صدرها :

ــ أنا لا أريد ..

اهتاجت أعصابه :

ــ سأدفع ما تطلبين ..

لعقت شفتيها بطرف لسانها :

ــ هل تقوى على مهرى ؟!

ضربته على فخذه معابثة ، فتهيأ لدخول الجحيم ..

قدم عرضه ، وقدمت عرضها . سبقها إلى المخزن . سوى المرتبة . نزعت الشبشب ــ بتلقائية ــ وتمددت إلى جانبه . أهمل رائحة عرقها ، وأهملت رائحة الإسطبل العالقة بجسمه ، ومزق البرسيم ، وروث الخيل ، والمياه العطنة ..

استسلمت لقبلته ، انتقلت من شفتيها إلى عنقها ، فصدرها . وغادر النورس تحليقه فوق الشاطئ ..

ــ يا كلب !

انتتر مذعورا ، وقزت المرأة تنفض العليق عن فستانها الأسود ، وتغالب الارتباك ..

لم يعد المعلم التميمى . صار شيئا زاعقاً ، صاخباً ، مخيفاً . يهوى بالكرباج فى تلاحق ، على صابر المتكوم

حول نفسه ، يتقى وصول اللسعات إلى وجهه بدفسه فى التبن ..

كان الرجل يصيح بآخر ما عنده :

ــ هذا مكان أكل عيش !..

نزلت الست جمالات بقميص النوم ، وحافية . خافت أن يموت صابر فى يد المعلم :

ــ تروح فيه ؟!

وهو ينتفض من الغضب :

ــ أنت لا تعرفين ماذا فعل ..

قالت فى هدوء :

ــ أعرف ..

أردفت لنظرة الدهشة المتسائلة :

ــ رأيته وهو يتسحب بالمرأة إلى داخل الإسطبل ..

بصق الفص من فمه :

ــ وتسكتين ؟!

دون أن تجاوز هدوءها :

ــ هل ألم الناس ؟! .. انتظرت حتى تأتى .. لكنك سبقت ..

ثم وهى تربت صدره :

ــ لا تفعل هذا ثانية .. أطرده ولا تقتله !

لم يكن الاستغناء عن صابر مما يدور له ببال . منذ أوصى حمادة بك على صابر ، وهو يعتبره جزءاً من الإسطبل . تركه لعم شفيق عبد السيد يعلمه . ثم تركه . يحاسبه فى عودته إلى البيت كل مساء ، أو ــ إذا تأخر ــ ظهر اليوم التالى ، لا يسأله ..

هل فتحت القطة المغمضة عينيها ؟!

أعلن الرجل غضبه لأن الغجرية أسلمت نفسها له داخل الإسطبل .. فهل يعرف أنه ــ صابر ــ يصحب امرأته إلى بيت الأوسطى فتحى الخياط ؟! ..

طلبت أن يعد لها حنطوراً ، ويأخذها فى مشوار إلى شارع قبو الملاح ..

أمام بيت يعرفه ، قالت : قف . فوقف ..

قالت فى لهجة معتذرة ، وهى تصعد الحنطور :

ــ تأخرت عليك ؟

ثم أومأت برأسها ناحية البيت :

ــ فى هذا البيت أقارب يرفض المعلم زيارتى لهم ..

جذب لجام الحصان . لم يحاول الرد عليها ، أو حتى النظر نحوها . البيت للأوسطى فتحى . ألتقى به وهو يحمل شعرات حصان ، عالج بها سكان الطابق العلوى زوائد سنط . عرفه ، وسلم عليه ، ودعاه للدخول ..

ظل دكان العلافة مغلقا لأشهر طويلة ، منذ وفاة صاحبه . ثم ظهر على بابه المفتوح ، يشرف على تجهيز الدكان ، ونقل ماكينة الخياطة وترابيزة التفصيل والكراسى . عرف أن الدكان تحول إلى ترزى عربى ، يحيك الجبب والقفاطين والأحزمة الشاهى . معظم زبائنه من مشايخ الحى ، الأئمة والقراء وطلبة المعهد الدينى ..

الأوسطى فتحى يقف وراء الترابيزة . المازورة على كتفه ، والمقص فى يده . يعتز بأنه يجرى بالمقص فى القماش دون " باترون " . طلب منه ــ فيما بعد ــ أن يأخذ باله من الدكان ، حتى يقضى حاجته فى ميضة سيدى نصر الدين . وتبادلا كلمات سريعة ، حول الجو ومعارك البوليس والمتظاهرين فى ميدان المساجد ..

لم يكن يبدو أن ساقه المهيضة تضايقه . يتساند على العكاز ليعوضها ، وإن كان يظلع فى مشيته ، رغم العصا التى تسبق خطواته ..

لما تعددت المشاوير ، صار ــ دون أخذ ورد ــ أميناً على سرها . ينقل إليها مواعيد الأوسطى فتحى . ينقل إليه قبولها ، أو اعتذارها . يطمئن التميمى إلى خروجها مع صابر ، فلا ينشغل إن تأخرت ..

حمل إلى الأوسطى فتحى ــ فى الدكان أو فى الشقة ــ طعام الغداء : عمود من ثلاثة طوابق . عرف ــ دون أن تحذره جمالات ــ أن معرفة المعلم التميمى بالأمر ، يعنى طرده من الإسطبل . يأخذ الرجل العمود . يفرغه فى أوان ، ويعيده . لا يحمل صابر رسائل إليه منها ، ولا يحمل رسائل منها إليه . يكتفى بالسلام ، ورده ، ويعود . .

لم تحدثه عن العلاقة بينها وبين الأوسطى فتحى . هل هو قريبها ، أو مجرد عشيق ؟.. ولم تأتمنه على سر العلاقة باعتبارها كذلك ..

افتر فم الست جمالات عن ابتسامة واسعة ، فبدت أسنانها غير المتسقة :

ــ هل جننت ؟!.. امرأة داخل الإسطبل ؟!

وقلبت شفتها السفلى :

ــ وفوق عليق الخيل ؟!

واكتسى وجهها جدية :

ــ لن أستطيع إقناع المعلم ثانية أن يعفو عنك ..

ثم وهى تصعد الدرجات إلى داخل البيت :

ــ غجرية !؟ ..

ذبالــة

قال عباس الخوالقة :

– إذا لم تكن مهجة قد أكملت فرحتها ، فلابد أن أعيد ليالى الفرح من أولها ..

ليلة الحنة تسبق ليلة الفرح . تعلق الزينات ، ويغنى العوالم ، وتُزف الصينية فى شوارع السيالة ..

ظلت مهجة على صمتها . تتابع الكلمات والتصرفات بعينين تائهين ..

صحبتها أمها ــ والشمس فى الأفق الشرقى ــ إلى الشيخ عبد الحفيظ ، إمام سيدى على تمراز . تلا فوق رأسها آيات من القرآن ، وردد أدعية ، وتمنى لها الفلاح . ثم كنست أم محمود بيت العروسين فى شارع سيدى كظمان . من الباب الخارجى إلى داخل الشقة . حتى بلكونة المنور المطلة على خرابة ، جمعت ما كان فيها من أوراق صغيرة ، وحرقته . وقرأت آية الكرسى ، وحوقلت ، واستعاذت من الشيطان ، ودعت للعروسين ، وهى ترش الشقة بالملح ..

أسلمت مهجة جسمها ليد زمزم الداية ، تنزع الشعر عن الوجه ، وتحت الإبطين ، والساقين ، والعانة . ثم تجرى بالجلسرين والليمون والكريم . لم يكن فى بال مهجة شئ . كأن الأمر لا يعنيها . كأنها ليست هنا ، أو أن الجسد ليس جسدها ..

شدد الخوالقة على صبيانه فى شرائهم للحنة من سوق الدقاقين . أن تكون بلدية . لونها قاتح ، وخواصها معروفة ، بعكس الحنة الإفرنجى أو البغدادلى . أزهارها باهتة اللون ، ولا تستخرج من شجرة الحنة . خليط نباتات يصيب الشعر بالجفاف والتقصف ..

أصر الحاج محمد صبرة أن يتولى بنفسه تحنية يدى وقدمى العريس ، وحلاقة شعره ، وإعداده للزفاف ..

ــ أعود لما نسيته من أجل عينى الخوالقة ..

زادت أم محمود من نثر أوراق الحنة الجافة على العتبات ، وداخل البيت . تلحقها بأدعية تطلب البركة والخير . وتضوع البخور . اختلطت روائح المستكة وعين العفريت والحتتيت والكسبرة وعرق الحلاوة والشبّة وكناسة العطار ..

ضايقها أن الحاج قنديل لم يأذن لأم أولاده بحضور ليلة الحنة . لما وجه عباس الخوالقة دعوته ، اعتذر الحاج قنديل بأن المرض أقعد المرأة ، فهى لا تغادر البيت إلاّ للطبيب ..

قال مصطفى :

ـ العريس أهدانا حنة ممتازة ..

وضعت الصينية داخل فانوس كبير من الأوراق الملونة . غرست فيها أكواب زجاجية مملوءة بالرمل ، بكل منها شمعة ..

مضت الزفة فى شوارع الحى . تتوقف أول كل شارع أو حارة . تحصل على التحية من الواقفين على الأبواب ، وفى النوافذ ، وداخل الدكاكين . يوضع الفانوس فوق كرسى مرتفع . يرقص الأولاد والبنات حولها ، ويغنون :

يا حلوة ضمى الغلــــة   وريني شعرك وريني

لتكوني قرعة تغشيني   شعرك حلــو عجبتيني

يا حلوة ضمـــى الغلّــة   وريني رجلك ورينـــى

لتكوني عرجــة تغشيني   رجلك حلوة عجبتينـــى

يا حلوة ضمى الغلّــــة   وريني عينــك وريتـــى

لتكوني حولة تغشيني   عينك حلــوة عجتينـــى

قال عباس الخوالقة :

ــ هذه حنة فلاحين .. غنّوا حنة الصيادين ..

قالت أم محمود :

ــ لا يوجد حنة فلاّحى وصيادى .. أغنيات الحنة للجميع !

وتعالت أصوات الأولاد والبنات :

الحنـــة يا الحنـــة .. يا قطـــر النـــدى ..

يا شباك حبيبى ياعينى .. جلاب الهوا ..

مضى الموكب من ميدان أبو العباس إلى حارة أبو يوسف . قبل أن يميل إلى السيالة ، أوقفته صيحة مفاجئة :

– انتظر !

توقف الموكب عن الغناء ..

إتجهت الأعين المشدوهة ، المتسائلة ، الخائفة ، إلى المنظر الذى حمله الرجل : كرسى صغير ، عليه صينية مستديرة ، فوقها شموع مضاءة ، وحنا معجونة ، ورصت فى جوانبها ورود ..

قال وهو يضع المنظر على الترابيزة :

ــ هذه الحنة هدية المعلم حنفى قابيل ..

قال مصطفى الخوالقة :

ــ معنا الحنة ..

قال الرجل :

ــ النبى قبل الهدية ..

قال مصطفى :

ــ الحنة معنا تكفى وتزيد ..

قال الرجل بلهجة ذات مغزى :

ــ هل أعود إلى المعلم بهديته ؟..

همس محمود الخوالقة :

ــ ألم ينته عهد الفتوات ؟...

قال مصطفى الخوالقة :

ــ أستطيع أن أخطف رجلى إلى نقطة الأنفوشى ..

أدرك عباس الخوالقة ما يعنيه الرجل . قال لتفوت الليلة على خير :

ــ هدية المعلم حنفى قابيل مقبولة . جميل أن يضع العروسان نوعين من الحنة !

الخوالقة يطلب الطلاق

خلا شارع السيالة من المارة . الأضواء الباهتة ، المنبعثة من أخصة النوافذ تريق تكوينات متداخلة على الجدران وأرض الطريق . لا صوت سوى وقع قدميه فى الأرض الموحلة . لمح مطعم النبلاء مواربا . خلا من الزبائن ، والكراسى مقلوبة فوق الطاولات ، وسلامة مشغول بتقطيع الخضار . وثمة قطان علا مواؤهما ، وهما ينبشان بقايا سمك ، وعربات يد ، صفت فى جانب الشارع ، لفت بمشمع وحبال تصعّب التعرف إلى مابها ..

كانت قهوة الزردونى قد أغلقت ثلاث ضلف ، بينما فتحت الرابعة ، المواجهة للنصبة ...

جلس فى الركن أربعة ، اثنان يلعبان الكوتشينة ، واثنان مشغولان بالحديث . تبين خميس شعبان بشعره المنكوش ورقبته المندفسة فى ياقة الجلابية . وثمة تكوينات ،

فى السقف والجدران ، تشكلها اهتزازات الضوء المرتعش للمبة المتدلية من السقف ..

اقترب ، فتعرف إلى الثلاثة الآخرين ..

ألقى تحية المساء ، وقال :

ــ أريدك يا حمادة بك فى كلمة ..

سأل عنه فى الأماكن التى يتردد عليها : جامع أبوالعباس وقهوة فاروق ووكالة درويش بشارع الميدان ..

قال الحاج محمد صبرة :

ــ اسأل عنه فى الزردونى ..

ثم فى صوت متعجب :

ــ يعد للانتخابات قبل أن يحل البرلمان القائم !

بدا عباس الخوالقة مهموماً بما لم يعهده من قبل . العصبية واضحة فى ارتعاشة أصابعه ، وبربشة عينيه ..

تعالت ــ وراء الباب المغلق ــ دقات الطبول والدفوف وأصوات الطاسات والصاجات والأغانى والصيحات والنداءات والزغاريد ..

نزع فؤاد أبو شنب الطربوش . قذف به فى فراغ الحجرة ، ثم بدأ فى فك أزرار الجلابية . تجرد من ملابسه .

دعا مهجة للتخلص من ملابسها . ظلت قاعدة على طرف السرير . لامس صدره ظهرها ، ولثم كتفيها بقبلة طويلة . مال برأسه على ذراعها ، وألقاها على ظهرها ..

أعدت نفسها لخطوات رتبتها أمها . أغلقت باب حجرة نومها من الداخل . جلست على كرسى التسريحة ، وأشارت إلى مهجة ، فجلست على طرف السرير ..

ـــ الليلة تبدأ مسئوليتك فى تكوين أسرة جديدة ..

ولامست صدرها بأصابعها :

ـــ من ناحيتى ، أنا لم أقصر معك فى شئ .. تستطيعين القيام بأعباء بيتك بمفردك ..

ثم كأنها تطمئن :

ـــ أليس كذلك ؟..

هزت مهجة رأسها مؤمنة ..

قالت أم محمود :

ـــ مسئولية البيت ليست طبخاً وكنساً فقط .. فللرجل حقوقه ..

واحتضنت شرود البنت :

ـــ المرأة فى شرع الله مجعولة لزوجها ..

وداخل صوتها ارتباك :

ـ عليك أن تعطى لزوجك من نفسك كل ما يطلبه ..

وحدقت فيما لا يرى :

ـ هذه هى سنة الحياة ، وهى الطريقة التى أنجبتك بها أنت وإخوتك ..

وربت فخذ مهجة برفق :

ـ أثق أنك ستحسنين التصرف ..

ثم وهى تغالب ـ للمرة الأولى ـ غيمة دمع فى عينيها:

ـ دعواتى ـ يا غالية ـ أن يحفظك الله فى نفسك وزوجك وأبنائك بإذنه تعالى ..

باخت مشاعر فؤاد أبو شنب حين أجابت فى ندائه عليها : يا هشام . ثم التمس لها العذر فى خطبتها الطويلة لابن المعلم كشك ..

وضع ذراعه حول وسطها ، فانتفضت . جذبها ـ بعنف ـ نحوه . شهقت ـ للمفاجأة ـ وتملصت إلى أسفل..

اندفع نحوها ..

مد يديه ، يحاول أن ينزع ثيابها . قاومته بيديها ، وبالصرخات المكتومة ..

همست لأمها :

ـ أنا لا أحبه ..

قالت أم محمود بلهجة بائرة :

ـ هو يحبك .. وهذا يكفى ..

ـ لكننى لا أحبه .. أنا لا أعرفه !..

ـ ومنذ متى تعرف الفتاة زوجها قبل الزواج ؟..

ثم وهى تربت كتف مهجة :

ـ بعد الزواج تأتى المعاشرة .. والحب ..

التف ذراعه حول خصرها ، واجتذبها نحوه بقوة . مالت برأسها ، وأعلى صدرها إلى الخلف . لحق رأسها براحة يده اليسرى . فحت أنفاسه اللاهثة فى فمها المفتوح ..

هوى على شفتيها . قبل شعرها ، ووجهها ، ورقبتها . بحثت أصابعه عن أصابعها ، تداخلت فيها . زاد من ضغطه على صدرها . ابتلع شفتيها فى فمه . ظلت شفتاها مضمومتين ، وهى تحاول التملص . ثم استطاعت دفعه بآخر قوتها ..

تناثرت النصائح والهمسات من أفواه النساء والبنات ، منذ بدأت التزين فى ليلة الحنة . أعدها الكلام ــ بين الجد والدعابة ــ لمواجهة ليلتها الأولى . تبدل المشهد بما لم تكن تتوقعه . غابت التصورات فى الوجه المتقلص الملامح ، والعينين المحتقنتين ، والشارب المرتعش فوق شفتين ممتلئتين ..

همست فى صوت متحشرج :

ــ إذا اقتربت .. سأقتل نفسى !

فى هدوء مخيف :

ــ هذا شأنك !..

حاول ــ ثانية ــ أن يجذبها إليه ، لكنها انتزعت ساعدها من يده . أطارت ــ فى اندفاعها ــ طبق الفاكهة على الترابيزة المجاورة ..

اندفعت نحو الباب ..

مد قدمه ، فتعثّرت . لحقها وهى تسقط . رفعها من كتفيها ، وأدارها ناحيته بقسوة ..

تراجعت حتى تساندت على الباب ، وتكورت على نفسها ..

اقترب بجسده العارى ، ولهاثه :

ــ مكسوفة من زوجك ؟!

احتواها بين ذراعيه . مال بوجهه عليها ، يريد تقبيلها . ضربته بقبضتيها ضربات متلاحقة . علا برأسه ، فتملصت ثانية ، ودفعته بقدمها . تعثر ، وسقط . تساند على أصابع يديه ، وهو يرميها بغضب مشتعل :

ــ من تظنيننى ؟!

قفز بحضنه . خربشت بأظافرها وجهه وعنقه . عضته ، فلم ترفع أسنانها حتى تأوه ..

انطلقت الصرخة من حلقها ، قبل أن يكتم فمها براحة عريضة ، متقلصة ..

لوى شعرها فى قبضته . دفع برأسها فى الحائط . فاجأها بما لم تكن أعدت نفسها له ، وآلمها . تحملت وهى تبكى . كزت على أسنانها ، وتأوهت ، وصرخت ، وحاولت التملص .. لكن أصابع يديه كانت قد تشابكت حول صدرها من تحت إبطيها ..

تذوقت شفتاه الطعم الملحى لدموعها . قال فى ضيق :

ــ هل هو فرح أو مأتم ؟

ثم وهو يرتدى ثيابه :

ــ أنت حلالى.. من حقى أن أفعل بك ما أشاء !

تركت البيت فور خروجه ..

حمدت الله أن أباها نزل الحلقة ، فروت لأمها ..

هتف عباس الخوالقة – بعد عودته – لكلمات المرأة الهامسة :

ــ لابد من تطليق البنت !

ثم قال لنظرة عتاب صامتة ، حدجته بها المرأة :

ــ أخطأت لما قبلت تزويجها له .. والخطأ مردود !

قال حمادة بك :

ــ أنت لم تسألنى قبل أن توافق على زواج ابنتك من فؤاد أبو شنب ..

نفخ الخوالقة فى ضيق :

ــ ذلك موضوع انتهى !

قال حمادة بك :

ــ امنحنى فرصة لحل المشكلة بالود ..

غالب التردد . فتش عن الكلمات التى تشير الى فعلة الرجل . هز رأسه فى حسم :

ــ لا فرصة !

هل أقطع ذراعى من أجل امرأة ؟!.. أصوات الصيادين تهمنى ، وفؤاد أبو شنب هو المسئول عن الفرن قبل وفاة أبى ..

ــ فوّت هذه المرة يا عباس . الطلاق أبغض الحلال ..

رماه الخوالقة بنظرة لم يعهدها فى عينيه ..

قال لينهى الموقف :

ــ أعدك بدفعه إلى تطليق البنت ..

قال الخوالقة :

ــ هذا كل ما أريده ..

ثم وهو يتهيأ للقيام :

ــ لا أريد إلاّ ابنتى !

الشوطة

قال الحاج قنديل ، وهو يجيل نظرته فى أرجاء الحلقة :

- اللهم إنّا لا نسألك رد القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه !

خلت من الحركة . لا أحد ، إلا أربعة رجال انشغلوا بصف الطبالى القليلة ، المتناثرة ، وهواء الصباح الخريفى ، أثقلته رطوبة خانقة . اختفت القطط . كانت تصطدم ــ أيام العمل ــ فى الأرجل والطوالى والمشنات والطاولات والكراسى . وثمة كلب أقعى فى المدخل ، تدلى لسانه ، ولهاثه مرتفع ..

قال فى نبرة متصعبة :

ــ من أين جاءتنا هذه الشوطة ؟..

قال خميس شعبان :

ــ يقال إن السبب أغذية ملوثة فى معسكرات الإنجليز بالتل الكبير ..

وهو يهز رأسه :

ــ المسافة بعيدة ..

قال خميس شعبان :

ـ لهذا قيدوا حركة المواصلات ..

استغنى ـ لضعف السوق ـ عن ثلاثة من موظفيه ، كانوا يسجلون حصيلة بيع كل يوم فى الحلقة . لاحظ حملات مفتشى الصحة ، يصادرون الغذاء المكشوف ـ الخبز والخضار والفاكهة والمشروبات غير المعبأة ـ يقذفه العمال فى عربات البلدية . أنصت ـ مذهولاً ـ إلى ما روته الصحف عن دفن الموتى فى الجير ، والجنازات الجماعية فى المناطق التى دخلتها الشوطة ، وإشعال النيران فى الأماكن الملوثة . حتى البيوت حرقت بعد أن دفن أصحابها فى الجير ..

ألف الناس رؤية عمال الصحة ، يأتون بعرباتهم ، أو على الأقدام ، يحملون أنابيب ضخمة ، ويمسكون بأطراف الخراطيم المتدلية منها ، يرشون الشوارع ، وداخل البيوت والدكاكين والقهاوى ، لا تشغلهم تأففات الناس ولا اعتراضاتهم ، يعفرون كل شئ بلون رمادى ذى رائحة مميزة ..

شكا المعلم أحمد الزردونى من أن البواخر تدخل الميناء ، فتظل أياماً دون أن تحصل إلاّ على حاجتها من الوقود . أما الماء والطعام ، فالخوف من الشوطة يمنع شراءهما . حتى البحارة والركاب يظلون فى البواخر ، لا ينزلون منها ..

لحقه محمود بعامود الطعام . حذرته أم محمود من تناول أكل السوق ، أو الأكل مع الرجال ، وحذرته من العدوى فى الحلقة والقهوة والطريق ..

داوم عباس الخوالقة على شرب الليمونادة ، ونصح بها أم محمود والأولاد ..

تناقلت جلسات القهاوى ما نشرته الصحف عن القىء والإسهال وعنابر المستشفيات ، وابتلاع الجير الحى جثث الموتى ، والعلامات على أبواب البيوت التى دخلتها الشوطة . وروى خميس شعبان أن الحكومة استولت على مجيرة عم سعد بشارع إسماعيل صبرى ، تحسباً للخطر ..

غالبت خطوات محيى قبطان الارتباك ، وهو يقترب من قهوة الزردونى :

ــ الموت وصل بحرى !

أردف للنظرات المتسائلة ، الخائفة :

ـــ ظهرت حالات كوليرا فى رأس التين ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـــ لكن مكتب الصحة لم يبلغ بحالة واحدة ..

قال محيى قبطان :

ـــ هذا ما عرفته الآن من صابر الشبلنجى ..

قال الجد السخاوى :

ـــ جاءت الهيضة فى القرن الماضى ، فلم تقتل أحداً ..

سأل حمودة هلول :

ـــ م الهيضة ؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـــ الكوليرا .. الشوطة .. الهيضة .. كلها مسميات لمرض واحد ..

لم تعد سيرة كوم بكير تأتى على لسان . قيد الخوف تصرفات الرجال . من البحر إلى الحلقة ، وإلى البيوت . قلت أعداد المترددين على قهوة الزردونى . لزم الرجال ـــ معظم الأوقات ـــ بيوتهم . وعلا صوت المعلم أحمد الزردونى بالضيق من الخوف والبطالة . وقال فى نبرة

حزينة : حتى العمل فى الجمرك والميناء ، قل تماما .. وقلت حركة المغادرين والوافدين ..

قال حمادة بك لفؤاد أبو شنب :

ــ غط العجين يا فؤاد ..

ثم وهو يمسح الفرن بنظرة قلقة :

ــ غط الخبز أيضاً ..

لم يعد رجال التموين يكتفون بوزن الخبز ، وتحليل العجين . يصادرون الأرغفة لأنها مكشوفة ، يقذفون بها فى عربات البلدية ، لإعدامها ..

قال أبو شنب لطاطا الفران :

ــ غط العجين ..

تساءل طاطا مازحاً :

ــ ليسلم من العين ؟!..

قال أبو شنب :

ــ بل ليسلم من أذى مفتشى الصحة ..

فى نبرة ساخطة :

ــ كل أكل ظاهر يعدمه أولاد الحلال !

تنفس الجميع الخطر . اتقوه فى المصافحة والطعام والماء ، وفى قتل الذباب . يشكون فى أى قئ أو إسهال . ولما شكا قاسم الغريانى من صداع ، حدجه عبد الوهاب رزق بنظرة توجس ، وغادر قهوة الزردونى .

وضع حمادة بك ــ فى مدخل البيت ــ صينية ديتول مذاب فى الماء ، يغسل فيها الجميع أيديهم عند عودتهم من الخارج . ومنع ولديه من الذهاب إلى المدرسة ، ولزم بيته إلاّ لمشاوير قصيرة . لم يعد يتردد على أبو العباس ، وجلسة الحاج محمد صبرة ، والقهاوى . وامتنع عن مصافحة الأيدى فى الطريق . قرر أن ينتظر حتى تزول الغمة . حتى الأصوات الصاخبة فى داخله ، أفلح فى كتمها ..

أغمضت هنية ، بنت هريدى بائع الفاكهة أول شارع البوصيرى ، عينيها ، وضمت شفتيها ، فقال لها عادل عبد الوهاب مرزوق :

ــ أنا أحبك ..

ووشى صوته بخوف :

ــ أخشى من عدوى الكوليرا !

تحركت أنفاس الوباء الغامض ، الغريب ، فى الشوارع والميادين والحوارى والبيوت والدكاكين ، وفى جلسات القهاوى ، وعلى الشاطئ . وخلا شارع الميدان من الباعة ، وملأت عربة المبيدات الجو بغلالات بيضاء ، متوالية ..

تحدث إمام أبو العباس فى درس المغرب ، عن فوائد الليمون فى الوقاية من المرض . وقال الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع على تمراز فى خطبة الجمعة ، إن ما يحدث سببه نسيان الله والدين والشرع ، والإقبال على الدنيا بالحق والباطل . وقال :

ــ لقد أصبحنا محاصرين بالموت ، ولا نجاة سوى بالإخلاص فى التوجه إلى الله ، إن لم يأتنا فضل من اللطيف الرحيم ، فإن تحلل الجسد فى الجير الملتهب نهاية تنتظر أجسامنا .

وحذر من أن الشوطة ربما تأخذ الناس كلها ، وتقوم القيامة ! ..

تعالت التحذيرات من أكل الجندوفلى وأم الخلول والجنبرى ، وعانى عم محمد الطوشى كساد بضاعته ، فلزم قهوة كشك ، لا يغادرها ..

لم يعد عبد الوهاب مرزوق يطيق رؤية الذباب . ذبابة واحدة قد تنقل الوباء إلى أسرته كلها ، ووزع أقراص الدواء على جلساء قهوة الزردوني ..

تلاحقت أمواج التنبيهات والترقب والخوف والتدافع . تصاعد البخور ، يخفي البنايات والناس والأشياء ..

قال قاسم الغرياني :

- حتى الرجل الطيب الحاج محمد صبرة ، أخذته لوثة ، فراح يعمل بمقصه في الهواء أمام الدكان ..

وداخل صوته اشفاق :

- المسكين !.. يريد أن يقص الميكروبات قبل أن تدخل دكانه !

تزاحم الناس ــ طلباً للمصل الواقي ــ على مستشفى الملكة نازلي ، ومكتب الصحة بشارع فرنسا ، ومستشفى رأس التين . تزايد الضغط ، فانفرطت الصفوف . علت الصيحات والصرخات أمام الباب المغلق ، لا يفتح إلا لاستقبال خمسة أشخاص . يظل مغلقاً حتى يحصلون على الطعم ، فيفتح الباب لخمسة آخرين .

قال صابر الشبلنجي :

- أنا لم آخذ الطعم ، ولازلت حياً ، مع أنى لا أغسل حتى يدى ..

يصق حمودة هلول ناحيته :

- الله يقرفك !

قال صابر فى دهشة :

ـ ولماذا الطعم ؟.. المرض إذا دخل الجسم لن يستطيع الأطباء فعل أى شئ !

منع حمام الأنفوشى تردد الصيادين عليه . قصر دخوله على الموظفين وتلاميذ المدارس للاستحمام ، ولتطهير ملابسهم اتقاءً للوباء . يصرفون لكل مستحم صابونة ، لا يعيدها . اكتفى الرجال بالنزول إلى البحر .

ضربت أم عادل صدرها بيدها :

ـ ابنى لا يذهب إلى حمام الحكومة ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـ كل الأولاد يذهبون ..

وهى تنفض الفراغ :

ـ إلا ابنى !

تغيرت سحنته بضيق :

ـــ على رأسه ريشة ؟!

ـــ انه ليس وسخاً لينظفوه ..

قال الحاج محمد صبرة :

ـــ هذه أفاعيل الإنجليز .. وإلاّ لماذا ظهرت فى القرين أولاً ؟!

قال المعلم أحمد الزردونى :

ـــ قيل إن متعهدى نقل الزبالة باعوها للناس ..

قال الحاج محمد صبرة :

ـــ الإنجليز يعرفون ذلك .. وقد دسّوا المرض فى الزبالة ..

ثم بلهجة ناصحة :

ـــ أنا أغسل كل شئ بالبرمنجانات ..

قال المعلم أحمد الزردونى :

ـــ والماء ؟.. قيل إن التلوث أصابه ..

قال الحاج محمد صبرة :

ـــ أنا أغلى الماء أولاً .. ثم أتركه يبرد ..

قال الجد السخاوى :

ـــ بركة الأولياء ستنقذنا من هذه الشوطة ، مثلما أنقذتنا من حرب هتلر ..

تسللت رائحة البخور ، قوية ، نفاذة ، من تحت الأبواب ، وأخصة النوافذ ، وشقوق الجدران ، تملأ الجو والفراغات المغلقة ، تتسلل داخل الأجسام المتعبة ، الخائفة . تزايدت ، واتسعت ، حلقات الذكر . علت الأصوات بالوجد والخوف والأدعية . ضاقت ساحات الجوامع بالمصلين . فرشت الحصر فى الميادين والشوارع الجانبية ..

صعد الشيخ قرشى قارئ جامع سيدى على تمراز إلى أعلى المئذنة ، وأذن فى غير وقت . ثم دعا الله برفع الوباء . قلده ـــ فى اليوم نفسه ، وفى الأيام التالية ـــ قارئو جوامع الحى . حتى الزوايا ، صعد إلى أسطحها من أذن ، ودعا إلى رفع المقت والغضب عن عباد الله الصالحين ..

فرد جابر برغوت ورقة أمامه . كتب عليها أدعية وإشارات وأسماء الله الحسنى وأسماء بعض الملائكة وآيات من القرآن الكريم . ورسم أشكالاً للإنس والجان والحيوان ومربعات سحرية ..

رأى جابر برغوت سلطان الإسكندرية يقف أعلى المئذنة ، يطل ــ بنظرة مشفقة ــ على بحرى الساكن ، المضطرم ، من تحته . راح يهز راحتيه إلى أسفل ، ويرفعهما ، وهو يتمتم بدعوات غابت فى الفضاء الممتد . ثم مسح على جبهته ، ودخل إلى المئذنة ، فلم يظهر بعدها ..

أيد رواية جابر برغوت رجال ونساء ، تصادف مرورهم فى الميدان ، أو كانوا جالسين فى الحديقة المقابلة للجامع ، أو فى القهوة على ناصية شارع التتويج ..

قيل إن الشوطة ابتلعت المئات فى المدن والقرى البعيدة . منعت بركات السلطان دخول الشوطة من مديرية البحيرة . ظلت الإسكندرية آمنة ، حتى زالت الشوطة من البلاد كلها

***

لحقه صوت صابر الشبلنجى وهو يتجه إلى قلب السيالة:

– البقية فى حياتك !

– من ؟

قال الشبلنجى فى نبرة متصعبة :

ــ مصطفى عباس الخوالقة ..

هتف قاسم الغرياني :

ــ معقول ؟! .

في تصعبه :

ــ مات عند أخواله في دمنهور ..

وأغمض عينيه :

ــ الشوطة ..

نطق الألم في وجه الغرياني :

ــ ماذا كان يفعل هناك ؟

قال الشبلنجي :

ــ ضايقته قلة الشغل في الحلقة .. فسافر إلى أخواله ..

وتنهد :

ــ ليموت عندهم ..

ثم وهو يغالب التأثر :

- عمره ! ..

الخدمة فى ساحة الطهر

قال أبو الحسن الشاذلى : " صحبنى إنسان ، وكان ثقيلاً علىّ ، فباسطته فانبسط ، وقلت :

ــ يا ولدى .. ما حاجتك ، ولم صحبتنى ؟

قال :

ــ يا سيدى .. قيل لى إنك تعلم الكيمياء ، فصحبتك لأتعلم منك..

قلت :

ــ صدقت ، وصدق من حدثك .. ولكن أخالك لا تقبل..

قال :

ــ بل أقبل .

***

" لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق ما بين السماء والأرض . وأما الأنوار التى أذن لها فى الدخول ، فهى خاصة بالخواص أهل التفرغ من الأغيار .. فأما من كان قلبه محشواً بصور آثارها ، فلا يطمع فى نيل أسرارها"..

ميزته ـــ فى غبشة الظلام ـــ وهو يميل من ميدان الأئمة إلى شارع ابن وقيع . تبعته ـــ كما ألفت فى الأشهر الأخيرة ـــ لاحقته ـــ فى مشاويره القليلة ـــ بين البيت وزاوية الأعرج وأبو العباس . تتوقف إذا توقف لشراء ما يحتاجه من الباعة فى ميدان الأئمة . فطن إلى خطواتها المتمسحة فى الأرض . اتجه ناحيتها بنظرة مشفقة :

ـــ سيكون خيراً يا تفاحة ..

تهدج صوتها باللهفة :

ـــ هل وافق سيدى ..

أعاد القول :

ـــ سيكون خيراً ..

عملت ـــ لأعوام ـــ رداحة . تتقاضى المعلوم ، وتقف أمام البيوت ، أو تحت النوافذ والبلكونات . ترفع صوتها على آخره ـــ مع إشارات وحركات بأصابعها ويديها وساقيها وكل جسمها ـــ بعبارات متلاحقة من الشتم والسب والمعايرة . حفظت الكثير من التعبيرات القاسية ، والفجة ، والبذيئة ، لا يشغلها من توجه إليه سبابها . تواجهه بما لا

يقوى على رده . لا تطلق السباب أو الشتائم . تسجع العبارات ، تنغمها ، تمططها . تردح بمفردها . لا يعاونها أحد . ربما استعانت بطبالة ترافق ردحها بإيقاع منتظم . وقيل إن حمادة بك لجأ إليها للصوات فى مأتم أمه . كانت تدرك أنها ربما تتجاوز الردح إلى الدخول فى خناقة . تعتمد على قوتها فى رد المفاجأة . تحرص فلا تجاوز إحداث سحجات وكدمات وجروح سطحية وتورم . لم تكن تزيد عن الردح إلا إذا انفتح باب البيت ، وواجهت من يريد إسكاتها . تتهمه بخدش عفتها إن كان رجلاً . فإن خافت قوته ، قبضت على خصيته بيدها ، تعتصرها ، فتدفعه إلى التهاوى على ركبتيه . حين لا تكون فى قوة المرأة التى تردح لها ، تمد إصبعيها فى فمها . تسحب من تحت لسانها شفرة حلاقة . تلوح بها فى وجه المرأة . تفاجئها ــ ثانيــة ــ عندما تجرى بالشفرة على خدها ، فينتثر الدم . قد تلجأ إلى الخفة : تفاجئ المرأة بشد شعرها ، تقع المرأة على الأرض ، فتبرك فوقها ، تخمشها وتعضها وتضربها بآخر ما عندها . أخفى الناس عنها خصوصياتهم ، فلا تحصل على ما قد تستخدمه ضدهم ..

أخطأت لما وقفت أمام بيت حسن درويش ، صاحب وكالة الاستيراد والتصدير بشارع الميدان . خرج لها نساؤه . أحطن بها ، ولوين ذراعها ، قبل أن تفعل ما تتهمهن به . لم يتركنها إلاّ بعد أن أقسمت على الشمس الحرة أنها ستهجر الردح !..

جلست ـــ أشهر الدراسة ـــ أمام مدرسة البوصيرى الأولية ، تبيع للأولاد العسلية والنبق والدوم . ثم لفت جسمها برداء أسود ، والتفت بشال أسود ، وجلست فى ميدان المساجد . لا تستقر فى مكان بالذات ، لصق جدار المرسى ، أو أمام باب ياقوت العرش ، أو على سلالم البوصيرى المفضية إلى شارع التتويج ..

لا يذكر الناس كيف بدأ سعيها وراء الشيخ يوسف بدوى . اعتادوا ـــ وإن غابت البداية ـــ سيرها وراءه من البيت فى شارع ابن وقيع ، إلى ياقوت العرش ، ورجوعه إلى البيت عقب صلاة العشاء . تلزم الرصيف بالقرب من باب الجامع . تسند ذقنها على يدها ، لا ترفض الإحسان ، وإن حرصت ألاّ تسأل ..

ألف مريدو الشيخ ترددها عليه . تسأله فى أمور دينها ودنياها . تظل واقفة بجوار الضريح حتى يراها . يستأذن من جلسائه ويتجه إليها . تسأله ويجيب . لا تطيل سؤالها ، ولا يطيل جوابه . يعود إلى جلسائه ، فيثنى على إيمانها وذكاء أسئلتها ، ويتمنى أن يكون هذا هو حال نساء المسلمين . صلاحها أكسبها حريتها ، بعد أن كانت تبيع قوتها وجرأتها لمن يدفع الثمن . عزفت عن فكرة الزواج ، وانقطعت عن أسباب الحياة الدنيا . راقبت حياة الشيخ ، فأزمعت أن تظل بالقرب منه . لم تسأل نفسها : ماذا بعد ؟..

تملكها بقوة غيبية ، عجزت عن مغالبتها . أظهرت الخدمة والملازمة ، فلم تتحول عن باب بيته . لازمته ملازمة المريد الصادق لشيخه العارف ، يسير فى ضوء تربيته ، وينهج طريقه لا يحيد عنه ..

عرف عنها صدها لمن طلبوا الزواج منها . ترفض دون أن تسأل عن الاسم ولا المظهر ولا المكانة الاجتماعية ، كأنها مشغولة بمن لا يعرفه أحد . حين ألح عليها بصرى حميدة ، الفاكهانى بأول شارع الموازينى للزواج منه ، وافقت . بدا لها الزواج من يوسف بدوى أملاً مستحيلاً . لما دخل

عليها بصرى ، جاءها الحيض . انتظر أسبوعاً وهم بها ، فجاءها الحيض . تكرر الأمر حتى أدركت أنها مكتوية للشيخ يوسف بدوى ، فطلبت الطلاق من زوجها ، وعادت إلى ملازمة الشيخ . ثم فاجأت الجميع بزواجها من الشيخ . انتظرته على درجات أبو العباس المفضية إلى ميدان المساجد..

لحقته بالهمس :

ــ سيدى ..

تنبه لثالث نداء :

ــ هل تقصدينني ؟

قطر صوتها بالمسكنة :

ــ تحتاج لمن يخدمك ..

حدجها بنظرة متوجسة :

ــ هل أرسلك أحد ؟..

ربتت صدرها براحتها :

ــ بل أتيت من نفسى ..

وهمست :

ــ خادمتك تفاحة ..

وهو يحك ذقنه بأظافره :

ــ بيتى صغير .. ولا مكان فيه للنساء !

رفت على شفتيها ابتسامة متذللة :

ــ أريد دخول بيتك بالحلال ..

أطال النظر فى ملامحها ، تحت النور الذى تريقه اللمبة الهائلة فى مدخل الباب . بدت فى حوالى الثلاثين . حبكت الملاءة حول جسمها ، وإن ناقضت حمرة صبغة شعرها بشرتها السمراء . عيناها سوداوان ، تطلان من رموش طويلة ، يعلوهما حاجبان أجادت رسمهما ، وجسمها أقرب إلى الامتلاء ، يتسق مع طولها البادى ..

قال :

ــ ربما لا أتفرغ لحياتى كزوج كما ينبغى ..

همست باللهفة :

ــ وأنا أريد أن أتبعك فى تفرغك لعبادة الله !..

لم يرد على قول المرأة ، ولا أخذ منها أو أعطى . اكتفى بالقول :

ــ فعل الله الخير !..

وهبط الدرجات إلى الميدان الواسع ..

أخذ عليها العهد ، لا تفارقه أينما حل وذهب . تنصرف إلى عبادة الله وخدمة الطريقة . تصبح واحدة من أهل الطريق ، يجرى عليها ما يجرى على مريديه ، فلا تسأل ولا تعترض ، وتحيا معه كأنها ميتة . أذن لها فى صلاة استخارة ، لا خيار لها بعدها . تنذر نفسها لله ، يتصرف فيها على النحو الذى تقضى به مشيئته .

قبلت الحياة فى بيت الشيخ دون زواج . تخدمه ، وتخدم مريديه ، لا تحصل إلاّ على طعامها . تأكل بعد أن يفرغ الشيخ من الأكل . تسأله ويجيب ، يشرح ما قد يغمض عنها من حقائق . يرقى بتصورها درجات التصوف ، ولا ترى فيه ما تشتهيه امرأة من رجل . غاب التفسير المحدد لهجر المرأة حياتها . التصاقها بالشيخ كالظل بزواج أو بدونه . حتى نبرة صوتها المرتفعة ــ ألفها أبناء بحرى ــ خفتت ، فصارت كالهمس . تنفذ ما تطلبه عيناه ، أو إشارة يده . فنيت فى الوصال ، فصارت مقبولة منه . خمن أنها لم تكن عابثة ولا ماجنة ، ثم مالت ــ من بعد ــ إلى حياة الزهد . هى ــ فى الأصل ــ طيبة ، لم تمارس الردح إلاّ كمهنة

تتكسب منها ، كسبيل لتحياه . ألم تكن رابعة العدوية بائعة هوى ؟..

لما آن أوان التوبة ، أنابت ، وأصلحت ، وعاشت متبتلة . عرفت الطريق إلى احتمال العبادات ، وملازمة الأذكار ، والسلوك بأسرار الحروف . وكانت تنخرط فى صلاتها بالكلية ، فتستغرقها . صار لها أوراد وسياحات وكشف ، وغيرها من الخصوصيات ..

ما يمنع أن تصدق المرأة فى توبتها ، وتطهر روحها من العذابات ؟..

قالت فى لهجة مستغيثة :

ــ هل يتوب الله علىّ ؟..

قال يوسف بدوى :

ــ أنت لم ترتكبى كبيرة .. إنما هى وسيلة عيش اضطررت إليها ..

وهى تغطى وجهها براحتها :

ــ آذيت ناساً كثيرين ..

ضحك ، وقال :

ــ إنها أذية إنسان .. تضيع إذا تلقفها الهواء !..

أسقط من أذنيه الهمسات : أن المرأة مضت فى طريق الشهوات إلى غير نهاية ، وافتاتت بأذية الناس ، وتطرفت فى حبها للدنيا . غاب فى أقوالها مايشى با تصال حكاياتها المشهورة بما تشعر به ، فهى قد استظلت تحت رواق الندم ، وأفلحت فى قتل الأغيار : الوجود والنفس والشيطان . أيقن أن العدوانية التى امتلكتها المرأة لم تكن وليدة ذاتها . ولّدتها ، ودفعتها ، ظروف لا حيلة لها فيها .

ضايقه ــ فى لحظات كالومضة ــ تبدل نظرته للمرأة ، وتغير تصرفاته نحوها . يعزوه ارتباك لاقترابها ولأسئلتها . يخمن انعكاس نظرات الرجال من حوله . هو لم يسع إلى الجمال . الجمال أتى إليه . وقف عند بابه . لم يقدم نفسه بالإغراء ولا الفحش . عرض الخضوع والمسكنة والخدمة فى ساحة الطهر . ربما الجمال الحسى ــ كما ذهب أوائل الطريق ــ باب الدخول إلى الجمال المطلق . التجليات مقيدة فى الصور المحسوسة . تنطلق إلى عالم الملكوت بفيوضه ، ووجده ، ومدده . ترتقى من درجة الحسن المحسوس إلى مرتبة الجمال المطلق ..

افتر فمه عن ابتسامة ودود ، مشفقة :

ـــ لا يريد الله إلاّ الخير !..

صلاة الجنـــازة

دعا إمام أبو العباس ، فى خطبة الجمعة ، لخوض الحرب . تلا آية القرآن : " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " . وتلا : " ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما أتاهم الله من فضله " ..

بعد أن أتم المصلون قراءة التحيات ، وتهيأوا للانصراف ، لحقهم صوت الإمام :

ــ خمس دقائق ..

أضاف للتساؤل فى الأعين :

ــ سنصلى صلاة الجنازة على الشهيد عبد القادر الحسينى ..

تبادل المصلون النظرات . أقلهم كان يعرف الحسينى . معظمهم لم يكن يعرف من هو . كانت الأحاديث تتناثر عن قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين ، وما تلاه من معارك بين الفلسطينيين واليهود . وانضمام عبد العال ، ابن صياد

الجرافة نصر الساعاتى ، إلى قوات الأخوان المسلمين التى ذهبت للوقوف إلى جانب الفلسطينيين ..

قال عبد الوهاب مرزوق ــ فى قهوة الزردونى ــ لتساؤل محيى قبطان :

ــ إنه قائد فلسطينى قتله اليهود ..

قال محيى قبطان :

ــ وهل هو أول قائد فلسطينى يقتل ؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ الحسينى ليس قائداً عادياً .. كان اليهود يضعون له ألف حساب ...

ــ لماذا لم يأخذ حذره ؟..

ــ دافع عن مدينة اسمها القسطل بمئات من العرب فى مواجهة الآلاف من اليهود ..

لمح الجد السخاوى صابر الشبلنجى قادماً من شارع السيالة . اتجه إليه بنظرة غاضبة :

ــ هل أصبح البحر حماماً للخيل ؟

قال صابر للنظرات المتسائلة :

ــ عفّر التراب جسم الحصان ، فغسلته فى البحر ..

قال محيى قبطان :

ـــ المياه طاهرة .. حرام أن توسّخها بحصانك ..

قال صابر :

ـــ لكن الناس يستحمون ..

قال محيى :

ـــ هل تساوى الخيل بالناس ؟! ..

قال صابر :

ـــ حصانى أنظف من أى بنى آدم !

قال الجد السخاوى :

ـــ أنت قليل الأدب !

وجرى بيده على وجهه ، فبدا كفاه المعروقان :

ـــ ميمون فرس الرسول صلى الله عليه وسلم هى وحدها التى لا تلوث البحر إن نزلته .. فهى من المسك الأبيض والأذفر ، وجناحاها من الدرر والمرجان ..

خالط صوت الغريانى نبرة مؤنبة :

ـــ لماذا فعلت ذلك ؟.. نحن نحيا على رزق الماء !

قال الجد السخاوى :

ـ وماذا كنت تفعل لو ظل قرار منع النزول إلى الأنفوشى سارياً بعد انتهاء الحرب ؟!

قال فى استهانة :

ـ لو من عمل الشيطان ..

قال الجد السخاوى :

ـ المكابرة هى ما تعرفه ..

وعلا صوته فى غضب :

ـ الماء طاهر .. والطهارة لا تقبل إلاّ النفوس الطاهرة!..

وقطب حاجبيه ، فتكرمشت جبهته :

ـ من يعصى الله فى البحر ، فهو يعصاه على أجنحة الملائكة !

ثم وهو يشيح بوجهه بعيداً :

ـ جزاء المعصية فى البحر أضعاف جزاؤها فى البر!..

علا صوت إسماعيل سعفان كالمفاجأة :

ـ البحر طاهر ؟..كيف ؟! .. إنه غول مفترس !

وتداخلت فى صوته بحة غريبة :

ـ يحركم لا قلب له !.. ابتلع البهاء فقتلنى !..

قال المعلم أحمد الزردونى :

ـ المؤمن مصاب !

كان البهاء قد أحكم تقييده فى الأيام الأخيرة . بدأت الكلمات هامسة . تأتى من المطبخ ، أو من الحمام . ربما استمع إليها فى داخل الشقة ، وهو يضع المفتاح فى الباب . جاوزت الهمس فيما بعد . علت بما لا يقوى على سماعه . كأنها الزعيق الصاخب . القهقهات العالية ، المتوالية ، تخترق أذنه ، فتربكه . قال له الولد سمير بن خميس شعبان إن البهاء كان يجاهد حتى لا يغرق ، ويصيح بصوت سمعه الجميع : الحقنى يا با !..

ظل الصوت يطارده . لو أنه كان واقفاً ، ماذا كان يفعل ؟. هو لا يحسن العوم ، لكنه كان سينزل إلى الماء ، وكان لابد أن ينقذ البهاء . وظل الصوت يطارده ..

عوده الفاره زاد نحافة ، وبرزت عظام وجهه ، وانسدل شعره المهوش على جبهته وقفاه ، وانطفأ التماع عينيه ، وغابت نظرته عما حوله ، وأهمل شاربه فتدلى على فمه ، وثمة رعدة خفيفة تسرى فى وجهه من العين إلى الذقن

، تمتد إلى العنق فيبدو كمن يهم بالالتفات . وكان يرتدى جلباباً حائل اللون ، له فتحة فى الصدر ، تبرز منه فانلة متآكلة الأطراف ، ويدس قدميه فى قبقاب خشبى ، يصدر ـــ إذا سار ـــ صوتا ذا إيقاع ..

انتفض خميس شعبان لمفاجأة لسان اللهب ، أطلقه الحاوى الواقف ، أمام القهوة ، من فمه ..

هتف محيى قبطان :

ـــ كدت تقتل الرجل بنارك الملعونة ..

واتجه إلى خميس شعبان بنظرة مشفقة :

ـــ وماذا ستفعل فى نار الآخرة ؟..

قال خميس شعبان :

ـــ نار الآخرة أعدها الله لأمثالك !..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـــ قلبى يحدثنى إن الأخوان المسلمين ذهبوا إلى فلسطين للاستيلاء على القاهرة ..

علا حاجبا عباس الخوالقة بالدهشة :

ـــ فزورة ؟!..

ـ الحرب فرصة لتحويل المتطوعين إلى جيش مزود بالأسلحة ، يدخلون به القاهرة ..

هز الخوالقة رأسه ، وأشاح بيده :

ـ ياه .. أنت تذهب إلى بعيد !..

إغفــاءة

علا صوت المعلم أحمد الزردونى بالغضب . نسى الجرسون ياقوت علبة الشاى ، لم يغلقها ، فأتلفته رطوبة البحر ..

انكمشت الظلال ، وافترشت الطريق والأبنية شمس عفية . وثمة كلب أقعى تحت رصيف القهوة ، يتصيد الذباب بلسانه ..

كان الرجال قد عادوا من صلاة الظهر بمسجد المسيرى المقابل . لاذوا من تعامد الشمس بداخل القهوة . حتى الجد السخاوى ، دفعته الحرارة اللاهبة إلى الداخل . وتعالى من الفونوغراف صوت أم كلثوم :

من أى عهد فى القرى تتدفق

وبأى كف فى المدائن تغدق

قال الزردونى :

ــ ألم يقل النقراشى أن الجيش لن يدخل فلسطين ؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـــ الأوامر من فوق .. من الملك نفسه !

مال محيى قبطان على عبد الوهاب مرزوق . تساءل فى قلق :

ـــ هل نحتاج إلى تخزين الطعام ؟..

الإسكندرية تشغى بكلمات : الحرب والقنابل والغارات والأضواء الكاشفة والمخابئ والهجرة إلى الريف ..

هل تعود أيام الخوف ؟..

اعتدل عبد الوهاب مرزوق فى كرسيه بتأثير المفاجأة :

ـــ لماذا ؟..

قال محيى قبطان :

ـــ الحرب ..

أشاح بيده مهوناً :

ـــ لن تستمر طويلاً .. أعداد العرب الهائلة ستجبر اليهود على الاستسلام ..

قال قاسم الغرياني :

ـــ الولد ابن صياد الطراحة نصر الساعاتى .. تطوع فى الحرب منذ ستة أشهر ، وانقطعت أخباره ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـــ لكن الحكومة رفضت إدخال متطوعين ..

قال عم سلامة بلهجة واثقة :

ـــ تسللوا عبر سيناء ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـــ والإخوان المسلمون ؟..

قال عم سلامة :

ـــ أدّوا دورهم .. الحرب الآن مهمة الجيوش ..

قال حمودة هلول :

ـــ ما يحيرنى : كيف تعترف روسيا بدولة اليهود ، وتحاربها ؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـــ روسيا اعترفت بدولة اليهود .. أما التى تحاربهم فهى سوريا ..

بحلقت عيناه :

ـــ وما الفرق ؟..

قال عبد الوهاب فى ابتسامة إشفاق :

ـــ سوريا دولة عربية !..

قال محيى قبطان :

ـ وماذا عن اليهود المصريين ؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـ سيظلون بيننا .. إذا سافروا إلى فلسطين ، فسيصبحون قوة ضدنا ..

سرح فيما رآه ، وهو يهبط سلم البيت فى الصباح . كان باب شقة الأسرة اليهودية فى الطابق الأول موارباً . دفعه الفضول . فوجئ بالشقة خالية من الأثاث تماماً . خمن أنهم ربما تركوا الشقة والمدينة ، ثم خمّن أنهم ربما سافروا إلى فلسطين ..

قال عم سلامة :

ـ قد يكون تخمينك فى محله .. عرفت من المعلم شوقى تاجر الموبيليا بشارع فرنسا أنهم باعوا له أثاث الشقة قبل أسبوع ..

قال محيى قيطان :

ـ هل لهذه الأسرة شأن بما يحدث فى فلسطين ؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـ لا يكتب على الجدران : فلسطين لليهود ، إلاّ أمثال هذه الأسرة .. إنها ..

قاطعه صوت قاسم الغرياني مهللاً :

ــ أخر الأنباء ..

اطمأن إلى اتجاه أعين الجالسين ناحيته . قال وهو يضغط على الكلمات :

ــ الشيخ يوسف بدوى تزوج من المرأة تفاحة ..

ثم فى نبرة واثقة :

ــ اعتذر لمريديه أمس بأنه لن يستطيع استقبالهم فى شقته ..

قال المعلم الزردونى :

ــ هلى تخلى عن الصوفية ؟..

قال الغريانى :

ــ لا .. لكنه قد يستقبل مريديه فى زاوية الأعرج ..

قال قاسم الغريانى :

ــ هل هما سيد بدوى وفاطمة بنت برى جديدان ؟..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ لا وجه للمقارنة !.. السيد البدوى قطب كبير .. وفاطمة بنت برى من أهل الطريق المهمين !..

هتف الغريانى بالمفاجأة :

ـــ لماذا شرّفت القهوة ؟..

قال جميعى حميدة وهو يسحب كرسياً :

ـــ هل كتبت القهوة بأسمائكم ؟..

قال الغرياني :

ـــ لكنك تفضل البيت ..

إذا عاد من البلانس يلزم البيت . لا يغادره إلاّ لضرورة ، أو لرحلة جديدة . صياد البلانس يغيب بالأيام ، وربما بالأسابيع ، والمرأة تنتظر . من حقها ــ إذا عاد ــ أن يخلو لها . نحن نشتاق إلى المرأة ، فلماذا يغيب عنا أنها تشتاق إلينا ؟..

مال على أذن الغرياني بصوت هامس ، متأثر :

ـــ الولية فخذها مالح ..

أظهر القلق :

ـــ مريضة ؟.. ألف لابأس ..

أردف متسائلاً :

ـــ عرضتها على طبيب ؟..

داخل صوت جميعى حميدة حزن :

ـــ وصفت لها الداية زمزم علاجاً .. والله الشافى ..

ـــ اهلاً يابو حنفى ..

أدرك محمود عباس الخوالقة ، من تهلل الصوت ، ومن النظرات المتطلعة ، الباسمة ، الساخطة ، أن الغريانى فضح سره ..

داخ بامرأة التقطها من رصيف الكورنيش فى الميناء الشرقية . أصدقاؤه إما فى البحر ، أو ليسوا بمفردهم . لما أحاط عنق المرأة بساعده فى سينما الأنفوشى ، تعالت التعليقات الغاضبة . ترك نفسه لها ، وثبت نظرته على الشاشة ، يتظاهر بالفرجة على الفيلم ..

ما كاد يميل من شارع صفر باشا إلى شارع جودة ، حتى واجهته صيحة قاسم الغريانى الفاهمة :

ـــ ماذا فعلت بنفسك ؟..

نظر إلى اتجاه الغريانى فى بنطلونه :

ـــ لا شئ !..

قال الغريانى :

ـــ كبرت على العادة الملعونة ..

ارتبك ، فروى ما حدث . رواه الغريانى فى قهوة الزردونى . علت به التعقيبات والقفشات . حتى النظرة

المستاءة التى طالعه بها أبوه ، فى عودته إلى البيت ، أدرك منها أن السر قد وصل إلى أبيه ..

وضع خميس شعبان راحته على جانب فمه ، ومال على أذنه :

ــ ألم تأخذ درساً من علقة فكيهة بائعة الجندوفلى ؟!..

كان يطيل التحديق فى المرأة أمامه . يفتح عينيه ويزويهما . يميل بجانب رأسه . يرسم على شفتيه ابتسامة متخابثة ، ترقب رد الفعل . قد تظل المرأة فى وقفتها وكلامها ، لا تأخذ بالها من نظراته وتلميحاته . وقد يغلبها الارتباك ، فتبدى الضيق أو الغضب ، أو تلمّح بالاستجابة . لم يكن الأمر ينتهى ــ دائماً ــ فى تلك الصورة . نزعت فكيهة شبشبها ، وانهالت به على رأسه . توالت الضربات متلاحقة ، فتأخر رد فعل دفعها بيديه ، وتدخل الناس بينهما..

قال الجد السخاوى :

ــ دياب أبو الفضل .. هل عاد إلى البيت أو نقل إلى المستشفى ؟..

قال محيى قبطان :

ــ قد يمضى فى المستشفى أياماً طويلة ..

قال حمودة هلول :

ــ نساء سيدنا يوسف جرين بالسكاكين على الأكف .. المسكين دياب أبو الفضل مزق أصابعه بالساطور ..

صرخ خميس شعبان :

ــ اعفنا من ظرفك .. دياب أبو الفضل قد لا يعيش ..

دياب أبو الفضل ؟.. العينان البنيتان ، تطل منهما طيبة واضحة ، والشارب النحيل ، يميل لونه إلى الصفرة ، واليدان المجدقتان ، والخطوات المتمهلة ، والحياة ــ بعد يوم الحلقة ــ فى القهاوى ، وحلقات الذكر ، ومشاهدة مباريات الكرة فى الساحة الترابية ، والتمشى ــ وحيداً فى ميادين بحرى وشوارعه وحواريه وأزقته ..

سرح فى بلادة :

ــ ألم يلحقوه فى المستشفى ؟..

تلون صوت خميس شعبان بحزن :

ــ نزف دم كثير قبل أن يصل ..

تكومت شروات السمك . علت الصيحات تستحثه على إنهاء التنظيف . ارتفع الساطور ونزل على الأورمة . ارتفع ونزل . ارتفع ونزل . انبثق الدم والصراخ ..

مال عبد الوهاب مرزوق على المعلم الزردونى :

ـ هل استمعت إلى أغنية عبد الوهاب الجديدة ؟..

أخفق الزردونى فى التذكر :

ـ كل يوم له أغنية ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـ أغنيته عن فلسطين ..

نقر على الترابيزة بإصبعه :

ـ لا بأس بها .. وإن كان لحنها مائعاً ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ـ هو مطرب وليس الشيخ عبد الحفيظ ..

قال الزردونى :

ـ اعتدنا ميوعته منذ أغنيته الراقصة : مين زيك عندى يا خضرة ..

التقط عباس الخوالقة نثار الكلمات . قال :

ـ أنا لا أفهم حتى الآن ما صلة الحرب فى فلسطين بأرزاقنا ؟..

لم يخف ضيقه ، عندما أخذ مأمور قسم الجمرك سيارتي نقل يملكهما ، تحملان السمك من الحلقة إلى السوق . تسلم إيصالاً باستخدام الجيش لهما في نقل الجنود ..

قال عبد الوهاب مرزوق :

ــ احمد الله .. لم يبقوا من عربات الحاج قنديل إلاّ نصف نقل ..

تطلع محيى قبطان إلى قاسم الغرياني وهو يميل من شارع الكواكبي :

ــ ما أخبار دياب أبو الفضل ؟..

سكن الحزن في صمته وخطواته المتثاقلة ، فخمن الرجال ما حدث ..

ارتفع ــ فجأة ــ صوت شخير ..

كان خليل زيتون قد جعل كرسيه قبالة شارع العوامري ، وأعطى ظهره للجالسين ، وراح في إغفاءة عميقة ..

بركـــة ..

-١-

صعد حمودة هلول البلانس بالقطة ذات صباح ..

كنا نتهيأ للإقلاع . ملاحظة الجد السخاوى فى رحلة العودة ، أن الفئران زادت فى البلانس . أتلفت الحبال والشباك وهيكل البلانس نفسه . تعلمنا ألا ننطق اسمها فهو شؤم . نكنيها بالملعونة والمصيبة واللى ما تتسماش ..

بدت القطة فى حضن حمودة هادئة ، مستكينة ..

أطلقها ..

جرت ــ بحيرة الغربة ــ عن المكان . ثم لاذت بأسفل الدفة ..

لم يثر الجد السخاوى ــ كما توقعنا ــ لم يعل صوته بالغضب ، وهو يرى القطة تندفع من يد هلول إلى حيث اختفت ..

قال هلول :

ــ نغلق الثلاجة على السمك ..

علا صوت الجد السخاوى :

ــ كيف أضع البنزين بجانب النار ؟ ..

قال هلول :

ــ أنا أشعل سيجارتى فى محطة البنزين مادام التنك مغلقاً..

قال الجد السخاوى :

ــ هذا كلام لا أفهمه .. أنبوبة سم فئران تكفى لحل المشكلة..

قال قاسم الغرياني مهوناً :

ــ القطة فى المركب .. إذا فعلت مالا نتوقعه ، أغلقنا عليها حتى نعود ...

نسيناها ــ لساعات ــ قبل أن تظهر . تحاول التثبت من نبات الأعين والأقدام ، ثم تجرى إلى الركن الذى اختارته . وضع لها حمودة هلول قطعاً من الخبز فى طبق لبن ، ونادى عليها بسسسس . أطلت من ركنها فى حذر . ليطمئنها ، وضع الطبق على مسافة منها ، وانصرف . تكرر خروجها من الركن ، ثم لم تعد تجرى من أمامنا . فاجأت قاسم الغرياني ــ وفاجأتنا ــ لما تمسحت به وهو يتمدد على سطح البلانس . ربت الغرياني شعرها . رفعت ذيلها ،

هزته ، ماءت ، استكانت فى مكانها . انشغلنا برعايتها ، وأحببناها . أبدى الغرياني قرفه حين رآها تلاعب فأراً بفمها..

قال حمودة هلول :

ـ لهذا أتيت بها ..

ثم قال مستغرباً :

ـ إنها لن تشاركك طعامك !

قال قاسم الغرياني لحمودة هلول :

ـ ما اسم القطة ؟..

أردف للدهشة المتسائلة فى عينى هلول :

ـ أليس لها اسم ؟

قال محيى قبطان :

ـ فلنسمها بركة .. لتبارك البلانس ..

- ٢ -

ألفنا رؤيتها وهى تصيد الفئران : تلاعب الفأر ، تجتذبه بنظراتها ، فلا يقاوم ، تضعه فى فمها ، تقذفه ، تناوشه بقدمها ، تعيده إلى فمها . نتوهم أنها ستأكله ، لكنها تسقطه ، وتلحقه بيديها . ترفع يدها ، فيتوهم النجاة ويجرى . تطوله بقفزة واحدة ، تدحرجه أمامها وهو يصوصو ، ثم تمسكه بأسنانها . تجرى به الى دروة . لا نراها وهى تأكله ..

- ٣ -

فى ثالث يوم ،اختفت الفئران . لم نعد نراها على سطح البلانس ، ولا فى الكابينة ، أو البريدج ، ولا فى المخزن . لم تعد قطة حمودة هلول ، لكنها صارت قطة البلانس ، قطتنا كلنا ، تلبى من يعلو فمها بالنداء بسسسس . لا تتلفت حولها ــ كما كان من قبل ــ خائفة ، وتظل نائمة فى الموضع الذى نختاره ، لا يشغلها صوت الأقدام المارة جانبها..

خالف الجد السخاوى توقعات الرجال . جعل القطة اهتمامه : مواء بركة نذير شؤم .. القطة تموء " نو " ، والنو

هى النوة ، والنوة شر .. بركة مريضة ، فهذا يعنى أن الخطر يتهدد السفينة كلها .. بركة تمر من يمينه ، فهذا دليل خطر قادم .. بركة تمر من يساره ، فهذا نذير شؤم .. بركة تواصل القرقرة ، فهو بشير بصيد ثمين .. بركة تلحس شفتيها فى الحائط ، فهى تنبئ بالطقس المعتدل . وإذا كان الحائط قبالة الشرق ، فإن الطقس سيكون رديئاً . وإذا كان قبالة الغرب ، فإن الشمس الساطعة ستظل مشرقة . حتى الشكل الذى تتخذه القطة فى نومها ، يشى بالمجهول ، والمتوقع . إذا كانت دورة جسمها مطابقة لاتجاه عقارب الساعة ، فهذا نذير شؤم . إذا اتخذت الاتجاه المقابل ، فهذا بشير خير . القرقرة التى تصدر منها وهى نائمة ، بسملة وتشهد وأدعية ..

لما جمعنا أول سرحة ، تقافزت القطة حول الشبكة . التقطت بفمها سمكة بورى كبيرة ، وجرت . اختفت وراء البريدج ..

قال الجد السخاوى :

ـــ هل نصطاد السمك لتأكله القطة ؟

قال حمودة هلول :

ـــ نلقى لها سمكة أو اثنتين .. ثم نضع السرحة فى الطبالى ونودعها المخزن ..

حرصنا ـــ فور لم السرحة ـــ على وضعها فى الطبالى . نضع قطع الثلج على السمك ، نرص الطبالى فى المخزن ، نتأكد من إغلاق الباب ..

- ٤ -

صرخ حمودة هلول فى قاسم الغريانى ، لما رآه يسلط خرطوم الماء على القطة :

ـــ حرام عليك !

قال الغريانى :

ـــ أنا أنظفها ..

وهو يجز أسنانه :

ـــ الماء يقتلها يا غبى..

قال الغريانى :

ـــ وكيف تستحم ؟

قال هلول :

ـــ ألا تعرف أن القطة تنظف جسمها بلسانها !؟

قال محيى قبطان :

ـــ للسان عند الغريانى أغراض أهم ..

– ٥ –

فى رحلة تالية ، صعد محيى قبطان البلانس وعلى صدره قط صغير :

– حرام أن تظل بركة بلا زوج !

امتلأ البلانس بالكثير من القطط . جرت ، ونطت ، وتقافزت ، وخربشت الجدران ، واسترخت فى الشمس ، وحاولت اللعب بكل ما يتحرك . اعتدنا مواءها ، وقرقرتها ، وتمسحها بسيقاننا ، ونومها على أغطيتنا أيام البرد ..

– ٦ –

أسرعنا ـــ ذات صباح ـــ على نداء قاسم الغريانى ..

كان يمسك بذيل بركة الساكنة ، يقلبها أمام عينيه :

ـــ لا يبدو أنها أصيبت بمرض ..

سأل حمودة هلول متوجساً :

ـــ ماذا بها ؟

قال الغرياني :

ـــ كما ترى .. ماتت ! رأيتها ساكنة أسفل الصارى ..

قال الجد السخاوى :

ـــ السرحة ألغيت ..

سأل حمودة هلول :

ـــ لماذا ؟

قال الجد السخاوى :

ـــ كنا نعود لصعود قطة على البلانس .. فهل تظل فى البحر مع قطة ميتة ؟!

قذف الغرياني بالقطة الميتة فى الماء :

ـــ لم تعد بركة معنا ..

قال الجد السخاوى وهو يتجه ناحية الكابينة :

ـــ فلنعد إلى الإسكندرية ..

أهمل الأسئلة ، وشخط ونطر . خالط صوته حشرجة غريبة ، كأنه يعانى . زاغت عيناه كمن ينتظر مجهولاً يغيب مصدره . لم يعد الجد السخاوى الذى نعرفه . لم يعد الطيبة والمودة والمؤانسة . تغيرت ملامحه ، وتحركت يداه فى غير موضع . الدفة والصارى والقلوع والأشرعة والبوصلة

وقوارب الإنقاذ التى كانت معدة لحملنا ــ إذا غرق البلانس ــ إلى الشاطئ ..

حل فى نفوسنا الخوف بالعدوى . توقعنا شراً لا نقوى على مغالبته : نجماً يذيل يصعق البلانس ، فيحرقه عن آخره . عاصفة مفاجئة تغرقه بمن فيه ..

هتف قاسم الغريانى :

ــ هل يعيدنا إلى البحر موت قطة ؟!

علا صوت الجد السخاوى :

ــ اعدل الدفة يا هلول ..

قال الغريانى :

ــ بعدنا عن الإسكندرية بزمن !

وهو يلوح بسبابته :

ــ ولو !

حدجه بنظرة مستغربة :

ــ هل نعود بلا صيد ؟!

قال السخاوى :

ــ يكفى أن نعود بأرواحنا

– ومايمنعنا من مواصلة الرحلة ؟

أطل فى عينى السخاوى خوف واضح :

ــ إذا ماتت قطة فى مركب ، فهذا نذير شؤم ..

هز الغريانى كتفيه :

ــ خرافات لا معنى لها ..

قال السخاوى :

ــ معتقدات نشأنا على احترامها ..

فى صوت يرعشه الغضب :

ــ هل تطعم أولادنا من معتقداتك ؟!

نقر السخاوى على حاجز البلانس بأصابع متوترة :

ــ أفضل من ألا تعود إليهم ..

صرخ الغرياني :

ــ أنت مجنون !

وشت بريشة عينيه بانفعاله .. ضغط بالمتبقى من أسنانه على شفته السفلى ، وحول وجهه إلى الناحية الأخرى . غاب ــ فى اللحظة التالية ــ عن السماع ، وعن كل ما حوله ..

ارتفق جانب البلانس ، يتطلع إلى نهاية الأفق ، يتعجل الخط الرمادى الشاحب . تتصاعد تفصيلاته : الشاطئ ،

والرمال ، وورش المراكب ، والبيوت المطلة على الكورنيش ، ومئذنة أبو العباس فى مدى الرؤية .

انتقل الخوف فى ملامحه إلى نفوسنا . نتوقع خطراً لا ندرى مصدره . حتى قاسم الغريانى أسكت ملاحظاته . بدا الخطر احتمالاً وحيداً ، قادماً . أهملنا الاعتراض ، وإلقاء الأسئلة . تركنا للجد السخاوى التصرف ، بصمتنا وتنفيذ أوامره .

لحظات للأمل

قبل أن يميل إلى شارع الكورنيش ، اهتز البنز فى جانبه الأيمن ، ثم واصل السير ..

خامره قلق ، فتوقف إلى جوار الرصيف . نظر ، وحدق ، وهتف بدهشة . انتزع إطار العجلة اليمين ، ثم نسى إعادته ..

لحقه ــ فى طريق عودته إلى الإسطبل ــ صوت حمودة هلول :

ــ تأخرت يا صابر .. السباق بعد صلاة العصر ..

كان الأذان قد تناهى من ياقوت العرش قبل عشر دقائق ، فلابد أن المصلين غادروا المساجد إلى ساحة رأس التين .. هل يبدأ السباق بدونه ؟..

عدل عن فكرة العودة . يبحث فى الساحة بمن يأتى له بالإطار ..

تردد على الورديان . اشترى من مغالق الأشجار قطعاً زائدة من الجازورينا والتوت والسرسوع . قضى المكنجى

فى الإسطبل يومين ، يخرطها على إسطمبات . رمم كرسى السائق والصندوق والرفارف والكرسى القلاب ..

كان يشترى لوازمه من سوق البرادعية والسروجية فى نهاية شارع الميدان . اختفى السوق بندرة الحاجة إلى لوازم الدواب ..

شكا من الصينية ، فهى لا تسمح للبنز بالدوران كما يريد . أوصى على جلد بقرى للتجنيد من ملوى ، دباغته خاصة للبنز . اشترى سرجاً مبطناً بالقطيفة الخضراء ، مندهشاً بالدلايات والحرير والقصب ، والشراريب الملونة . زينه بالدائرة المثقوبة ، وخمسة وخميسة والورود . وثبت فانوسين من النحاس المطلى ..

فك السير الجلدى عن ظهر الحصان . اطمأن إلى البشلك واللجام ، وإلى غياب التسلخات والتقرحات والجروح وحشرة القراض ..

ـــ إذا لم تثق فى الفوز .. لا تذهب !

وهز إصبعه فى تؤال :

ـــ الإسطبل لابد أن يكون الأول ..

اغتصب ابتسامة متذللة :

ـــ نحن الأول بإذن الله ..

قال التميمى وهو يمسح بيده عنق الحصان :

ـــ سباق شم النسيم يشارك فيه كثيرون ..

قال صابر :

ـــ أعرف ..

ثم وهو يتحسس عنق الحصان بأصابعه :

ـــ باقى أشياء صغيرة ..

يبدأ السباق من أمام حديقة سراى رأس التين . فتحة الحدوة الخضراء الواسعة . ينطلق ـــ بين الصيحات والزغاريد ـــ فى طريق الكورنيش ، إلى انحناءة السلسلة ، ويعود . تتكرر الدورة سبع مرات . ثم ينتهى السباق حيث بدأ ..

تناثر الكناسون على امتداد شارع الكورنيش ، وعلى الرصيف . يلاحقهم المفتشون بأوامر متلاحقة وتحذيرات . سأل . قيل إن موكب الملك قادم من المنتزة للصلاة فى أبو العباس ..

علا صوت عابر :

ـــ وما الجديد ؟.. انه دائم التنقل بين المنتزة ورأس التين ..

قال عسكرى السواحل :

ـــ هذه زيارة رسمية ..

هز كتفيه فى عدم فهم ، وواصل السير ..

سباق اليوم فرصته فى الفوز . تباينت بواعث الانشغال عن المشاركة . حتى عباس الخوالقة اعتذر لمرافقة حمادة بك فى جولته بشوارع الحى ودكاكينه وقهاويه . كور قبضته . الفوز فرصة لن يفلتها ..

لو أن التميمى يوافق على أن يؤجر البنز ؟..

ربما شد شعرات من ذيل الحصان . يلجأ إليها مرضى السنط . وربما باعها للأولاد . يستخدمونها فى ألعابهم . آخر مبلغ حصل عليه ، لما سافر التميمي والمرأة إلى رأس البر ، لقضاء أيام العيد . أعد البنز ، ووقف فى ميدان أبو العباس . الجولة بتعريفة من الميدان إلى سراى رأس التين ، والعودة . راح وجاء مرات كثيرة ، حتى هلك الحصان . خوفاً من أن يظن التميمى ـــ إذا فتش المخزن ، وعثر على المبلغ ـــ أنه

يسرقه ، مضى إلى قهوة كشك . أودع ما معه أمانة عند حسنين الدمنهورى ، وعاد إلى الإسطبل ..

لم يسافر التميمى خارج الإسكندرية بعدها . ظلت أيام العيد حلماً جميلاً ، لا سبيل إلى استعادته ..

تحسس ــ بتلقائية ــ مواضع ضربات الكرباج على جسمه . طالت أعلى الجبهة ، واتصالها بالرأس ، والخد الأيمن إلى الذقن ، والرقبة ، والساعدين . تردد ــ أربعة أيام ــ على مستشفى رأس التين . يعود من المستشفى ، فلا يترك غرفته . يتمدد على ظهره . يفسح مابين ساقيه . ينهض ــ فى تثاقل ــ ليعد طعامه ، أو ليدخل دورة المياه . زارته الست جمالات مرتين . وقفت ــ فى عودتها من الخارج ــ على الباب . سألت عن صحته . أجاب دون أن يترك مكانه ، أو يلتفت ..

فاجأه التميمى صباح اليوم الخامس :

– إلى متى أظل أعتنى بالخيل بدلاً منك ؟!

لم يكن شفى من جراحه ، ولا سكنت آلام جسمه . لكنه تحامل على نفسه ، وقام ..

عمله فى الإسطبل فرصته الوحيدة للمشاركة فى السباق . لن يستطيع ركوب البنز بعيداً عن الإسطبل . يا دوب يتولى تجهيزه . التميمى لا يستقر على حال . يلقى عليه السلام ، فلا يدرى إن كان يرد أم يشتمه . إذا وصل إلى خط النهاية قبل الجميع ، نال الجائزة . ضمن الحياة فى غيبة أوامر التميمى وتحذيراته وشخطه ونطره وأذيته ، وتبدل أحواله الذى لا ينتهى . يصل إلى خط النهاية قبل الجميع . يعلن الحكام فوزه . يحصل على النقود والهدايا . يخلى قيادة البنز ، ويكتفى بالجلوس لتلقى صيحات الإعجاب والتصفيق . ينتهى الموكب الصاخب إلى قهوة مخيمخ . يحيا فى الحفاوة إلى نهاية الليل . ربما لا يعود بعد ذلك إلى الإسطبل . ربما اشترى حنطوراً ، يسيره لحسابه من رأس التين إلى المنتزه ، أو يختار لوقفة الحنطور داخل ساحة محطة السكة الحديد ، بالقرب من الباب المفضى إلى محرم بك ..

لو أن المعلم يعدل عن رأيه : أفضل أن أستمع فى الراديو ، إلى وصف مباراة الكرة بين مصر والمجر ..

أبدى صابر دهشته :

ـــ الكرة ؟!.. سباق البنز أفضل من الكرة مليون مرة!

قال التميمى :

ــ أنا بعافية .. فرصة للاسترخاء ..

وأشار إلى حصان دس وجهه فى مخلاة الطعام :

ــ المهلب يحتاج إلى قصاص يهذب شعره ..

سمى حصانه المهلب ، اسم حصان أبو زيد الهلالى ، وإن لم يكن أسود مثل حصان الهلالى . كانت غرته بيضاء ، يداخلها اللون البنى ، والجسد كله بنى اللون ، ما عدا دوائر غير مكتملة من اللون الأبيض . سارح العود ، له رأس صغير ، وعينان واسعتان ، يحيط بهما سواد كالكحل . واسع المنخارين . عنقه أشبه بعنق البجعة . عروقه وعضلاته ــ إذا صدرت عنه حركة ــ تبين من الجلد الرفيع الشفاف . ربما أشار التميمى إليه ، وقال :

ــ النوة قادمة !..

ــ أية نوة ؟..

ــ لا أدرى !.. لكن النوة قادمة .. معنى وقوف المهلب هكذا ، أن النوة قادمة !..

كان يسقيه اللبن مخلوطاً بالسمن البلدى ، ويسقيه البيرة فى شارع البوسنة ، ويطعمه الذرة والعشب . وخصص له فى مولد أبو العباس سرجاً مطعماً بالفضة وخيوط الذهب ..

رفض عرضاً أن يستعمل نوعاً من الحقن . يصبح المهلب كالعفريت ، يجرى كالرهوان . ثم ماذا ؟.. يحصلون على المال ، ويموت المهلب ؟!..

قال الشيخ عوض مفتاح ، إمام ياقوت العرش ، وهو يتأمل المهلب :

ــ الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامة !

يخرج بالبنز كل صباح . يسحبه الحصان الذى اختاره للسباق . يمضى إلى ميدان المساجد ، فساحة أبو العباس . يميل يساراً إلى طريق الكورنيش ، حتى السلسلة . يشجعه هدوء الحركة ، وخلو الطريق من المارة ، على السير فى اللسان إلى نهايته . ثم يعود إلى طريق الكورنيش . السور الحجرى على يمينه . يدور حول حديقة السراى ، فيصبح سور البحر على يساره . ثم يميل من شارع أبو السعادات إلى داخل السيالة ..

حقق المركز الأول فى سباق البنز ، لسنوات ، ثم غلبه المعلم عباس الخوالقة ثانى أعوام الحرب العالمية الثانية ، فقرر اعتزال المشاركة فى السباق . اكتفى بالمتابعة ، والمشاهدة ، وإبداء الملاحظات ، والنصائح ..

حين فاجأه صابر الشبلنجى باعتزامه المشاركة فى سباق هذا العام ، تردد فى الموافقة :

ــ هذه سمعة الإسطبل !

قال صابر :

ــ أنا تلميذك يا معلم ..

وأظهر القلق لما نط التميمى على حصان دون سرج :

ــ قد لا تستطيع التحكم فى الحصان إلا باستخدام ساقك فقط .. ربما أتى الحصان بحركة مفاجئة ..

قال التميمى فى نبرة واثقة :

ــ الخيّال هو الذى يفوز ويخسر ، وليس الحصان !

وخالط صوته سخرية :

ــ أليق بك أن تكون برادعياً ..

واستطرد كالمتنبه :

ـ حتى البرادعيين راحت عليهم .. أفضل أن تكون سروجياً قد الدنيا ..

لكز التميمى جانب الحصان بقبضته ، وشد اللجام . رفع الحصان عنقه ، وانتشرت أذناه ، واختلج منخاريه ، وتقلقل فى وقفته ، ثم جرى بخطوات مهرولة خارج الإسطبل..

اعتاد مؤاخذات المعلم وتوبيخاته ، وملاحظاته التى لا تنتهى ، واعتاد الحياة فى الإسطبل ، والتعامل مع الحداد وصانع المهاميز واللجومى والسروجى . تعلم معالجة أسطح العربات وعجلاتها وعرائشها ، ومداواة جراح الاحتكاك وأورام القوائم وتسلخات الظهور ، وبذل خراريج البغال وتركيب الحدوات . وتعلم تحنيك الخيل وكيها وتقليمها وتزنيدها . وصار على دراية بأصناف الخيل وطباعها ومزاياها : طول العنق ، طول الخطوة ، طول الأذنين ورقتهما ، قصر المسافة بين الحافر والساق ، قصر الصدر ، بروز العينين ، علو الكفل ، اكتناز اللحم ، اتساع الصدر ، ضخامة الفك ، صغر الرأس ، وجود صوف بين الرجلين الأماميتين ، نعومة صوف الجسم . يمكنه ـ من النظرة

الأولى ــ أن يعرف نوع أى حصان ، وسنه ، وعدد الحدوات التى أهلكها ، وموطنه الأصلى ..

ظل مساعداً لعم شفيق عبد السيد فى تشغيل الإسطبل . عندما قرر عم شفيق أن يقضى آخر أيامه فى قريته بالصعيد ، طالبه التميمى أن يقضى يومه فى الإسطبل ، لا يتركه ــ فى الليل ــ إلى قهوة كشك . ترك له عم شفيق راتبه ، وبعض الأوانى ، ووفر له أجر البيات فى القهوة ..

اطمأن الى الإطار فى موضعه ..

هم بالسير ناحية رأس التين ..

لحقه صوت عم سلامة ..

حدق فى دهشة :

غادر التميمى الإسطبل منذ ساعتين .. فكيف مات ؟!

الغابة فى الإسطبل

ضوء اللمبة نمرة خمسة ، يتراقص من هبات الريح ، يصنع على الجدار ظلالاً وتكوينات . يصنع لها صابر الشبلنجي ــ بإطالة التأمل ــ ملامح لبشر وحيوان وأشجار ..

كان مستلقياً على ظهره ، مفرجاً ما بين ساقيه . عيناه مفتوحتين ، ترنوان إلى سقف الإسطبل . يرفض ــ حتى فى عز الشتاء ــ أن يرتدى ثوباً بأكمام . ربما اكتفى بالصديرى ، وإن ارتدى تحته فانلة من الصوف . يصعب عليه الحركة وهو مقيد الذراعين ..

هل مات التميمى ؟ ..

لاحظ أن الحصان كان يكثر من هز رأسه ، وهو مربوط . تذكر أن ما حدث كان علامة على قرب موت الرجل ..

أمرت الست جمالات ، فقص صابر ذيل المهلب ، ووضع الشعر على السرج ، وتقدمت الفرس الجنازة بهذه

الصورة . شيعه القلة ممن تصادف وجودهم فى قهوة مخبمخ ــ ساعة الظهيرة ــ إلى مقابر العامود

عاب الشيخ عوض مفتاح على التميمى ، أنه أطلق العنان لشهواته ، وانصرف إلى الاعتراف من معين اللذة ، دون أن يردعه خوف من عقاب . قيل إن وفاته كانت لإفراطه فى الجماع . أصرت المرأة أن تأخذ حقها ــ فى ليال متوالية ــ حتى تسلمته الأمراض ، ومات . وقيل إنه دخل جامع ياقوت العرش وهو مسطول ، فأغضب ولى الله عليه . صلى عليه صلاة الجنازة ، فمات لتوه . وحين روى للشيخ صلاح البوشى ، قارئ سيدى نصر الدين ، أنه رأى فى المنام ، أنه يخرج من بيته بعافيته ، ولا يخاطب أحداً ، أدرك الشيخ البوشى ــ وإن لم يصارحه ــ أنه سيموت ..

داخله هدوء لا يدرى بواعثه . لم تعد تشغله توقعات المستقبل ، ولا إن كان سيظل فى الإسطبل ، أم تسرحه المرأة ؟ . اطمأن إلى طلب جمالات بأن يظل فى عمله ..

قالت :

ــ فليظل العمل فى الإسطبل كما هو .. أنت أدرى به منى ! ..

رفع رأسه ، واتجه بعينيه إلى داخل البيت ، يحاول أن يتلصص : ماذا تفعل المرأة الآن ؟ ..

أغلق التميمى باب البيت المطل على شارع سيدى كظمان ، وفتح باباً ونوافذ خلف البيت ، تطل على داخل الإسطبل ..

واجهة البيت سلم حجرى ، بدرابزين . يفضى إلى صالة مستطيلة تتوسط أربع حجرات ، والمطبخ ، والحمام ، ودورة المياه على الإسطبل . وتطل الحجرتان الأخريان على شارع سيدى كظمان . مغلقتان دائماً ، فهو لا يدرى مابهما . أما الحجرتان اللتان تطلان على داخل الإسطبل ، فإحداهما للنوم . بها سرير نحاسى بأعمدة ، وناموسية تمنع الحشرات الطائرة ، فى المقابل دولاب كبير بمرآتين فى ضلفتيه . والثانية للقعاد ، يقضى فيها المنزلاوى وجمالات يومهما . بها كنبة إستامبولى . وعلى الأرض كليم أسيوطى . تتوسط السقف نافذة مفتوحة ، استجلاباً للهواء النقى . رصت على حافتها أصص العتر والريحان والقرنفل ، تلاصقها صينية القلل . على الجدران ساعة ببندول ، وصور لنجوم التمثيل والغناء ، ورسوم مستوحاة من السير الشعبية : عنترة يمضى

بالنوق البيض إلى ديار عبلة ، والهلالى يصارع الزناتى ، وسيف بن ذى يزن يشهر سيفه . فى المنتصف ترابيزة يحيط بها ثمانية مقاعد ،جميعها مشغولة بالأرابيسك ..

حدج النافذة المفتوحة بنظرة متأملة :

ــ كنت أدارى على التميمى تصرفات المرأة ، فعلى من أدارى بعــد الآن ؟

وتنهد :

ــ هذه امرأة خلقت للمضاجعة !..

لم يتصور أنها ــ مثل بقية النساء ــ تطبخ وتكنس وتمسح وترعى الأطفال . تصورها فى خياله وهى نائمة ، وهى تتعرى ، وهى تستعد للعناق ، وهى تخلى ساقيها ، وهى تقضى الأوقات فى الاستحمام والتزين ..

هل أخلصت للجنس وحده ، دون تبعات تتصل به ؟..

كانت فى حوالى الخامسة والثلاثين . ذات جسم رجراج ، قسماته مؤكدة . فالبروز واضح فى الصدر والبطن والردفين ، والشفتان ممتلئتان ، والعينان سوداوان مكحولتان ، والبشرة سمراء صافية ، والشعر أسود ناعم ، طويل ،

تركت خصلات منه تتسدل على جبهتها ، ولها حسنة أشبه بالخال على وجنتها..

يثيره نزولها من الحنطور ، وصعودها سلم البيت . الخلخال الذهبى يحيط بساقيها الممتلئتين ، والكعب الوردى يلتصق بالشبشب ذى الكعب العالى ، وينفرج بآلية رتيبة ، متغمة ..

كانت تنام إلى الضحى . تفتح النافذة المطلة على الإسطبل ، تجفف شعرها المبلول ، تتأمل الإسطبل بعينين تغالبان النعاس . يزداد جمالها فى ملامحها المتناومة . لا يختفى بخلو وجهها من المساحيق . تبدو أجمل فى الملامح المتكاسلة ، وفوضى شعر الرأس على وجهها وعنقها وصدرها ، وحمالتا قميص النوم تنزلقان على الذراعين . يشده وميض فى عينيها ، يشعل أعماقه بما لا يقوى على احتماله . يفر من التقاء النظرات ، أو يجاهر بتثبيت نظراته . تفجأه بابتسامة مستهينة ، تذوى الصخب فى داخله ، فينصرف إلى شئ يشغله ..

لاحظ أنها لم تعد تغير قميص النوم الشفاف . ولاحظ نظراتها الثابتة التى ترافق كلامها له ، جرى أصابعها على

صدرها وبطنها ، التشكى من لدغ الحشرات ، رفع ساقها لتهرش موضع اللدغة ، البحة فى صوتها ، الأف الطويلة ، الممطوطة ، من حرارة الجو ، والفأفأة من البرد ، التثنى والتأود ، مضغ اللبانة ، تحريك الحاجبين ..

تخيلها بثياب شفافة وهى تتعرى ، وهى فى حضنه ، وهى تصرخ ، وهى تتأوه ، وهى تدلى شفتها السفلى كما ألف رؤيتها عندما تغادر بيت الأوسطى فتحى ، وهى تطلعه على الأسرار والألغاز والأحاجى ، وتجوس به الغابة الوحشية ، وهى تنزل من الحنطور ، تبين الانحناءات والتكورات فى ردفيها ، فى ميلها إلى أسفل ، وهى تناوله يدها فى صعودها الحنطور . الملمس الناعم الطرى . لحظة تصخب فيها الرعود ، وتومض البروق ، وتثور البراكين . يحس بلسعة النار عندما تلامس أصابعها يده ..

استبقت يدها ، حين مد يده ليعينها على الصعود إلى العربة . لم يفهم المعنى وقتها ، لكنه يفهمه الآن ..

لما نادته : يا صبورة ، أدرك أنها تموارب الباب ..

تصاعدت الخواطر المحمومة من داخله . أجهده التطلع إلى النافذة ، والتصورات .. ما ينبغى ــ وما لا ينبغى ــ

قوله . الأفعال ، وردود الأفعال ، ومحاولة كتم الحمم المشتعلة داخل البركان ، وصراخ الحيوانات تبحث عن منفذ ، ومد الأمواج يرتطم ــ بقسوة ــ فى صخور الشاطئ ..

قام ، وجلس ، وتمدد ، وفرفص ، وضرب الجدار بقبضته ، وتمثل ، وضغط ما بين ساقيه ، وتأوه . ثم انتفض ، وسار فى اتجاه السلم ..

صرخات الجزر الوحشية

جلسة العصر أمام دكان الحاج محمد صبرة . ثمة نسائم خريفية تهب من ناحية البحر ، وطيور النورس وعصفور النيل والعصفور الأسود والعنزة تحلق فى امتداد الشاطئ ، وتتناثر فى السماء سحب بيضاء ، صغيرة ..

كانت أشعة شمس الأصيل تضوى بالألق على صفحة المياه . وفى نهاية الأفق مراكب متباعدة ، فردت أشرعتها . وعلى طريق الكورنيش تقرقع عجلات البنز ، وعربات النقل المحملة بفناطيس البترول والأخشاب والحديد المسلح وطاولات السمك ، وبنات قدمن من شارع أبى السعادات ، يحملن الصفائح فوق رءوسهن ، فى الطريق إلى حنفية المياه..

قال الحاج قنديل :

ـ زمن طويل لم يجمعنا هذا المكان ..

اتجه المعلم أحمد الزردونى إلى حمادة بك بنظرة مشفقة..

ـ إن كان لزيارتنا إلى الحاج سعيد النقيب ميزة ، فهى هذا اللقاء ..

قال الحاج قنديل :

ـ كان لوفاة مصطفى ، ابن أخينا عباس الخوالقة تأثيره المؤلم .. شغلنا حتى عن مجرد التفكير فى اللقاء ..

قال محمد صبرة بصوت متأثر :

ـ أعانه الله على مصابه !

ظل حمادة بك ساكتا ، وإن وشى اهتزاز ساقيه بتوتره..

لم يكن يعتبر محمد صبرة صديقاً ، وإن حرص على الجلسة أمام دكانه . يناقشه . يسأل ، ويجيب عليه . ربما تقبل منه دعابة ، لكنه يضعه خارج إطار الأصدقاء . هؤلاء معلمون كبار ، لهم مكانتهم التى لا تخطئها العين . أما محمد صبرة ، فإن المستحيل يلغى مهنته كحلاق ..

روت نهى لأمها عن قصول زوجها معها . نقلت الأم الحكايات إلى الأب : الغياب عن البيت إلى ساعات الصباح ،

إدعاء التعب ، إعلان الرغبة فى الصحو مبكراً لإنجاز عمل ، افتعال الخناقات ، فينام فى حجرة الأولاد ، اكتشافها لثياب نسائية فى دولابه ..

قال سعيد النقيب :

ــ عندما تقدمت لخطبة ابنتى ، فلرغبتك فى مصاهرتى .. أليس كذلك ؟

قال حمادة بك :

ــ هذا صحيح ..

طقت عينا النقيب بشرر :

ــ أنت إذن تستهين بى حين تدس فى دولابك ثياباً نسائية ..

عثرت نهى على الثياب ــ قمصان نوم وسوتيانات وجوارب ــ مدسوسة فى ملابسه . همت بسؤاله عنها ، ثم روت لأمها ..

قال حمادة بك :

ــ هذه ثياب قديمة .. أوزعها على الفقيرات من نساء الحى ..

علا صوت النقيب بالسخرية :

ـــ منذ متى أصبحت وزيراً للشئون الإجتماعية ..

وأطلق من أنفه ضحكة مبتورة :

ـــ هل ما وجدته ابنتى بين ملابسك يصلح للفقراء؟

احمرت أذناه :

ـــ أنا أعد نفسى للانتخابات ضد منافسات صعبة ..

تقلقل النقيب فى كرسيه :

ـــ هذا كلام لا يدخل العقل !

قال الحاج قنديل :

ـــ لو أنه يتاجر فى الملابس النسائية ، فليس فى الأمر ما يشين ...

قال النقيب :

ـــ أوافقك لو أن المشكلة مجرد اتجار فى الملابس !

ولون صوته :

ـــ البروش المختفى داخل بدلتك .. هل تنوى كذلك إهدائه فى الانتخابات ؟!

صرخ حمادة بك :

ـــ هذا اعتراف بأن ابنتك تفتش ملابسى !

ولجهه بعينى الشزر :

ـــ لو أنها تفتش ، لاكتشفت المصيبة من زمن ..

وثنى إلى الجالسين ملامح مكتئبة :

ـــ تصورت أن من واجبها أن ترتب دولاب زوجها ..

وزفر :

ـــ لم تكن تدرى !

ورماه بنظرة عداء صريحة :

ـــ لماذا تزوجت مادمت فى غير حاجة إلى الزواج ؟!

كان يتوقع منه الحرج . يفاجئه ـــ أمام الرجال ـــ بملاحظة ، أو كلمة نابية . تعثر لسانه فى الارتباك ، فسكت..

روى له أبوه عن خلافاته مع أمه حول اختيار اسمه . أصر على مختار ـــ اسم جده ـــ وأصرت على حمادة . ولد بعد طول عقم ، ونشأ وحيداً . دللته أمه . عاملته كأنثى . ألبسته ملابس البنات ، وعلقت فى أذنه قرطاً ذهبياً ، وفى صدره خمسة وخميسة ، ومنعته من اللعب مع الأولاد . يلجأ إلى أبيه إذا أراد اللعب فى الشارع الخلفى . يثق من رفض أمه ..

متى تبدلت معاملة أمه له ؟ وكيف ؟ ..

فاجأته بصفعة حين عاد متأخراً من الشارع الخلفى . لم تكن قد مدت عليه يداً ، ولا آذته من قبل . تمازج الألم بمشاعر غامضة ، غريبة ، صعب عليه فهمها ، وإن استقرت فى داخله ، وظلت تؤانسه . تعارك مع الأولاد ، فأسرفت فى سؤاله عن أثر الدمع فى عينيه . ضربته ، فأصر على الكتمان ..

قالت الأم :

ـ مصيبتى أن لى ولداً مثل البنت !

ظلت العبارة فى داخله . يتذكرها إذا عانى الخواطر الجهنمية . جاوز الطفولة ، فأصرت أن يكون مثلما ولد . وكانت تضربه بلا مناسبة . كأنها أرادت أن تنسيه سنين التدليل ، فيصبح رجلاً . تذكرت أباها الشيخ حفنى سلام إمام جامع الشيخ إبراهيم . كان زميلاً لعبد الله النديم ، وشارك فى ثورة عرابى . لم يترك الإسكندرية ، حتى بعد أن دمر الأسطول الإنجليزى معظم مبانيها . له اجتهاداته المعلنة فى الفقه والتفسير ، وقوائم مكتبة البلدية تضم ثلاثة كتب من تأليفه . جعلت همها تطهيره من أى عيب أو ضعف ..

ظلت الأمنية ، السر ــ بعد رحيل الأم ــ فى إطارها لا تغادره . يتمنى تحقيقها ، وإن قيده الخوف من المعايرة والتلميز ، وربما الفضيحة . ثم أخضعته قوة غريبة ، مسيطرة ، لا قبل له على دفعها ، أو الفرار منها . يغلق عليه باب حجرته . ينزع ثيابه تماماً ، ويقف أمام المرآة . يتأمل جسمه . يجرى براحتيه عليه فى دوائر ، فتداعبه نشوة . يخلع حذاءه فى ظلام الشارع الخلفى ، ويلتذ بملمس برودة الأرض ، والحصا ، بقدميه الحافيتين . يخترق زحام شارع الميدان ، لا يأبه بالنظرات التى تعرفه ، ولا عبارات التحية والمجاملة . يصطدم بالأجساد الواقفة ، والمتلاصقة ، والمتدافعة . يتوقع رد الفعل ، ويتحداه . لا تشغله التعليقات الغاضبة ولا التأوهات . ربما علا صوت يشتمه ، فيؤجج النيران المشتعلة فى الأعماق . أسلم نفسه لأمواج الرغبة ، تجتذبه ، وتطويه ، وتجرفه ، وتغوص به فى أعماق ساحرة ، لا نهائية . استحال كرة مشتعلة ، تجرى بالهياج والرعونة والشبق والشهوة . أراد أن يستغنى بنهى . قذفت بالعصا فى الأرض ، وجرت . لزمت حجرة الأولاد حتى الصباح . حاول أن يسبق رواية ما حدث لأمها أو لأبيها . اشترى من

الصاغة ـــ فى اليوم التالى ـــ عقداً وإسورة وساعة مذهّبة . أُخذتْها ، وأشاحت بوجهها . فوجئ ـــ عند عودته فى المساء ـــ بغيابها . حين ذهب لإرضائها فى بيت سعيد النقيب ، واجهه الرجل بافتضاح السر . قال بلهجة ملمزة :

ـــ الرجل لا يتنازل عن رجولته لأى سبب !

ضايقته الكلمات . أحس بالسخونة خلف رأسه . استجمع الكلمات ، لكن الرجل مال على ابنته بملامح آمرة :

ـــ عودى إلى زوجك !..

لم يعد إلى ما فعل ، وأرضاه أنها لم تعد ـــ من يومها ـــ إلى السيرة ، وإن انتقلت إلى حجرة الأولاد ، لا تتركها إلاّ إذا نادى بطلب شئ . حتى أوقات تناول الطعام تعتذر بالنوم ، أو بالمرض . وحين يجبرها ـــ بتوسلاته ـــ على المضاجعة ، يتصاعد الغثيان إلى حلقها . تنشغل بكتمه ، حتى يخرج من الحجرة ، فتعود إليها نفسها ..

اقتحم التوقع ، لا تشغله الشتائم ، ولا الدفعات ، ولا النظرات الغاضبة ..

دعاه المعلم التميمى ـــ فى لحظة مؤانسة ـــ إلى بيت إنصاف ..

تدبر الأمر للحظات : هل تستطيع إنصاف أن تفهمه ؟ وهل تعطيه ما يريده ؟ . يذهب لو أن المرأة بذلت غير ما تبذله له زوجته . تصور نفسه عاجزاً عن مجرد البوح ، فرفض الفكرة ..

حدق فى المرآة : هل هذه الملامح لفتاة ؟ والشارب الذى تعمد أن ينسدل على جانبى فمه ؟..

قالت نهى وهى تتأمل ربطة عنقه :

ــ ماذا تفعل بالكرافتات ؟.. هذه ثانى واحدة تمزقها ..

فوت الملاحظة . دفعته المرأة لما استفزها إصراره على تلقي النازلين من ترام الرمل بصدره . تعرفت إليه فى وقفة تالية ، جذبته من ربطة عنقه . خنقته بها ، وأطلقت صرخاتها . وضع همه فى الفرار من اللمة ..

رمق سعيد النقيب بنظرة ساخطة :

ــ هل تؤلب الرجال ضدى ؟

قال النقيب :

ــ أفعالك تؤلب الدنيا ضدك ..

أشاح بيده :

ــ أنا أفعل ما يرضى ضميرى ..

هتف النقيب :

ـ وهل عندك ضمير ؟

قر فى مكانه :

ـ هذه إهانة !

لم يكن يدرى طبيعة المشاعر التى تتصاعد فى نفسه ، عندما يرى حزاماً معلقاً على الشماعة ، أو ملقى فوق السرير . تقذف به الخواطر الجهنمية فى جزر غامضة ، تعلو فيها صرخات اللذة والألم . تدهمه المشاعر نفسها لرؤية عصا فى يد من لا يعرفه ، أو لرفع امرأة شبشباً فى شوارع السيالة ، ترفقه بتهديداتها وشتائمها ..

الرغبة صراخ فى أعماقه ، بأن يخلو إلى من يحسن الإنصات ، فيروى له . تفجأه لحظات تلح عليه فكرة البوح . يروى ما يشغله ويعذبه . يفشى السر الذى لا يذكر متى بدأ فى حياته ، ولا كيف استطاع أن يظل فى داخله بأعوام العمر ..

تصور فى كوم بكير سدّادة تكتم السر . يطفئ النيران المشتعلة ، ويمضى . يسقط احتمالات الفضيحة . يسلم نفسه لتصورات تجاوز المستحيل ، تصنع المنتهى والمطلق ..

تشجع بالعصا الجلدية ، فدنا بفمه من أذن المرأة . هزت رأسها بما يعنى الفهم . ملأت البسمة وجهها عندما دس فى يدها ما لم تكن تتوقعه . لم يكد ينزع الجاكتة والقميص ، حتى لاحقته بضربة فى كتفه ، فصرخ متألماً . غابت الجزر السحرية الباعثة للنشوة . لم يعد إلاّ الألم القاسى . دفع المرأة بيدين اصطدمتا بالعصا الجلدية ، فدميتا . لاحقته بشتائم وبصقات وركلات بقدم عفية . باخت مشاعره . تبلورت أمنياته فى أن ينتهى الموقف حالاً ، ولا يجد نفسه فى هذا المكان . حين أصبح ما حدث ذكرى ، بدا الفارق متسعاً بين النيران الهادئة الجميلة فى بيت حارة سيدى داود ، والجحيم الذى آذاه فى كوم بكير ..

لمح حمادة بك استجابة تعاطف فى أعين الجالسين . هتف :

ــ هذه مؤامرة لتحطيم مستقبلى ..

قال سعيد النقيب :

ــ أى مستقبل ؟.. أنت تترك مسئولية شغلك للآخرين ، وتكتفى بالصرمحة فى الشوارع وعلى القهاوى ..

قال عباس الخوالقة :

ـ هل يمكن أن نرجئ ذلك كله إلى ما بعد الانتخابات..

أضاف للدهشة المتسائلة فى عينى النقيب :

ـ مهما تطل أيام الحكومة الحالية .. فالمتوقع إجراء انتخابات جديدة ..

ثم بنبرة ملاينة :

ـ كما تعرف .. حمادة بك ينوى ترشيح نفسه !..

قال الحاج قنديل :

ـ نحن نعرفك .. فلا تدع لما حدث تأثير على صداقتنا..

أردف محمد صبرة :

ـ غداً تصفو النفوس .. فلا تنشغل الآن إلا بعملك ، والاستعداد للانتخابات التى اقتربت

وأضاف لنظرة حمادة بك المتسائلة :

ـ هذه الحرب المفاجئة فى فلسطين .. ستعجل بعودة الوفد !

قال المعلم أحمد الزردونى :

ـ قل لأن الوفد هو أجدر الأحزاب بتولى الحكم !

قال الحاج قنديل :

ـ هذا كلام وفدى متعصب .. الوفد انتهى منذ ٤ فبراير ..

قال الزردونى :

ـ عندما وافق النحاس على تولى الحكم ، فلإنقاذ البلاد من كارثة !

قال محمد صبرة :

ـ البلاد تحتاج الآن إلى قارعة .. كتلك التى تحدث عنها سعد زغلول !

اتصلت الكلمات ، وتشابكت . توالت الأسئلة والأجوبة ، والآراء الزاعقة والهامسة . ظل داخل أسوار الجزر الوحشية : هل يقتصر ما حدث على جلسائه القريبين ، أو يذيعه سعيد النقيب ، فيفقد الفرصة فى دخول الانتخابات ، وفى مواجهة الناس ؟ هل هى النهاية ، تبين عن ملامحها القاسية ، الوشيكة ؟..

العاصفة

ثبت الجد السخاوى نظرته إلى جامع أبو العباس . الزحام على الأبواب والسلالم ، وعلى الرصيف ، وفى الميدان ..

فتح حق الدخان . وضع منه فى ورقة رقيقة شفافة . جرى عليها بطرف لسانه . ثم برمها برفق حتى أصبحت سيجارة رفيعة ، غير متساوية ..

قال :

ــ كنا فى عز الشتاء لما بدءوا فى تجديد الجامع ..

قال عبد الوهاب رزق:

ــ فى ديسمبر ١٩٢٩ ..

قال الجد السخاوى :

ــ الأيام تجرى !

ثم سحب كرسياً من الطاولة المجاورة . أسند إليه مرفقيه ، وأردف قائلاً :

ــ هذه المدينة ملجأ الأولياء ..

قال قاسم الغرياني :

ـــ الأولياء فى البلاد كلها ..

قال عبد الوهاب رزق :

ـــ عدد كبير من الصحابة والأولياء هاجروا إليها ، وماتوا فيها ..

قال الجد السخاوى :

ـــ الشيخ سلامة حجازى يترك الجنة فى الليل ، فيؤذن للفجر من مئذنة البوصيرى ..

قال محيى قبطان :

ـــ والصوت الذى نسمعه ؟

قال السخاوى :

ـــ صوت الشيخ سلامة ..

قال محيى قبطان :

ـــ انه الشيخ عرابى .. مؤذن الجامع ..

قال السخاوى :

ـــ الشيخ عرابى لا يصعد المئذنة لأذان الفجر .. حاول ، فنزل خائفاً للقاء الشيخ سلامة ..

استطرد :

ـ حتى الآن .. يترك الشيخ سلامة الجنة ليؤذن لصلاة الفجر ..

نقل الحديث إلى سيد درويش : استمع إليه ـ للمرة الأولى ـ فى كوم بكير . وجد فى ألحانه ما يختلف عن الألحان التى اعتاد سماعها ، وتنبأ له بمستقبل ..

روى عن مصطفى كامل باشا ، وهو يلقى خطبة الوداع بتياترو زيزينيا . وسهراته فى الهمبرا والكونكورديا ، قبل أن يصبحا دارين للسينما . وعن رؤيته لعملية إنشاء رصيف الميناء الشرقية . زمان ، فى العام الأخير من القرن التاسع عشر ، أخذت الإسكندرية من البحر مساحة كبيرة . فرضت ـ من يومها ـ ضريبة الاثنين فى المائة على مستأجرى البيوت ، مفروضة لا تزال ..

ـ لماذا ؟.. لا أحد يعطيك الجواب ..

ثم بنبرة ساخطة :

ـ توقف الخير .. ولا توقف الأذى ! ..

قال قاسم الغرياني :

ـ عمر الجد السخاوى من عمر حلقة السمك ..

هتف الجد السخاوى فى استنكار :

ـ هذا يعنى أنى ولدت أيام محمد على ..

ثم وهو يهز راحته :

ـ الحلقة مضى عليها الآن أكثر من مائة سنة !..

قيل إنه عمر فى حياته ، لأنه كان يحرص على مضغ طعامه جيداً ، ولا يشبع ، وربما استغنى عن طعام العشاء . وكان يقلل من مجامعة زوجته ، ويقلل من أثوابه فى صيف وشتاء ، ويفضل أن يسير على قدميه ، إلاّ للمشاوير البعيدة .

قال حمودة هلول :

ـ الجد السخاوى يحب الباذنجان فى البر .. لكنه يتشاءم من وجوده فى البلانس !..

أطلق قاسم الغريانى ضحكة معابثة :

ـ هل تذكر لما عاد بالسرحة ، لأنه رآك تقضم ساندوتش باذنجان ؟..

أعاد عبد الوهاب مرزوق الكلمة :

ـ باذنجان ؟! ..

قال الجد السخاوى :

ـ حصل !.. ولو لم أفعل لواجهنا مصيبة !

أطلق الغريانى ضحكته المعابثة :

ـــ مصيبة باذنجانى ..

هتف الجد السخاوى :

ـــ أنت قليل الأدب !

كان الجد السخاوى يؤمن بأن الصيادين لا يركبون البحر إلا وآجالهم فيه ، لكنه يعود بالبلانس إذا صادف ما يدعو للطيرة ، أو التشاؤم . يخشى انقلاب الريح عليه ..

فاجأ قاسم الغريانى الآذان :

ـــ نفسى أشوف الجد السخاوى فى بيته ..

علا صوت السخاوى بالضيق :

ـــ البحر هو بيتى !

قال الغريانى :

ـــ لا .. بيتك مع الحاجة ! ..

قال السخاوى فى ضيقه :

ـــ وهل شكوت لك يا ولد ؟!

قال الغريانى :

ـــ منظرك يوم غرق البلانس أكد حاجتك إلى الراحة ..

النوات لها مواعيدها التى يترقبها الجميع ، لكنها تأتى كالمفاجأة ، تبين ملامحها فى الأضرار التى تحدثها ..

تغيرت الريح . غشاها لون أصفر . ومض البرق ، وتساقطت الأمطار كسيل . علت الأمواج ، وعلت ، حتى ساوت الجبل ، جبل حقيقى من الماء ، يتحرك ، يبدو مخيفاً فى اندفاعه نحو المركب . تخبطت القلوع والشراع والحبال . كورت النوة قبضة الشراسة ، وتوالت ضرباتها . هبت بصفير كالنواح . بدأ البلانس فى الترنح تحت ثقل الموجات المتتالية . علت المقدمة ، وهوت . كأن الأمواج العالية تطويها . تطوى البلانس كله ، وتطوى الرجال . لكنها تعلو . يصعد بها الموج ، فيتعثرون فى أماكنهم ..

قال محيى قبطان :

ــ الإسكندرية كلها فى حالة طوارئ لنوة الغطاس .. حتى الميناء منعوا الدخول فيه إلى الممرات أو الانتظار فى منطقة الخطاف ..

همس الجد السخاوى بما يكفل تسكين الريح : إيقاد سراج من دهن آدمى ، تهدأ به الرياح ..

كيف نعد الدهن ؟! ..

اكتفى بما قاله ، فلم يتكلم عن الوسيلة . وأيقن الرجال أن الجد السخاوى أصابه الخرف ..

هبطت موجة عالية ، رجت البلانس ، ودمرت الكابينة . تسربت المياه من ثقوب كثيرة . تعالت أصوات تكسر وارتطامات وصرخات ..

بدا الجد السخاوى متحيراً ، ومتخاذلاً . اعتاد الرجال شخطاته ونطراته وتحذيراته ونواهيه ، لكنه احتوى وجهه براحتيه ، ونظر إلى الفراغ فى ذهول ..

جاوز الرجال ارتباكه ، وتصرفوا . ألقوا فى البحر بالحمولة الزائدة ..

هتف حمودة هلول :

ـــ الدفة انكسرت !

غابت الدفة ـــ فى اللحظة التالية ـــ فى جبال الأمواج المتتالية ..

دوى انفجار فى المطبخ ، وامتدت النيران فى الجزء الخلفى من البلانس . ألقى الرجال بأنفسهم فى البحر ، وسبحوا إلى الجزيرة القريبة ، فى مواجهة الأنفوشى ..

دار البلانس فى دوامة ، بلا توقف ، حتى تحطم هيكله ، وابتلعه القاع ..

لما هدأت الريح ، وسكن البحر ، طفت ألواح خشبية ، تتقاذفها الأمواج بالقرب من الشاطئ ..

قال الجد السخاوى :

ـ ماذا تريد يا ولد .. هل أترك البحر ؟!

قال الغرياني :

ـ لكل وقت أذان ..

تنهد فى نفاد صبر :

ـ وما أذان هذا الوقت ؟

جاهد الغرياني ليهدأ صوته :

ـ أديت رسالتك .. وعلينا أن نستكملها ..

زوى السخاوى بين حاجبيه :

ـ أنتم ! من أنتم ؟!.. ماذا تعرفون عن البحر ؟..

ورمى الغرياني بنظرة سخط :

ـ ماذا تعرف أنت عن البحر ؟.. لو أن البلانس واجه نوة فكل ما ستفعله هو الصراخ .. وقد يكون السمك تحت البلانس فلا تنتبه ..

وغليه الانفعال :

ـــ البحر ليس وظيفة نتركها فى المعاش .. البحر بيتى وحياتى الحقيقية ..

ثم وهو يهز قبضتيه :

ـــ لكن .. من أكلم ؟! ..

وانتظر فى جلسته :

ـــ ماذا تظن يا ولد ؟.. أنا أعرف عن البحر ما لا يعرفه كل الصيادين .. وقتكم بين نسائكم والصرمحة فى الشوارع .. أما أنا ، فوقتى كله للبحر والبلانس والصيد ..

وفرد ذراعيه بامتدادهما :

ـــ حتى الآن ، أتمدد فى الشمس حتى تزول .. فهل تستطيعون احتمال حرارتها ؟..

ثم وهو يغالب اختلاج عينيه :

ـــ هل أجلس فى البيت كالحريم ؟!

وداخل صوته حشرجة :

ـــ أو أفتح لنفسى قبراً ، وأتمدد داخله ؟!

قاطعه الغريانى فى غضب :

ـــ يا رجل .. لا تحتم بشيخوختك !

لم يعد الجد السخاوى يذكر السنوات التى أمضاها فى البحر ، يطمئن إلى كميات الثلج فى الثلاجة ، ينمم على الغزل ، وعلى الطعام والشاى والسكر والماء العذب ويرطمان العسل . يجد فيه تعويضاً عن كل الأطعمة . يأكل منه ثلاثة ملاعق فى الصباح ، ومثلها قبل النوم . إن لم يتبق من الطعام إلاّ المعلبات ، استعاض به عنها . فوائده لا تحصى : ينقى الكبد والصدر ، يدر البول ، يلين الطبيعة ، يطرد البلغم ، يجلى الأوساخ فى العروق والأمعاء ، يحفظ صحة اللثة والفم . ومع حبه للشمس ، فإنه كان يستحم فى ماء البحر ، طيلة أيام السنة ، حتى فى عز الشتاء ..

كان يحمل فى ذاكرته الكثير من الأحاديث والحكايات والقصص والحكم والأمثال والأقوال المأثورة . يرويها لتأكيد آرائه . وكان يحفظ أغنيات البحارة والصيادين ، وحكايات ألف ليلة : السندباد ووادى الحيات ووادى الألماز والزبرجد ووحوش البحر والأقزام وطائر الرخ . يروى عن أسماك تتخذ لنفسها لون المنطقة التى تحيا فيها ، تبدو جزءاً منها ، وأسماك تصدر منها الأضواء ، كأنها فانوس سحرى . ويروى عن الحيتان فى أعالى البحار ، تشرب المياه ،

وترفعها إلى أنوفها ، فيحدث الجزر . وتتنفس ، وتخرج المياه من أنوفها ، فيحدث المد ..

لم يكن يحمل ساعة . يعرف الوقت بالنظر إلى السماء . وكان يحرص على الخاتم ذى الفص الياقوت فى إصبعه . يؤمن بأنه سينجيه من النوات والأعاصير ، وينقذه من الغرق . ربما لهذا قاومت شيخوخته ، فاستطاع العوم ـــ بعد غرق البلانس ـــ إلى جزيرة الأنفوشى .. وكان يثق أن سيدنا الخضر يظهر للسفن التى آمن أهلها ، فيرشدها إلى الطريق الصواب . شرب الخضر من ينبوع الحياة ، فهو حى حتى يوم الحساب ، وهو يظهر للمسلمين فى حيرتهم ، ويلبس الثياب الخضراء ..

ترامى صوت عم سلامة من داخل القهوة :

ـــ أنا ألجأ إلى الجد السخاوى فيما أواجهه من مشكلات..

تلون صوت الغرياني بسخرية :

ـــ هل يدلك على أفضل أنواع الطبيخ ؟!..

قال حمودة هلول :

ـــ كل الصيادين عرفوا البحر من الجد السخاوى ..

أردف بلهجة حاسمة :

ـ الجد السخاوى سمكة .. إذا غادرت الماء واجهت الموت ..

قال الغريانى :

ـ هل ينكر الجد السخاوى أن اشتراكه فى هوجة عرابى كان السبب فى هزيمتها ؟..

قال السخاوى :

ـ لم يبق يا ابن الكلب إلاّ أن تزعم اشتراكى فى الدفاع عن رشيد ؟!

ـ بل حدث .. ومشاركتك فى الانتصار على الإنجليز حسنتك الوحيدة ! ..

تدخل عبد الوهاب مرزوق مداعباً :

ـ فلنترك للجد السخاوى إذن قيادة الجيش المصرى فى فلسطين ..

التفت الغريانى إلى الطريق . مصمص شفتيه فى حزن :

ـ ماذا جرى لك يا على ؟

اعتاد الناس تصرفاته الغريبة . يمشى ويقف ويجلس ويقوم ويكلم نفسه ويغنى ويرقص ويبكى ويصرخ ويطلق الضحكات ويلهج بالأدعية . ركب ــ ذات عصر ــ عصا من الجريد ، لها عينان وأنف وفم ، وطاف بها الميدان ، حول البوصيرى وأبو العباس وياقوت العرش والأولياء الإثنى عشر ..

قال حمودة هلول :

– لماذا لا يذهب على الراكشى إلى فلسطين ، فيقضى على اليهود ببركته ؟!

اتجه ياقوت بالخرطوم ناحية الأولاد . ضغط على فتحته بإصبعه ، فاندفعت المياه ، وأغرقت أجسامهم وملابسهم ..

جروا ناحية الشوارع الجانبية .

العودة إلى بحرى

ظل الرجال على تحلقهم حول المعلم كشك ، يوضحون ، ويتحايلون . يعدون بأن تكون إقامة صابر الشبلنجى فى القهوة مؤقتة ، حتى وافق المعلم على عودته ..

ــ أحتمله ثلاثة أيام لا رابع لها ..

وأشاح بيد غاضبة :

ــ من يعتدى على أعراض الناس لا مكان له عندى ..

وتنهد :

ــ لو أن المرحومة ابنتى فى بيتها ، ربما كان طلع إليها !

فاجأته المرأة ــ لما رأته على باب الحجرة ــ بصرخات متلاحقة ، خائفة ، منفعلة ، مستغيثة . هرعت الأقدام الحافية من البيوت إلى الإسطبل . وترك رواد مطعم النبلاء ، القريب ، ما بأيديهم . صرخات المرأة لا تصمت بدخول من قدموا لإغاثتها ، وصابر يتلفت فى حيرة ذاهلة ، كمن فوجئ بوجوده على باب الشقة ، وبالمرأة ، وبالأعين المتسائلة الملهوفة . غلبه الارتباك ، فلم يستطع حتى الكذب..

خمن القادمون ما حدث ..

اتجهت لعناتهم وقبضاتهم وركلاتهم إلى صابر ، وهو في حيرته الذاهلة ، يتلقى الضربات ، لا يحاول دفعها . أصر عباس الخوالقة ــ وهو يمسح من عينيه آثار النوم ــ على اقتياد صابر إلى نقطة الأنفوشي . تحايل محمود عباس الخوالقة حتى اكتفى أبوه يطرد الشبلنجي من الإسطبل ..

لم يتكلم ، ولا أقدم على تصرف من أي نوع . لم يدبر نفسه لكلام ، ولا لتصرف ، فغاب رد الفعل . فوجئ بوقفته أمام المرأة ، مثلما فوجئت به ..

كانت تنشر الغسيل في البلكونة المطلة على شارع سيدي كظمان . ترتدي قميص نوم من البوبلين الأسود ، الشفاف ، مشغولاً بالتَّرتر الأبيض . تبدو من تحته ثيابها الداخلية ، ولحم جسمها ، وبرزت حلمتا الثديين ..

لم يكن خطا داخل الحجرة ، ولا أعد التصرف أو الكلمات ، عندما فاجأته المرأة بصرخاتها المتوالية ..

بنت الكلب !.. ناقص رجل عن الأعرج ؟.. وهل جزاء تسترى عليها هو الفضيحة وقطع عيشى ؟!

قال مصطفى حجازى :

ـــ لماذا لا تساعد عم محمد الطوشى فى صنع الهريسة؟

قال حسنين الدمنهورى :

ـــ وهل يطلعه الطوشى على طريقة صنعها ؟!

كان عم محمد الطوشى يستأذن المعلم كشك . يغلق عليه باب المطبخ ، فلا يشاهد أحد طريقة إعداده للهريسة ، وتسويتها ، وان رآه الرجال يضع الصينية ـــ بعد تجهيزها ـــ على صينية ـــ فى حجمها ـــ من الماء الساخن ..

كان صابر قد أعد نفسه للعودة إلى رشيد ، لما وافق المعلم كشك على أن تكون القهوة مقراً انتخابياً لحمادة بك ..

أشار حمادة بك بعينيه إلى صابر الجالس على كرسى بجوار النصبة :

ـــ ماذا يعمل ؟

قال المعلم كشك :

ـــ كان سائساً فى إسطبل المرحوم ناجى التميمى ..

حدجه بنظرة مستريبة :

ـــ والآن ؟

رماه المعلم كشك بقرف واضح :

ـــ كما ترى ..

- لماذا ؟

أسرع صابر بالإجابة :

ـــ النصيب !

قال حمادة بك وهو يتجه إلى الباب :

ـــ أحتاج إليه فى فرن التمرازية ..

***

تابع ـــ فى تردده على قهوة الزردونى ـــ أخبار المرأة...

قيل إنها باعت الإسطبل لتاجر غلال قبطى فى كرموز ، وإنها سافرت إلى قريتها القريبة من كوم حمادة . وقيل إن الأوسطى فتحى استأجر لها شقة فى خط الرمل ، يمارسان فيها حياة الأزواج دون عقد مكتوب ..

قال صابر الشبلنجى :

ـــ بنت المركوب !. تبيع الإسطبل من أجل الأعرج؟!

قال مصطفى حجازى :

ـــ القلب وما يحب !

قال مؤمن الدشناوى :

ــ غضبت لأنها فضلت الأعرج عليك ؟

قال مصطفى حجازى :

ــ ربما وجدت المرأة فى عرجه ما يستهويها ..

ومضت عينا صابر بالضيق :

ــ هزار أم جد ؟!

قال مصطفى حجازى :

ــ بل كل الجد .. للنساء نظرتهن التى لا نفهمها ..

قال مؤمن الدشناوى :

ــ هل كنت تتطلع إلى مكان الأوسطى فتحى ؟

قال مصطفى حجازى :

ــ احمد الله على ما أبقته لك العلقة من رجولة !

ركن عم محمد الطوشى عربته إلى جانب الرصيف فى لهوجة . بدا انفعاله فى لهاث أنفاسه :

ــ هل نحن على أبواب ثورة ؟..

اتجهت إليه الأعين متسائلة ..

ــ الطلبة يهتفون فى الشوارع : لا ملك إلا الله ..

قال المعلم كشك :

ـ الناس تغلى لأكثر من مصيبة .. الهزيمة فى فلسطين .. وطلاقه من فريدة ..

قال الطوشى :

ـ يهتفون : حذاء فريدة فوق رأس فاروق .. خرجت الطهارة من بيت الدعارة ..

وداخل صوته تهدج :

ـ هل نحن على أبواب ثورة ؟..

إيقاعات صامتة

أذهلنى غياب الحزن عن كلماتك وتصرفاتك . كأن يسرية لم تمت . كأنها امرأة أخرى ، غير التى قرأت لها الشوق فى رسائلك من المدن البعيدة ..

امتد الليل ، فلم يعد ــ فى قهوة البحر ــ سوانا ..

قلت فى إشفاق :

ــ ألن تذهب إلى البيت ..

ــ تضايقنى الوحدة ..

غالبت ترددى :

ــ بارك الله فى يسرية !

ــ يسرية ماتت !

ماتت ؟!

تداخلت صور وكلمات ، تشابكت ، واختلطت ، فتأكد السراب فى نهاية الأفق . أحسست بدوار ، وتخاذل ، وأنى لا أسمع شيئا ..

دائماً كنا معاً ، فى أى مكان . لا نستغرب السؤال عن الآخر إذا كان أحدنا بمفرده لا نفترق فى البحر ، أو على

الأرض . نجلس فى قهوة الزردونى ، أو قهوة مخيمخ ، أو فى ورش المراكب . ربما دعوتنى ـــ آخر الليل ـــ لمرافقتك إلى البيت . تدعو يسرية ، فتجلس معنا . نسهر ، ونستمع إلى الراديو ، ونروى الحكايات ، ونلعب الكوتشينة ، ونصعد إلى السطح . نطل على استدارة المياه ، منذ السلسلة إلى ما بعد باب رقم ٦ . نتطلع إلى أنوار البلانسات فى الميناء الشرقية ، ومئذنة أبو العباس ، وضوء البوغاز يضوى ، ويختفى . ربما اشتريت سمكاً من الحلقة . أتبّله ، وأقليه فى المطبخ ، أو أشوى اللحم على الفحم فوق السطح . السطح الذى كنت أنتظر منه إشارة يسرية ، فأتجه إلى البيت ..

حين أصبت فى ظهرى ، وسافرت ـــ بمفردك ـــ للمرة الأولى ، لم أعد أتردد على البيت .. وكنت أنتظرك فى الميناء ، و فى قهوة الزردونى .. أجلس إليك بالساعات . تروى وتروى وتروى ، وأنا مفتوح العينين والفم . أسبح إلى موانىء ومدن وجزر . أبتسم ، وأحزن ، وأضحك ، وأستوضح ما يبدو غامضاً ..

تقول لى :

ـ أنا أدرى الناس بمشاعرك يا مختار .. البحر إدمان..!

التقيت بيسرية ـ ذات صباح ـ فى انحناءة الموازينى إلى ميدان المساجد ..

ـ كيف حالك ؟

ـ الحمد لله ..

ـ لم نعد نراك ..

ـ أعاد الله ثروت بالسلامة !

ـ وصلتنى رسالتان منه .. ليتك تقرأهما لى ..

زرتها فى مساء اليوم نفسه ..

تركتنى أمام الباب ، وعادت من داخل الشقة بالرسالتين ، فقرأتهما ..

أيقظنى تنبيهها من رحلتى فى المدن الغريبة ، والساحرة ..

تكررت زياراتى . أقرأ الرسائل ، وأمضى فى التصور والخيال والحلم . ربما توقفت عن القراءة ، لأضيف إلى الكلمات بما يشكل مشهداً ، ومشاهد ..

تنبهنى ، فأعاود القراءة ..

ثم لثم الموج جزيرة السحر للمرة الأولى ..

قالت :

ــ ثروت وحشنى ..

قلت :

ــ رسالته الأخيرة تؤكد عودته بعد شهر واحد ..

ــ وهل الشهر قصير على امرأة بلا زوج ؟!

ومصمصت :

ــ سحر الصغيرة تعامله كغريب .. تمضى أشهر لا تراه ..

همست بالدهشة :

ــ إلى هذا الحد ؟..

استطردت فى نبرة ملونة :

ــ يرفض أن يؤاخى البنت بولد ..

وتنهدت :

ــ متى يعود ويستقر ؟..

قلت :

ــ وهل هناك أجمل من الحياة فى البحر ؟!

ــ وما ذنبى أنا على البر ؟!

استقبلت يدها المصافحة التى أعقبت قولها . سرى الملمس الناعم بخدر فى يدى . امتد إلى جسمى ، فلفنى تماماً . استبقيت يدها ، فلم تنتزعها . ركلت الباب بقدمى ، وتقافزت الأسماك فوق المياه ، وانطلقت النوارس بعيداً عن الشاطئ ..

ثالث يوم ، فاجأتنى بوقفتها أمام القهوة :

ــ أين أنت ؟

تخلت البساطة عن عفويتها للتوقع والمجهول . لا أدخل البيت إلاّ إذا تأكد لى خلو الطريق . نخوض فى الأمواج . تطوينا مياهها الشبقة . نتعمد الاكتفاء باللحظة ، منفصلة عن البداية وملامح الأفق ..

توقعت أن يخامرك الشك . تلتقط ملاحظة عن ترددى على البيت فى غيابك . قدومها إلى القهوة . سألت نفسى : هل تواتينى الشجاعة ، فأنظر فى عينيك ، وأتكلم ، آخذ وأعطى . وماذا لو أنك دعوتنى إلى البيت ؟ هل أذهب أو أعتذر ؟..

قلت لى بعد غيبة :

ــ لم تعد تسألنى عن رحلاتى ..

ـ أنت يا دوب تصل إلى الإسكندرية ، فتسافر ثانية ..

قال :

ـ هذه المرة ستطول إقامتى ..

غالبت الارتباك :

ـ خيراً ..

ـ خيراً بإذن الله .. إجازة قد تبلغ الشهرين ..

وسحقت بقايا السيجارة بقدمك :

ـ سأروى لك الكثير مما يروقك ..

واعتدلت فى مواجهتى ، وبدأت تروى ..

أنظر ـ بطرف عينى ـ إلى يسرية الجالسة بالقرب منا . الأسئلة والتعليقات والضحكة الصافية . لم يكن الشك مما يدور لى ببال ، لو أن العلاقة كانت مع غيرى ..

كانت رسائلك متعتى الحقيقية . أسأل ـ بصدق ـ عن وصولها . لا أتذرع بها بداية لخطوات تالية . ما تحكيه الرسائل يكفينى فى ذاته . أدهش لما ترويه عن تواصل الأيام ، والمشاهد المتكررة ، والملل ، والحنين . لم أحب يسرية ، ولا سعيت إلى حبها . ما أردته هو الرسائل التى تصور ما أتوق لرؤيته ، الحكايات التى رويتها أنت لها ، عن الناس

والموانىء والشواطئ والأسواق والمدن البعيدة . فعلت ما فعلت دون أن يخطر فى بالى أن أتسلى بها ، أو أخدعها . كنت أملأ فراغاً فى نفسى ، خلّفه غيابك . شغفى بالحكايات يسبق شوقى لحضنها ..

فاجأتنى ــ ليلة ــ وهى تشير إلى بطنها :

ــ أنا حامل ..

استعصت الكلمات ، فسكت ..

كان الهاجس يدهمنى : ماذا لو أن يسرية حملت ؟ كيف تواجه ثروت ؟ وماذا لو أنه عرف بكل ما جرى ؟..

قالت :

ــ ألا تجد ما تقوله ؟

تحشرج صوتى بالقلق :

ــ متأكدة ؟..

ــ أنا فى الشهر الثالث ..

فى لهفة :

ــ ربما ثروت ..

هزت رأسها :

ــ ثروت يحرص أن ينزع نفسه عندما يبلغ الذروة ..

علا القلق بصوتي :

ـ هل ستحتفظين بالجنين ؟..

وشى صوتها بعصبية :

ـ أنت تكتفي بالأسئلة ..

ـ ماذا تطلبين أن أفعل ؟

وهي تزفر :

ـ أسئلة !.. هذا كل ما تملكه !..

فاجأتني بالسؤال :

ـ أنت لم تسألني عن يسرية ..

غالبت الارتباك :

ـ كيف حالها ؟..

ـ أنغام شكواها ارتفعت بطلب الخلفة ..

ـ وهل العيب فيك ؟..

ـ نسيت أن لي ابنة منها ؟!..

ووشى صوتك بانفعال :

ـ إذا أنجبت .. أفضل أن أظل بالقرب من الطفل ..

هل عرفت حقيقة ما حدث ؟..

لم تبح لى بما توهمت أنى لا أعرفه . لم تكن والد الجنين الذى حملته بسرية فى بطنها . التصرف طريق مسدودة ، فقتلها الإجهاض ..

هل اتجهت بشكوكك إلى أحد ، أو اكتفيت بإدانتها ، وأنها تستحق الموت بما فعلت ؟!

أصداء الطبول البعيدة

قال لأنسية من بين لهاث أنفاسه :

- رأيته .. أقسم أنى رأيته !

حدجته بنظرة متسائلة :

- من ؟..

- فؤاد أبو شنب .. رأيته يبيع الصنف ..

دارت ابتسامة بيدها . بر بقسمه لها ــ فى الصباحية ــ أن يقلع عن تعاطى المخدرات . لا حشيش ولا أفيون . حتى القهاوى قل تردده عليها . وتكرر اعتذاره عن الدعوة إلى قعدات المزاج ، فلم يعد ينتظرها ..

قالت وهى تهز كتفيها :

- ومالنا ؟..

- لم يكن يشترى .. كان يبيع على باب بيته !

- يشترى أو يبيع .. مالنا نحن ؟..

- من قال ؟!.. هذه نقطة ضعف أستطيع أن أمسكه فيها من شنبه !

أذهله وقوف الباعة بما يحملون . عربات يد وطاولات ، وضعت فوقها قطع الحشيش والأفيون والموازين . وسط الشارع ، أو داخل الدكاكين ، وعلى الأرصفة ، أو يستندون إلى الجدران ، أو يجلسون فى القهوة الوحيدة . يقطعون ما بأيديهم إلى قطع صغيرة . ما يهمس به البائع ، يتقاضاه دون فصال . لا أخذ ولا رد . تختفى الحلقات الصغيرة ، وتنشأ حلقات أخرى . ربما صعد أحد البيوت القديمة . تشى واجهته باختلاف عن بقية بيوت الشارع . ينقر ـــ بأصابع مدربة ـــ على باب شقة فى الطابق الأول . يطل وجه مستريب . يدفع القروش . يخرج البائع قطعة كبيرة من الأفيون . يقطع منها بالسكين قطعة صغيرة فى حجم الترمسة . يلفها فى ورقة سيلوفان ، وهو يهمس بكلمات مجاملة ..

بدين للرجل بتعلم الخبازة . عمل عجاناً وطولجياً وفراناً ، قبل أن يختاره والد حمادة بك رئيساً للعمال ..

لم يكن سيد يعرف الفارق بين أنواع الخبز : عيش القمح ، عيش الذرة ، العيش المرحرح ، العيش البتاو ، العيش المقرص ، العيش المنطط ..

قدم إلى الإسكندرية من كفر الدوار ، للاشتغال بالفاعل . زار المرسى ، وتجول فى شوارع الحى . مال إلى مطعم النبلاء . جرى بينه وبين عم سلامة حديث . دله على قهوة كشك ، وقدمه إلى حمادة بك ..

وقف ــ فى البداية ــ أمام الماجور ، يعجن الدقيق . ثم اختاره فؤاد أبو شنب للعجين . يسحب الطوايل الخشبية من المعجن ، يضعها لصق الجدار المواجه للفرن . ثم عهد إليه بالوقوف أمام الفرن . يلتقط قطع العجين المكورة من لوح العجين . يبططها ، يضعها فوق المطرحة ، يدفعها إلى الفوهة . تعلم حتى العبارات المصاحبة لعملية الخبيز : يد الله قبل أيدينا .. يا رب اكفنا شر العطل .. يا رب اكفنا شر المستخبى والمدارى .. ربما دندن بالأغنية : اللى ما تعرفش ترميها .. على بيت أبوها وديها ..

كان أبو شنب يعفى حمادة بك من مسئوليات الفرن . يدفع بأحد العمال ليواجه اتهامات مفتشى التموين ، أو ينفذ

أحكام الحبس . بتصرف فى كبسات التموين التى تشترط الرغيف الكامل الاستدارة ، المضبوط الوزن .

حين قبلت أنسية عرضه بالزواج ، فلأنها كانت تريد الاستقرار ، ولأنها أحبته كذلك . أحبت طيبته وطبعه الهادئ . كان الزواج فى خيالها كالأمنية ، كالحلم ، كالصدى البعيد . تحن إلى الرجل جوارها ، يغلق عليهما باباً ، فلا تخشى المفاجأة . ينشغل بها : أين تذهب ؟ ولماذا تأخرت ؟. يضربها لخوفه عليها ، لا لإرضاء نفسه . لم تضع فى بالها شخصاً بالذات . محمود الخوالقة أو سيد الفران أو قاسم الغرياني ، وغيرهم ممن ترددوا على البيت المهجور . يقضون الأوقات ، ويعودون إلى البيوت والنساء والأولاد . حتى سيد الفران ــ إلى يوم الإضراب ــ لم يدخل معها فى كلام . يتسلل وراءها فى ظلام البيت المهجور . يرفق ابتسامته المرحة دسّه للخبز الرجوع فى يدها . يهز رأسه محيياً إذا رآها فى الطريق . فاجأتها زيارته صباح يوم الإضراب . اعتادت أن تغلق عليها باب البيت . لا يتردد عليها أحد ، فيلفت النظرات المتطلعة من النوافذ المقابلة ..

فاجأها عرضه بالزواج . تصورت أنه يريد تأكيد إعزازه ، لكنه كرر العرض . عاد إلى ذهنها ما بدا بعيد التحقيق ، أو أنها أهملته . أحبت المعنى : أن تكون زوجة . رجل واحد يقاسمها السرير ، والأكل الذى تعده ، وتعرف صوته حين يعود آخر النهار ، فتفتح له الباب ..

ــ صحيح ؟

ــ لن أجد أفضل منك ..

ــ قد يرفض أهلك ..

أطلق ضحكة مريرة :

ــ أنا مقطوع من شجرة ..

ــ هل أنت جاد بالفعل ؟..

ــ كنت أخشى أنك ترفضين ..

ضربت صدرها بيدها :

ــ أنا أرفض ؟!

ــ لست على قد المقام ..

رمقته بنظرة مستريبة :

ــ لست جاداً إذن ؟

قال فى بساطة :

ــ لم أكن جاداً مثلما أنا الآن !

لم يكن في فتوة محمود الخوالقة ولا جرأته . ارتعشت بين ساعدي محمود ، وكتمت صراخ اللذة . عوض سيد ــ دون أن يدري ــ بصبره عليها . يظل حتى يلمح في عينيها ذروة الاستجابة ..

***

قالت لسيد مداعبة :

ــ لن أبات جعانة وزوجي خباز ..

ــ لم أعد كذلك ..

ــ هل أنت نادم على أيام الفرن ؟..

رسم على وجهه ابتسامة تأسف :

ــ من يندم على أيام أبو شنب ؟!

لم يطلب التاجر كمال مصباح إيجاراً ، منذ سكنا الشقة . وحين دفعت سيد للتلميح ، رفض الرجل . قال إن إيجار الشقة هديته إلى مقام سيدي ياقوت العرش ..

ألفت حياتها . تطبخ ، وتغسل ، وتكنس ، وتنظف الشقة ، وتساعد بالعمل في بيت عبد الله الكاشف ، وتنتظر عودة سيد . ربما أطلت من النافذة ، تتابع ــ بنظرة غير متأملة ــ

لعب الأولاد بالنحل والبلى والدوم . توارب ضلفتى النافذة . تتطلع من الشق الطولى بينهما ، أو تنظر من خصاص النافذة المغلقة . تتأمل الباعة يعرضون ويبيعون لصق الجدران ، وفى القهوة الوحيدة ، وأمام أبواب البيوت والدكاكين . ربما علت الأصوات بالحدة ، أو بالتشاجر ، أو أسرعوا بالاختفاء بصيحة ناضورجى . تدخل ، وتغلق النافذة ، لنظرة متوجسة . يأتى سيد فيجدها فى انتظاره . تنفذ ما يطلبه . لا تناقشه ، ولا تطلب إلاّ ما يحتاجه البيت . لمحها وهى تنقل صرة من أسفل السرير ، لتنظف مكانها . هذه صرة بيت سليم البشرى . هزت رأسها . ضرب جبهته بأصابعه :

ــ لك الآن دولاب وتحتفظين بالصرة ؟!..

لم تعقب ، وواصلت كنس الحجرة ..

قضت أيامها الأولى تتجنب الاحتكاك بجاراتها . ثم تعمدت أن يعرفها الجيران . هى ساكنة شقة الطابق الأول فى البيت رقم ٩ . زوجها سيد الفران صاحب كشك أدوات الصيد فى ناصية شارع السيالة . تطل من النافذة . تتأمل السحن فى النوافذ المقابلة . تنادى على الباعة . فرحت برد التحية ، ثم تبادل الكلام . رحبت بطلب جارة الشقة المقابلة

فصين ثوم . أعطتها رأس ثوم بحالها . اكتفت بالنداء على جارة الطابق العلوى ، لما أسرفت فى استخدام الماء . تسلل خلل الأرضية الخشبية . أحدث نشعاً بلّل قشر سقفها الحديث الطلاء ، وصنع ظلالاً وتكوينات . ثم بدأت نقاط الماء تتساقط فى مواضع من الحجرة . نزلت على مخدة السرير ، وخلف باب حجرة القعاد ، وعلى طرقة المطبخ .. لم تأخذ الجارة أو تعطى . مصمصت ، وبرطمت ، وعابت الزمن الذى أسكن بيوت الناس خادمات البيوت ، زوجات كل الرجال !..

أعادت على سيد ما قالته المرأة . قالت إنها شاهدتها ــ زمان ــ تغنى فى كازينوهات الكورنيش :

لولاك يا جونى .. ما كنت يا مونى !

بعد أن أعلن سيد اعتزامه الزواج منها ، كف الرجال عن ملاحقتها . غابت التعليقات عن أذنها .. تسير ، لا تتلفت ، لا تلاحقها عبارة ، أو دعوة ، ولم تعد تتوقع أن يترصد لها أحد فى ظلمة الطريق ..

أخلص فى إرضائها . قرر أن يكون هذا عهدها به . يثق فيها . لكن الاطمئنان إلى إغلاق الباب مسئوليته وجهده

. لم تعد الفرانة مهنته ، ولم يعد يغادر الكشك إلى قهوة كشك . شقته فى شارع البلقطرية . خطوتان بين الكشك والبيت . قل تردده على القهاوى وحمام الأنفوشى ، واقتصرت تسميته لأنسية ــ خارج البيت ــ بالجماعة ، وألف ترديد دعاء الجماع : اللهم جنبنا الشيطان .. وجنب الشيطان ما رزقتنا ..

لم يلحظ ما يؤاخذها عليه ، لكنه لم يستطع التخلى عن هواجسه ، أو أن الهواجس لم تغادره . الأسئلة تناوشه وهو يجالس الرجال : من أخذها فى حضنه ؟ ومن أعجزه المال عن مضاجعتها ؟ ومن كان يتطلع إليها ؟ ماذا يقولون عنه فيما بينهم ؟ هل يتصورون أنه سيهمل ما تفعله فى الأيام القادمة ؟ هل يتصورون أنها ستظل على علاقاتها ؟.. يعطى انتباهه لما قد يكون تلميزاً ، أو تغميزاً . ويعد نفسه لمقاتلة شرسة ..

يحاصره الضيق فى تأمله لملامحها المنمنمة ، وسمرتها الرائقة ، وحركاتها الطفولية . كأنها ليست التى أمضت السنين فى التنقل بين البيوت . يطلق أف أف أف مجروحة . يزيد شعوره بالضيق من الدافع إلى عناقها . مدربة ، وتعرف كيف ترضيه . يتذكر أنها بذلت الأمر نفسه

لآخرين . يخشى أنه ربما التصق بجلدها ، فلا تستطيع التخلص منه .

همست لنفسها ، وهى تطيل النظر إلى جلسته الساكنة على السرير :

ــ كيف أقنعه بأنى لم أعد أعرف رجالاً غيره ؟!

طالت الوقفة أمام مقام سيدى ياقوت العرش . مدت يدها ، فلامستها يده الممدودة من داخل المقام . مضيئة مع سواد بشرتها . أخذ عليها العهد ، وأقسمت بين يديه . إذا حنثت بقسمها ، فإن سيدى ياقوت ينتقم منها بشل يدها ، أو لسانها ، أو يصيبها ضرر فى مواضع لا تعلمها من جسمها . تمنت لو أن الذين يذكرون ماضيها اختفوا ، أو أنهم نسوا حياتها القديمة . لا يعرفون إلاّ أنسية زوجة سيد الفران . تحيا فى بيتها رقم ٨ بشارع البلقطرية . ما قبل ذلك لا شأن لها به ، ونسيته ، ويهمها أن ينساه الناس . تستأذن من سيد . يهمس وهو يغادر البيت : الفاتحة أمانة . تمضى إلى أبو العباس . تصعد سلالم الباب الخلفى ، فى نهاية الموازينى . تخلع حذاءها عند باب القاعة المستطيلة ، خالية إلا من المحراب ، والحصير ، والندغات الثلاث تدلت من مسافات

متباعدة ، يحيط بها الحديد المجلفن بالزجاج على هيئة ورود تفتحت على ضوء المصابيح الساقط إلى أسفل . تصلى وقتاً أو اثنين . تزجى بقية الوقت فى الإنصات إلى أحاديث النسوة . تبدأ ، وتمتد ، وتتشابك ، وتختلط . تكتفى بالإنصات . لم تذكر حتى اسمها ، ولا أين تقيم . هى واحدة من المترددات على مصلى النساء . تتحرك شفتاها بجواب السؤال دون أن تنطقه . تكتم الكلمات حتى لا يكر طرف الخيط ، فلا تحسن التقاطه ، أو قطعه . تلقى نظرة عفوية من ثقوب المشربية على صحن الجامع . إلى اليمين : المنبر ، والمحراب ، والناحية المطلة على الدحديرة الخلفية . وإلى اليسار مقام السلطان المجاور للباب الملكى . دفعة عبد النبى شعرة المترفقة : اسعى .. اسعى وصلى على النبى !.. وفى الواجهة ، يفضى الباب الرئيسى إلى الميدان ، والحديقة ، والميناء الشرقية ، بينما تتألق الأعمدة الرخامية الثمانية ، أوسط الصحن ، بانعكاسات الأضواء المراقة من النوافذ والأبواب . تستعيد لحظات النصفة والمدد والمكاشفة : هل كان ما جرى حلماً ؟ وهل كان لقاؤها بالسلطان حلماً كذلك ؟ وماذا تسمى حصولها على شقة البلقطرية ؟ هل كان التاجر

كمال مصباح يعطيها الشقة ، لولا أن سيدى ياقوت العرش خاطبه مثلما خاطبها ؟!..

* * *

حرصت ــ فى الأيام التالية ــ على شرب ما أعدته لها الداية زمزم . تشرب ــ كل صباح ــ على ريق النوم ــ مزيجاً مسحوقاً من الخردل والحلبة والمغات والدسيسة وحلف البر . ثم انشغلت بوحمها . طلبت لحماً وعنباً ورماناً وكابوريا . صرخ فيها سيد لما طلبت طين إبليس ، لكنه اقتطع لها من أرض الطريق قطعة طين . مضغتها وهى تغالب القرف ..

ظلت فى شقتها أربعين يوماً لا تغادرها ، حتى لا تتكبس . سيد يشترى لوازم البيت ، وينشر الغسيل ، ويفتح للطارقين ، ويلاحظ بروز الجنين ، ونمو الحمل . تحرص على مداراة نفسها ، فلا يراها أحد . ألف سماع صوتها تغنى فى الصباح ، مثلما تنهنه باكية قبل النوم . تجد فيما تفعله طرداً للشر ، واجتلاباً للخير ..

أصرّت ، فبدّل سيد عتبة الشقة . كنس ما تحت البلاط جيداً ، بحثاً عن عمل . حرصت على أداء الصلاة فى

مواعيدها ، وخصصت صباح كل خميس لتلاوة القرآن ، تجلس القارئة على كنبة الصلاة . تواصل التلاوة منذ الضحى إلى أذان الظهر ..

وضعت مصحفاً فوق السرير ، وبالقرب منه . ووضعت سكيناً حديدية ذات مقبض أسود تحت المخدة . الأرواح الشريرة تخشى الحديد ، ولا تقرب مكانه أبداً . عند تعليق الملابس ، تخرج ــ أو تقلب ــ أحد جيوبها ، أو أكمامها ، طرداً للشر . تضوع الحجرة ــ فى موعد صلاة الجمعة ــ بالبخور ذى الرائحة الذكية ، فيطرد الأرواح الشريرة . تشدد على سيد لشرائه من سوق الترك . وكانت تذكّر سيد – كل صباح – بأن يعود ــ أو تعود هى ــ بوردة من الحديقة المجاورة لمستشفى الملكة نازلى . تضع الوردة بساقها الشوكية فى كوب زجاجى ، لتمنع دخول ــ أو اقتراب ــ سكان العوالم السفلية . تخشى الشوك لأن فيه هلاكها ..

أظهر ضيقه لما علقت على جدران الحجرة صوراً لممثلين ومطربين : كمال الشناوى وفريد الأطرش وأحمد

سالم ومحسن سرحان وحسين صدقى وأنور وجدى . تسلل إليها فى الجلسة الساكنة : هل تحن إلى ماضيها ؟..

همس لقاسم الغريانى بتحيره ..

أطلق الغريانى ضحكته المقهقهة :

ــ الولية حامل يا سيد .. وتريد طفلاً جميلاً ..

وسألها :

ــ لماذا صور الرجال وحدهم ؟

قالت :

ــ أريده ولداً !

رأت ــ فى المنام ــ أنها أنجبت بنتاً ، فتفاءلت . رؤية الولد فى المنام ، تنذير بمشكلة سخيفة . ولما حلمت بأنها أكلت سمكاً ، قالت لها الداية زمزم : السمك فى الأحلام خير . ولما جاءها المخاض فى منامها ، قالت لها الداية زمزم :

ــ حاذرى .. الولادة فى المنام تنذير شؤم !

همست بالحيرة :

ــ وماذا أفعل ؟

ــ انذرى للسلطان !

اتساع ضيق الأكوان

قال أبو الحسن الشاذلى : " فرغ قلبك أيها الفقير من الأغيار ، وهو ما سوى الله . بحيث لا يتعلق قلبك بشىء من الكون علوياً أو سفلياً ، دنيوياً أو أخروياً ، حسياً أو معنوياً ، كحب الخصوصية و غيرها من الحظوظ . فإذا رحل قلبك من هذا العالم بالكلية ، ولم يبق فيه إلاّ محبة مولاه ، فإنه يملأ بالمعارف ، بحيث يكشف عنك حجاب الوهم ، ويذهب عنك ظلمة الحس ، فتشاهد الأشياء كلها أنواراً ملكوتية مشاهدة ذوقية تمكينية ، ويملؤه أيضا بأسرار ، وهى أسرار الجبروت ، فتغيب بالجمع عن الفرق ، بشهود الجبروت عن شهود الملكوت ، وتكاشف بأسرار القدر ، فيهب عليك نسيم برد الرضا والتسليم ، وأنت فى حضرة النعيم المقيم ، عند الملك الكريم " ...

***

" المحب على الحقيقة لا سلطان له على قلبه لغير محبوبه ، ولا مشيئة له مع مشيئته "

***

" يااللى نازل البحر حرص ..

دا البحر فيه عين ..

عين الحقيقة عين ..

عين الشريعة عين ..

وعين اللى لا تراه العين " ..

لما ظهرت مئذنة أبو العباس ــ أثناء سيره على الكورنيش ، وسط البنايات المتصاعدة ــ تنبه إلى أنه اقترب من بحرى .. تآلف هدير الموج ، وهسهسة النخيل ، ورائحة اليود ، فى أنفه وأذنيه ، مهما ابتعد عن الحى ..

الموج ــ فى أسفل ــ يصطخب ، يرتطم بالمكعبات الأسمنتية الهائلة ، فى امتداد سور الكورنيش ، يتعالى ، ويمتد إلى الرصيف ، يصل الرذاذ إلى الجزر ، أوسط الطريق والرصيف انمقابل ، وواجهات الدكاكين والقهاوى المغلقة ..

رأى أسراب النورس تحلق فوق السلسلة ، تدله على مكان السمك ..

اتجه إليها ..

عسكرى السواحل يذرع الرصيف الحجرى فى خطوات مرهقة . بندقيته على كتفه ، ونظراته موزعة بين البحر ولسان السلسلة وطريق الكورنيش ..

تنبه الى تحرك الفئران فى المكعبات الإسمنتية ، أسفل السور . لمح فأرا ينفذ بسرعة من الطحالب الخضراء المحيطة بأسفل المكعبات . يدخل فى الشقوق ، صنعها تفتت الأسمنت اللاصق لقطع الحجارة الصغيرة ، على امتداد الشاطئ . يدرك الفارق بين الأصوات التى تحدثها ، وأصوات تحرك القواقع والأصداف تحت الصخور ..

آثر حياة التقشف والزاد والسياحة . خلاّ عياله ، وساح فى الأرض على وجهه . حبس نفسه عن المخالطة ، واجتنب التبعات ، وواصل الليل والنهار بالعبادة ، والاشتغال بحفظ الأوقات ، وملازمة الأوراد ، وأداء الصلوات فى أوقاتها . يطيل الدعاء من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ، ومن العصر إلى الغروب . هذه الأوقات هى الأنسب للاستجابة للدعاء . أضاف إلى عزلته : الصمت ، والجوع ، والسهر . يبتغى رضاء الله فى كل خطوة ، وكل خطرة ، وكل نفس .

غاب عن بيته بالأيام . لم يعد يذهب إلى الخلاء ، بالقرب من مساكن السواحل ، ولا إلى قهوة الزردونى ، أو حمام الأنفوشى . لم يعد يحمل شروات يبيعها ــ مثل زمان ــ فى الرمل وطالع . ترك لقدميه مقوده ، تذهبان به إلى ميدان أبو العباس ، يصلى ويقرأ الفاتحة للسلطان ، تطوفان على الجوامع والأولياء . يقرصه الجوع ، فيميل على من يتذكره ، يأكل أو يأخذ نقوداً . يمضى ــ دون هدف ــ تلازمه الأوراد والأذكار . من يتوجه إلى الله وهم الرزق فى قلبه ، لا يفلح . السائر فى طريق الحقيقة يشغله علم الله عن جميع الأسباب . حتى عن رزق عياله ، فهو ميت حى ، مودع وإن انتظمت أنفاسه ، مخفى رغم مخالطة الناس ، صائر إلى النور فلا تشقيه الظلمات المتكاثفة حوله . أخرج أهل الدنيا من قلبه ، وملأه بمحبة الله . ينام حيث يغلبه النوم ، فى قهوة مخيمخ ، أو فى صحن مسجد المسيرى . ربما تكوم على نفسه فى الحديقة المجاورة لمستشفى الملكة نازلى . دعا الله أن ينزع شهوة النساء من نفسه ، فاستجاب الله لدعائه . انتصر على رغبات جسده ، وشهواته ، وقطع رجاءه بدنيا الغاوين . استيقظت عين قلبه ، فنامت عين

جسمه . لم يعد يطأ أم العيال ، ولا يدعوها إلى حجرته . ارتفع بنفسه عن رق الشهوات . نفض عنه الغفلة ، فلا تظفر به شهوة جسده . تخلص من وساخة الجسد ، ليتصل بما هو نقى ، ويدرك نور الحقيقة الصافى ، الذى لا يقترب منه العكر . ذوت كل متعة ، إلاّ متعة التوجه إلى الله . حين ينعم القلب بمحبوبه ، لابد أن يرفض وصال غيره . استمد وجوده من القرب ، وأنسه من المشاهدة ، ودخل فى عين اللذة بذكر الله . الأرائك منصوبة على ضفاف الأنهار ، والأنهار مضطردة باللبن وأنهار العسل ، والرجل من أهل الجنة يعانق الحوراء سبعين سنة ، يجامعها بقوة سبعين رجلاً ، لا يداخله ملل ، ولا تمله ، كلما أتاها وجدها بكراً ، وكلما عاد إليها عادت إليه شهوته . المرأة من نساء أهل الجنة لو أنها طلعت على الأرض ، لأضاءت ، وملأت ما بينهما ريحا ، وخمارها على رأسها خير من الدنيا وما فيها . يقال لها : أتحبين أن نريك زوجك فى أهل الدنيا ؟ . تقول : نعم . يكشف لها عن الأستار ، وتفتح الأبواب بينها وبينــــه . تراه وتعرفه . تستبطئ قدومه ، وتشتاق إليه شوق المرأة فى الدنيا إلى زوجها الغائب . إذا أغضبته زوجته ، يشق عليها الأمر

. تقول موبخة : دعيه من شرك ، إنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا . يحيا الخلود ، فلا يشيخ ، ولا يمرض ، ولا يخاف ، ولا يحزن ..

ذهلت أم الأولاد لما وصل إليه حاله . ترددت على المشايخ الواصلين . لجأت إلى الشيخ كراوية خادم سيدى مكين الدين . صنع لها رقية ، وطلب منها أن تأتى بقطعة من عظام ميت ، وشعيرات من رأسه . تدفنها ــ فى الليلة نفسها ــ داخل مقبرة مهجورة . حرصت على أن تخلع ثوبها الأسود ــ عقب العشاء ــ داخل البيت ، ولا تنظر الى المرآة . الجان يتقمصون الأردية السوداء ، ويختبئون خلف المرآة . وضعت على باب البيت حذاء صغيراً ، قديماً ، لإلهاء النظرة الحاسدة ، المصحوبة بشهقة الإعجاب . قلبت الأوانى والهون والطناجر والمواعين المفتوحة على أفواهها ، حتى لا يدخلها الشر . ذبحت ديكاً أحمر اللون . دفنته فى مدخل البيت ، ووضعت حبة البركة فى فنجان القهوة ، ليعود إليها محباً ، كما كان ..

حين شكا الراكشى من مغص فى بطنه ، خمنت السبب ، وسكتت . كانت قد مزجت خصلة من شعر رأسها بقطعة

عجين . خبزتها فطيرة ، وقدمتها إليه ، فلا ينصرف بجسمه ، أو بفكره ، عنها ..

لما دار بعصاه فى يده ، يريد أن يضرب بها ولداً شتمه ، تعثر فى نفسه ، وسقط على الأرض . التف الأولاد فوقه ، يضربونه بأيديهم وأقدامهم ، وهو يشتم ويصرخ ويستغيث . توقف الأولاد ، وجروا لصيحة من أول الشارع ..

ساعده أمين عزب على القيام . حدجه بنظرة غاضبة :

ــ وآخرتها يا على ؟

أخفض رأسه ، وهمس :

ــ أريد طعاماً ..

هتف أمين عزب :

ــ أولادك أيضاً يريدونه ..

وزغده فى كتفه :

ــ يا راكشى .. لن يدخل الجنة من يترك عياله !

ثم بلهجة متسائلة :

ــ ما ذنب أهل أم أولادك لينفقوا عليهم بدلاً منك ..

ورمقه بنظرة مستاءة :

ــ تدعى الصوفية .. والصوفية لهم مهنهم ..

ثم فى نبرة حزينة :

ـ عبادة الله يا رجل لا تمنع من تحصيل الرزق ..

واستطرد :

ـ لى أشغالى التى لا يعطلها أنى أقضى معظم وقتى فى خدمة العبادة !

ـ أنا صياد ..

شخط فيه :

ـ تصطاد الهواء ؟.. شف رزقك يا رجل ..

فاجأ أم العيال ـ والجميع ـ عندما أتى بالبوصة المركونة فى الصندرة . حملها ، وحصل على الطعم والسنارة من سيد الفران . هو لا يكره الصيد . لا يكره العودة إلى البيت بما ينتظره الأولاد . إنهم يده المريضة التى تؤلمه ، وإن تيقن أن انشغال المرء عن ربه حرام ، فلا ينبغى أن يكون فى الذهن سوى الذات العلية ..

قال سيد الفران :

ـ أنت أول صياد أبيع له بالسلف ..

وعلا صوته متضاحكاً :

ـ فرحتى بعودتك إلى البحر أهم من الفلوس ..

هز رأسه ، ولم يدخل مع سيد فى كلام . قطع الميدان إلى الناحية المقابلة . جعل يساره إلى الكورنيش ، ومضى . لم يأبه بالنظرات الداهشة ، ولا التفت إليها . ظل فى سيره إلى السلسلة ..

أهمل نظرة عسكرى السواحل المستنكرة ..

قال الجد السخاوى :

ـ منطقة السلسلة يقول فيها السمك : تعال اصطدنى !

ثم وهو يتلهى بمداعبة أصابع قدمه :

ـ السمك هناك ـ لكثرته ـ يقف بالدور أمام سنارات الصيادين !

قال قاسم الغريانى فى تأكيد :

ـ لا يفوق تكاثر النسل بين أبناء الأنفوشى إلاّ سمك السلسلة !

المشكلة لم تعد فى قلة الأسماك . الأجيال الجديدة من السمك فاهمة ، تتغير مثل الناس تماماً . تعرف أن هذه بوصة ، وأنها تدلت للصيد . تعرف أيضا كيف تختبئ بجانب الصخور . لابد من محاولة أخرى حتى يخدع السمكة ، فتلتقط الطعم ..

قال العسكري :

ــ معك رخصة ؟..

قال الراكشي :

ــ طبعاً ..

وأخرج من جيبه ورقة مطوية ، متهرئة ..

قال العسكري :

ــ هل في رخصتك إذن بالصيد في الممنوع ؟..

وهو يشيح بيده :

ــ كنا نصطاد في أى مكان دون استئذان أو سؤال ..

قال العسكري :

ــ الآن .. حددت المناطق .. لابد من رخصة ووثائق لدخول المناطق الممنوعة ..

ثم وهو يعدل البندقية على كتفه :

ــ احمد الله .. حتى نهاية الحرب لم تكن تستطيع الصيد في الكورنيش كله ..

ــ غارت الحرب .. لماذا المناطق الممنوعة إذن ؟!

تأمل العسكري ذقنه الكثة :

ــ أوامر يا سيدنا ..

سار خطوات فى اتجاه بحرى . لمح ــ بزاوية عينه ــ اطمئنان العسكرى ، فعاد ..

أدار البوصة دورة كاملة من فوق رأسه ، ثم قذف السنارة فى الماء . غاصت مخلفة وراءها دوائر متتالية ، واصلت الاتساع حتى غابت تماماً. ظل السلك فى الماء يكاد لا يرى ..

كتم صرخة ، لما ثنى جسمه ، فراراً من عينى العسكرى . اصطدمت البوصة بصدره . تزحلق ، وتدحرج على قطع الحجارة البيضاء . تلقفه الفراغ ، وهوى به فى الماء ..

خمن أن العسكرى ربما لم يره . أغلق فمه ، وسد أنفه بأصابعه ، وظل ساكناً فى موضعه ..

تنبه العسكرى لارتطام الجسم بالماء . توقف ، وحدق : الطرطشات تعالت على قطع الحجارة ، وضاقت الدوائر المتسعة فى الماء . فرد ما بين ساقيه ، وارتكز بقبضته على البندقية ، وانتظر . حتى أمهر الغواصين لابد أن يطفو ، وانتظر ..

قال العسكرى :

ــ شايفك ..

أيقن أنه وقع فى الفخ . لو أن شعر رأسه طفا فوق الماء ، فلن يفلت . خذله ارتقاء الصخور ، فاجتذبته المياه إلى أسفل . سقط دون تحوط ، وظلت كلمة العسكرى بلا انتهاء . القبض عليه فى منطقة محظورة يعنى البيات فى الحبس ، البعد عن البيت . لم يحمل البوصة إلا بعد أن هددت الشروخ بالانهيار . ضاق تنفسه ، فتسلل الماء إلى أنفه وفمه . شهق ، وهم بالتنفس من فوق الماء .. لكن صوت العسكرى واصل التحذير ..

طال كتمه لنفسه . ظل فمه مغلقاً ، وإصبعاه يقبضان على أنفه . أحس أنه يختنق ، والمياه ثقيلة ثقيلة ، أقوى من قدرته على الطفو ، فهى تسحبه إلى أسفل ، تشده إلى القاع ..

شمل جسمه تعب ، وانفتح فمه بلا إرادة ، وتهدلت يداه ، وتسلل الماء إليه بخدرغريب ، وتماوجت المرئيات قاسية ، جميلة . اجتذبه قرار الماء . لامست قدماه الطحالب اللزجة والأعشاب فى القاع . قوة غامضة ، مجهولة ، تأخذه إلى أسفل ، تحتضنه ، تحنو عليه . صاد من أنهار الجنة أسماكاً لا تجرى فى بحر كما فى الدنيا ، من سكر ولوز وعسل . يتمناه فيكون ، يمد يده فيواتيه ، ويأكله فتسرى فى البدن نشوة . الأنهار خمر ،

والقطرة من السمك تسقط فى البحر ، يصير حلواً ، عذباً ، له رائحة الورود ..

أبدت المرأة فزعها لما رأته ينثر الماء من يديه بعد الوضوء : لا تفعل ذلك .. أنت تنثر حسن طالعك طول اليوم !.. وقال عبد الوهاب مرزوق فى قهوة الزردونى : ربما تحجب سحابة صغيرة ، عابرة ، شمسا كاملة ! .. وقال الشيخ يوسف بدوى : ربما الابتلاء طريقك للوصول إلى مراتب الاستحقاق ! وطالت الوقفة حتى يأتى السمان . وتساءل : امتلك الحاج قنديل البحر .. فهل يمتلك البر أيضاً ؟ .. وقال الحاج قنديل : أصبح للجربوع صوت يرفعه !.. وبدت المرأة مسكينة ، مهمومة ، وبدت شيطاناً ينغص عليه حياته. وقال : لن أظل العمر كله تحت قدمى الحاج قنديل . وقال : لا أحلم بالنعيم .. لكن عشرين عاماً فى البحر ، تعطينى الحق فى أن أكون حر نفسى . وقال الشيخ : إن الاستغاثة لا تكون إلا بالله تعالى ، والتطهير بداية الطريق إلى الله . بداية المجاهدات والمقامات والأحوال ومعرفة الله سبحانه . وقال الشيخ : إذا ترقيت فى مقامات الإيمان فستصل بعون الله إلى مقام الإحسان ، فتعبد الله كأنك تراه ..

دنيا واسعة ، تفيض بلطائف الحكمة ، وحقائق المحبة ، وأنوار العلم . المساجد والحصر والأبسطة والمنابر والأعمدة والقباب والأضرحة والأهلة والمصاحف والسبح والبخور والحضرة وحلقات الذكر وإيقاع الطبول وأصوات المنشدين والصمت والانزواء والانفراد والتواجد والشطح والهزات العنيفة والتهجد وإقامة الصلاة وقراءة الأوراد وتلاوة القرآن والتأمل فى الملكوت وأهازيج السحر : تسابيح المنشدين والمؤذنين ، ومشاهد الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العمائم ونزع الثياب والزحام وأصوات الألوف من أولياء الله الصالحين ، وأصوات الملايين من طالبى البرء والشفاعة والستر ، ورياضات النسك والصوم والسهر والمفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة والمحبة والشوق والأنس والرجاء والتوكل والقرب وموارد القلوب ، والتجليات تأتى وتذهب ، والروح تشف ، تتخفف من قيود البدن : الوحى والرؤى والملائكة والكرامات والمعجزات والصفات واللوح والقلم والحب والخمر والصبابة والعشق والندامى والشوق إلى يوم اللقاء ..

حمى الوطيس ، وبلغت حركة الذكر غايتها من القوة والسيطرة على الذاكرين ، وعلت صيحات الوجد ، وصرخات التعبير عن الأحوال ، وصوت العسكرى كالصدى : شفتك ، والأطياف تتراءى من بعد ، والأشعة المضيئة تخترق المرئيات ، وتضئ نفسه ..

تلقى فيض التجليات على قلبه . نزلت أمطار المدد على أرض النفوس الطيبة ، والقلوب المطهرة ، والأرواح المضيئة ، والأسرار المقدسة . غسلت أوساخ الهم ، وتمت المصافاة ، وحلت المناجاة ، وفتح باب القدرة . صعد سماء بعد سماء . رنا إلى عجائب الله وآياته ، امتلأ بالانوار والمواهب ، تقلب فى أحوال الحب ، تطلع إلى سحائب الرحمة ، وأرض النفوس الطيبة ، وأودية القلوب المؤمنة ، وخلجان الأرواح المطهرة ، والألفاظ تهب معانيها : الذوق والوجد والقبض والبسط والهيبة والأنس والغيبة والحضور والسكر والمحو والفناء والبقاء والنورانية والرؤى والصفاء والأغنيات الجميلة الغائبة المصدر ، والنسائم هبت على المزامير المعلقة فى جريد النخيل ، فتعالت نغمات ليست من دنيا البشر ..

اتسع ضيق الأكوان ، وحصلت أنوار المواجهة ، وصارت الروح سراً من أسرار الله ، وأقبل القلب على رؤية مولاه . لا ظلمة ، ونور العرش دائم فى الليل والنهار ..

سكنت الحركة ، وتمطى الهدوء

جسر إلى الحبيب

قال أبو الحسن الشاذلى : " وتصحيح العبودية ، بملازمة الفقر ، والضعف والذل إلى الله تعالى ، وأضدادها أوصاف الربوبية .. فمالك ولها ؟.. فلازم أوصافك ، وتعلق بأوصافه ، وقل من بساط الفقر الحقيقى : يا غنى من للفقير سواك ؟ ومن بساط الضعف الحقيقى : يا قوى من للضعيف سواك ؟ ومن بساط العجز الحقيقى : يا قادر من للعاجز سواك ؟ ومن بساط الذل الحقيقى : يا عزيز من للذليل سواك ؟.. تجد الإجابة كأنها طوع يدك " .

***

طلب الحبيب من الحبيب رضـــاه

ومنى الحبيب من الحبيب لقـــاه

أبـــداً يلاحظـــه بعينى قلبـــه

والقلب يعـــرف ربـــه ويـــراه

يرضى الحبيب من الحبيب بقربـــه

دون العبـــاد ، فما يريـــد سواه

فوجئ حمادة بك بطرقات قاسم الغريانى على باب البيت فى الصباح الباكر . طفت جثة على الراكشى ـــ بعد أيام ـــ فى خليج أبو قير . كانت بطنه مبقورة ، والسمك أكل أحشاءها . تعرف عليه محمد كسبة من المصحف الفضى المتدلى من عنقه . صرخ :

ـــ على !

كان اختفاء الراكشى شاغل الجميع ..

فى اليوم الثالث لغيابه ، سألت أم الأولاد فى الحلقة . يجوب الشوارع ، ويتردد على الجوامع والزوايا والقهاوى . ربما أراح جسمه فى الحديقة المقابلة لمستشفى الملكة نازلى ، أو فى حديقة سراى رأس التين ، أو فى مسجد المسيرى ، فلا ينام أكثر من ليلة خارج البيت ..

غاب محمد الراكشى عن المدرسة . توزع مع الرجال فى الشوارع والمساجد والكورنيش وورش المراكب والقهاوى ومستشفى رأس التين وحديقة القصر ونقطة الأنفوشى وقسم الجمرك ..

قال حمودة هلول:

ـ آخر مرة رأيته فيها ، كان يحمل البوصة والغلق قرب كلية الآداب ..

قال قاسم الغرياني :

ـ أذهب يوسف بدوى عقله .. وتركه !

بذل حمادة بك مساعيه ، فنقلت الجثة ـ بعد تشريحها ـ إلى بيت الراكشى ..

دفع أمين عزب ثمن الكفن . تناهى ـ ساعة غسله ـ من مكان قريب ، أذان وقت من أوقات الصلاة . وحين وقع القطن عن سوأته ، رفع يده اليسرى ، ووضعها على السوءة . قرأ المغسّل : نقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال ، فانقلب الراكشى معه يميناً وشمالاً ..

تهالك الناس على تعاطى ماء غسله ..

هرع الناس إلى الجنازة دون أن يخبرهم أحد . هاتف خاطب أسماعهم . مات على الراكشى ولى الله ، فاذهبوا للصلاة عليه ، ودفنه . أضاءت الدكاكين أنوارها فى ميدان الأئمة والموازينى وشارع الميدان . تقدم الجنازة طلبة من المعهد الدينى . يرتدون الجبة والكاكولا ، وينشدون ـ بنغمة موسيقية ـ بردة البوصيرى . كان غالبية طلبة المعهد

يعرفونه بالاسم . زار زكى تعلب . شرب أدوار الشاى ، وشارك فى الحفظ والمناقشات . دخل فى صداقات . سهر إلى صلاة الفجر . أظلت الجميع طيور ، ليست مما اعتاد الناس رؤيتها . ليست عصافير ولا سمان ولا نورس ولا حمام ولا يمام . إنما هى طيور صغيرة ، ملونة بما يضوى ، كأنه قطع الشمس ..

تنبه المشيعون من أهل بحرى لمكانة صاحب الجنازة . السؤال الذى حركه مرأى الجمع المتدافع : من الميت ؟ يجيبون عليه : هذا ولى فاضل !. يذوب الناس فى الجنازة . يضيفون إلى اتساعها وعمقها . يلتمسون البركة والمدد ...

أطال النعش التوقف أمام جامع المرسى . فى الناحية القريبة من المقام . أخفق الرجال فى تحريك النعش ، أو أقدامهم . تقدم آخرون للمساعدة .. لكن النعش لم يغادر المكان . علت التهليلات والتكبيرات . المريد يودع شيخه ، يستأذنه فى المغادرة . السلطان يبذل له نصحه وتوجيهه ، وما يجب قوله عندما يحاسبه الملكان ..

ــ بالإذن يا سلطان !

كرر الرجال ما تعالى به صوت زكى تعلب . أتبعوه بقراءة الفاتحة ، وقل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، والشهادتين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . تحركت ــ بالكاد ــ أقدام الرجال ، وتحرك النعش . علت التكبيرات والتهليلات . سمعها عساكر الحرس الملكى فى سراى رأس التين ..

كادت قيامة الناس تقوم لما انتابهم من عجب وهيبة وخوف ودهشة . ما حدث خارقة ولا خوارق الأولياء . امتدت الأيدى إلى النعش تحاول ملامسته ..

انتوى قاسم الغرياني ــ إذا أبطأ النعش أمام أضرحة الأئمة الإثنى عشر ــ أن يدعو لإنزال جسد الراكشى إلى جانب أولياء الله .. لكن النعش واصل طريقه ، وان اهتز ــ لمرات ــ فى أيدى الرجال . ربما ألقى السلام على الأولياء ، أو دعا لهم ..

الموت جسر ، يصل الحبيب بالحبيب ..

خرج الجد السخاوى من الجنازة على ناصية الموازينى ورأس التين . جلس على الرصيف ، قبالة مكتبة النن . لوح بيده ، وقال فى صوت متعب :

ــ مع السلامة يا على !..

واصلت الجنازة سيرها فى شارع الميدان . يزيد حجمها بالسائلين عن الميت . على الراكشى ، الصياد ، بائع السمك ، مريد الشيخ يوسف بدوى ..

حين وصلت الجنازة إلى جامع الشيخ إبراهيم ، كان العشرات قد صاروا مئات . وقف للصلاة عليه خارج الجامع أضعاف من وقفوا داخله ..

ظل المشيعون على أعدادهم حتى ميدان عمر باشا ، ومنه إلى ميدان النيل ، ثم مقابر العامود . تزاحموا فى الشارع الضيق ، ومنه إلى شوارع أخرى ضيقة . سبقوا النعش ، وحملوه ، وأحاطوا به ، وتبعوه ..

لما قاربت بداية الجنازة آخر شارع الباب الأخضر ، كانت نهايتها فى شارع الميدان ..

ولى الله كلمة السر التى اجتذبت المئات . التدافع والزحام والعرق واللهاث والدعوات والتكبيرات والصرخات والخوف من التعثر ..

علت الزغاريد ، وارتفعت الأصوات منغمة :

يا دايم هو الدايم ولا دايم غير الله !..

اندفع جابر برغوت ناحية النعش . اخترق الزحام الصاخب . مسح على النعش بأطراف أصابعه :

ــ كراماتك محفوظة يا شيخ على ! ..

تجاوزته الجنازة ، فى اللحظة التالية . دفعه الزحام خارج بحر البشر . جلس على الرصيف ــ أمام سور المقابر ــ يتأمل تمزق ملابسه ..

دخلت الجنازة من باب مقابر العامود المجاور لمستشفى دار إسماعيل . تعالى صوت على الراكشى من داخل النعش ، يسلّم على أصحاب القبور : السلام عليكم دار قوم مؤمنين . ردّوا السلام عليه بصوت سمعه مشيعوه ..

ظل النعش ينتقل من باب حوش إلى باب آخر . يتوقف ، ثم يواصل السير . لا يقوى حاملوه على فعل شئ ، يجذبهم غصباً عن أنفسهم ، يستغرق توقفه لحظات ، تطول وتقصر ، أمام كل ضريح ، ثم يسير بالناس إلى غيره . وحين أرادوا الدخول فى حوش عائلة الراكشى ، ثقل عليهم النعش ، ولم يطاوعهم . تكاثروا عليه ، يشدونه داخل الحوش ، وهو يغلبهم . وقعوا على الأرض دون أن يغادر مكانه ..

حاول الرجال أن يضللوا الراكشى . لفوا بالنعش مرات حتى لا يعرف إلى أين يتجهون ، ثم تمضى الجنازة .. لكن النعش رفض التحرك إلى الأمام .. ثم اتجه ــ من تلقاء نفسه ــ ناحية حوش مهجور ، تناثر فيه شجيرات صبار وقطع حجارة..

قال يوسف بذوى :

ــ اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ، وأوسع مدخله ، واغسله بالماء والثلج ، ونقه من الخطايا ، كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله داراً خيراً من داره ، وأهلاً خيراً من أهله ، وزوجاً خيراً من زوجه ، وأدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر ، وعذاب النار ..

واتجه بالقول إلى على الراكشي :

ــ أذكر العهد الذى خرجت عليه من الدنيا : شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأنك رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن إماماً ، وبالكعبة قبلة ، وبالمؤمنين أخواناً ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور .. فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل

واحد منهما ، ويقول : انطلق بنا .. ما يقعدنا عند هذا ، وقد لقن حجته ، ويكون رسول الله حجيجه دونهما ..

دهم الترببى ارتباك للصوت الصاعد من داخل المقبرة :

ــ غادروا المكان ، واتركونى مع رسل الله ..

طمأنته لمة الناس ، وتهليلاتهم ، وتكبيراتهم ..

قال على الراكشى :

ــ رب أنزلنى منزلاً مباركاً ، وأنت خير المنزلين ..

وقال فى صوت متأثر :

ــ ليت الناس يعلمون بما غفر الله لى ، وجعلنى من المكرمين ..

ورتل الصوت الرائق :

ــ إن الذين قالوا : " ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلاً من غفور رحيم " ..

وعلا صوت الراكشى بالآية :

ــ " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة " ..

وتلا :

ـ " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ، ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين " ..

تصاعد صوت هاتف من داخل القبر :

ـ ادخلوا الحبيب إلى الحبيب ..

وسمعت قراءة ، لا يوجد مثل جمالها فى أصوات القراء والمؤذنين ...

حين بدأ الشيخ فى تلقين الراكشى مايجب قوله ، إذا سأله الملكان ، سبق الراكشى فى صوته الرائق النبرات :

ـ أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . عشت مؤمناً ، ومت مؤمناً . الله تعالى ربى ، ومحمد نبيى ، والإسلام دينى ، ألم تعلموا أنى أعلم مالا تعلمون ؟..

الوصول إلى مقام المشاهدة ، لا يكون إلاّ بعد المفارقة من هذا العالم . الفناء فى الكلية ، سواد الوجه فى الدارين ، لاوجود ظاهراً وباطناً ، دنيا وآخرة . الفقر الحقيقى ، العودة إلى العدم الأصلى . لن يسأله الله عن زكاة ولا عن حج ولا صدقة ولاصلة رحم ولا مواساة . تجلت الحقيقة بالموت . اخترق البرزخ الهائل بين الأجسام الكثيفة ، وعالم الأرواح

المطهّرة . تألقت وجهة جميع العابدين . بلغ درجة النفس المطمئنة ، سدرة المنتهى ، البرزخية الكبرى . نهاية مراتب الأسمائية التى لا تعلوها مرتبة . جاوز قناطر النار ، واستوجب الجنة ، وعقل النعيم ، ووصل إلى الله .